معالم
تاريخ روما القديم

HISTORIA ROMANA
(ab urbe Condita 753 B.C. - 79 A.D.)

دكتور
محمود إبراهيم السعدنى
كلية الآداب - جامعة الزقازيق


دار النشر للجامعات - مصر
ص.ب ١٣٠ محمد فريد ١١٥١٨ - القاهرة - تليفاكس: ٤٥٠٢٨١٢

معالم

تاريخ روما القديم

منذ نشأتها وحتي نهاية القرن الأول الميلادي

HISTORIA ROMANA

(ab urbe condita 753 B. C. - 79 A. D.)

الدكتور

محمود إبراهيم السعدني

الأستاذ المساعد للتاريخ والحضارة اليونانية - الرومانية

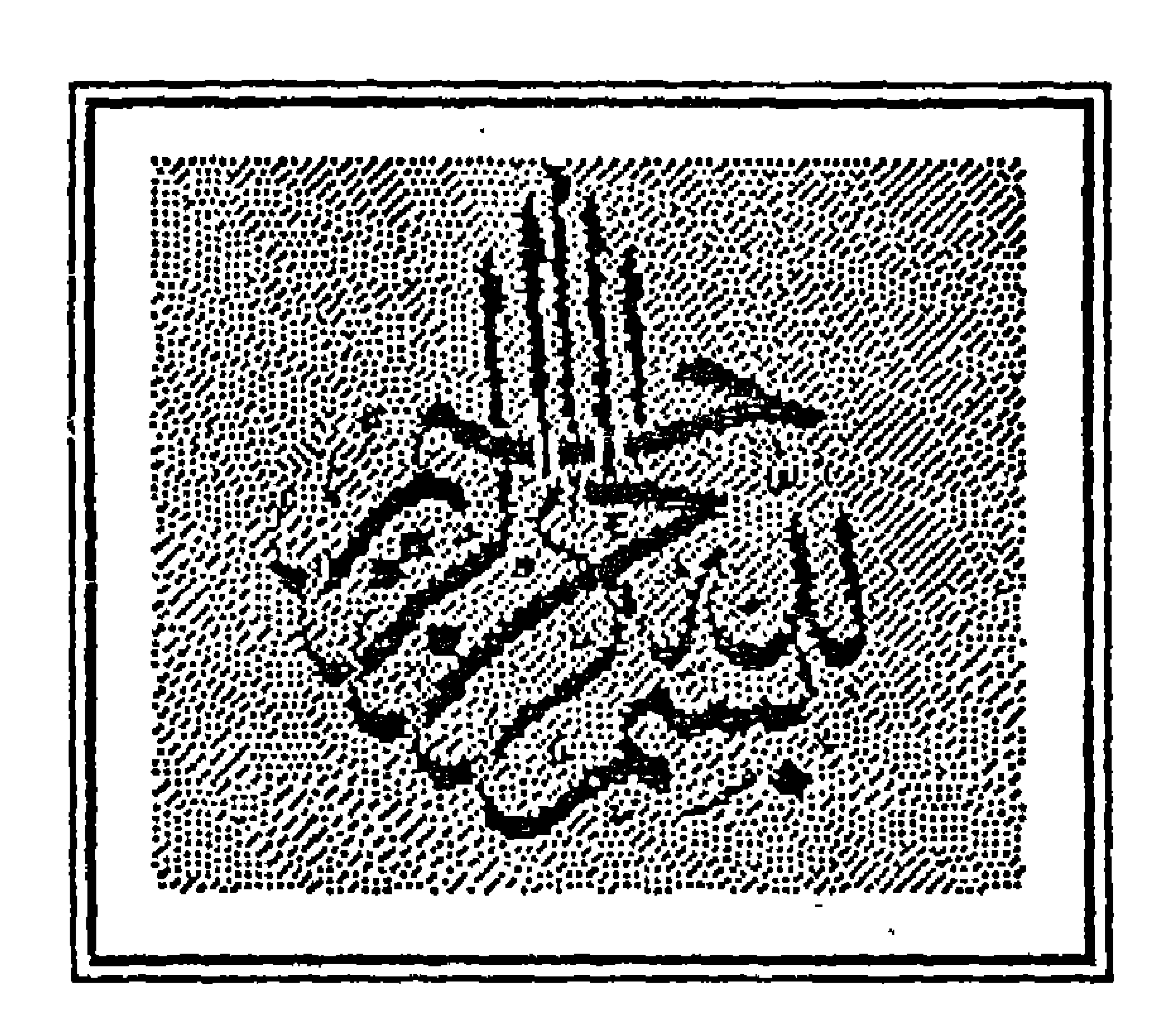
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الناشر

دار نهضة الشرق

جامعة القاهرة

١٩٩٧



محتويات الكتاب

الباب الرابع

المراحل الأولى في تاريخ الإمبراطورية ١١٧ - ١١٧

التقديـــم

أولاً : أيها القارئ الكريم ،

بماذا أقدم إليك كتابي هذا في التاريخ القديم ؟ سؤال حيرتني إجابته . وبعد طول تفكير ، هداني الله إلى ذلك المدخل المنطقي الذي لا يمر العام الدراسي دون أن أسمعه من طلابي وطالباتي في أولى محاضراتي لهم . إنه السؤال التالي :

لماذا ندرس التاريخ والحضارة اليونانية والرومانية ؟

عندئذ ، غالباً ، ما تكون إجابتي عن هذا السؤال تتلخص في عدة نقاط ، لعلي أكون موفقاً في عرضها كالآتي :

١ - لا أحد ينكر (ولا يمكن أن يدّعي غير ذلك إلا كل متعصب جاهل بأصول الحضارات القديمة في تلك المنطقة الحساسة من العالم القديم) أنه لا توجد حضارة قديمة بدأت ونشأت من العدم ، أياً كانت هذه الحضارة ، شرقية كانت أم غربية . وعلى أحسن تقدير ، فإن هذه الحضارة أو تلك ، لابد وأنها **تعلّمت أو نَقَلَت أو قلّدت** حضارة أخرى في بعض مظاهرها الحياتية ، ذلك لأن حضارات التاريخ القديم ، بصفة خاصة (وبالرغم من صعوبات الإتصال وبدائية وسائله في تلك الآلاف الأولى من السنين فيما قبل الميلاد) لم تكن تعرف الإستقلال التام عن جيرانها ، **لأنه كان في الإتصال والتنسيق مع الجيران** (حتى ولو كان الأمر قاصراً على التوجهات السياسية أو العسكرية -الأحلاف- فقط ، دونما قيام

عمليات تجارية لصالح الحضارتين) **أمان للمستقبل القريب لكل حاكم بعيد النظر .**

٢ - إن أقدم الحضارات التي عرفها العالم القديم نشأت وأزدهرت في المنطقة ، وهى متصلة الإتساع ، لا فواصل بينها ولا عوائق تحول دون التأثير والمتأثر بين هذه وتلك ، وهى المعروفة بإسم : **منطقة الشرق الأدنى** : حيث عرفنا حضارات بلاد الرافدين (البابلية والآشورية) ، وحضارات سوريا القديمة (الحيثية والفينيقية) ، وحضارة مصر القديمة في وادي النيل في هذا المثلث الهندسي على أرض الشرق الأدنى ، **هو مثلث القوة والمنعة والثراء والإزدهار** ، على مر العصور والقرون ، فهل يحق أو يجوز - تاريخياً - أن نسأل عن أقدم تلك الحضارات ؟ وأيتها هى صاحبة الفضل على الأخرى ؟

نجيب ، نعم يمكن تاريخياً ، إذا ما رصدنا أقدم الأدلة الأثرية في تلك الحضارة أو تلك .. ولكن ، تلك المحاولة ، **لن تخرج عن كونها رصداً لأقدم محاولات آدمية إنسانية للعيش على أرض هذه البقعة من الأرض أو تلك ، ولن يتحقق مفهوم الحضارة الواسع ، كما نعرفه :**

إن الواقع التاريخي القديم لتلك المنطقة الخالدة ، يؤكد أن المعنى الحضاري الواسع الكبير ، لا نعرف له وجوداً في كل حضارات الشرق القديم ، **إلا منذ الألف الثالثة قبل الميلاد :** حيث اللغة الواضحة ، والإدارة الحازمة ، والنظام السياسي الثابت ، والرموز الدينية الراسخة في قلوب الملايين من أبناء شعوب كل حضارة من حضارات ذاك الماضي الخالد وتراثنا المجيد .

٣ - وبينما كان الشرق في قمة إزدهاره وقوته ، بدأت الحضارة اليونانية مشوارها الحقيقي ، الكامل المعنى . عندئذ نظرت إلى الشرق نظرة تمني وأمل ، ولذلك حرصت - طيلة مراحل تطورها العديدة (الحضارة المينوية الكريتية ، والحضارة الميكينية الهيللادية ... إلخ على إستمرار الإتصال بحضارات الشرق كلما كان ذلك ممكناً .

ولكن تلك الحضارة اليونانية - ومن بعدها الحضارة الرومانية [بالرغم مما نَقَلَته وقلدته عن الأصول الشرقية الحضارية] إلا أنها كانت متميزة في نتاجها الحضاري النهائي .. ومع ذلك فلا يمكن أن يتم الفهم السليم لتلك المراحل الأولى من عمر الحضارة اليونانية دون الرجوع إلى الأصول الشرقية . وهكذا تصبح دراسة الحضارة اليونانية ، وكذا الحضارة الرومانية [بالرغم من إستقلالية تلك الحضارة لإختلاف العنصر المؤثر الأول فيها وهو الشخص الروماني ذاته] ، هو إستكمال تاريخي لحلقة حضارية هامة من تاريخ حضاراتنا القديمة ، ولكن على أرض أجنبية ، مما يؤكد إتساع رقعة التأثير الحضاري الشرقي القديم على الجيران .

٤ - وإذا صحّ ، من منظور معاصر ، أن الحضارة اليوم هى حضارة أوروبا وأمريكا [والحق أنها ليست إلا تفوقاً تكنولوجياً نرزح نحن تحت صولجانه وهيمنته وجبروته ونلهث وراء خطواته] ، فالأولى بنا أن نوجه ناظرينا إلى باعث تلك النهضة التي تأخذ بألبابنا وتسحر أفئدتنا في كل حين . إنها روما القديمة صاحبة الفضل الأول على أوروبا :

١ - في اللغة .

٢ - في القانون والدستور .

٣ - في إقامة تجمعات وقوميات كبيرة .

٤ - في الديانة (المسيحية) .

ولكن الدرس الأقوى وهو عبرة الزمان ، هو ما تعلمته أوروبا ووعته جيداً ، إنه زوال روما وإنهيار امبراطوريتها العظمى العالمية ، كما قال پلامب (Plump)[1] في تقديمه لكتاب دونالد دادلي :

" Rome's greatest influence on Europe, and perhaps on the world, arose from decline and fall, from indeed her failure as an Imperial power. " .

درس ، حفظته أوروبا عن ظهر قلب ، بينما ، نحن العرب ، لا نزال نتخبط ونتكلم أكثر مما نعمل ، ونقع في الأخطاء ذاتها التي أطاحت بأحلام السابقين من زعماء أمتنا المخلصين . ألم نتعلم بعد ؟ !! أما كفانا أحلاماً وإنفعالاً ؟ !! إلى متى سنعيش وسط ضباب الكلمات ومعسول الشعارات ولحظة الإنفعالات ؟ !! .

محمود السعدني

مدينة المبعوثين - الجيزة

أول فبراير ١٩٩١

---

(1) D.Dudley, Roman Society, Great Britain 1970, p. XXIII .

ثانياً :

عندما كانت روما (Roma) مدينة صغيرة كان حكامها ملوكاً reges ويمكننا تأريخ ذلك فيما بين ٧٥٣ ق. م. وحتى ٥٠٩ ، أي منذ نشأة تلك المدينة وحتى آخر ملك من ملوك روما القديمة وهو تاركونيوس المتغطرس Tarquinius Superbus وهو آخر تواجد للإحتلال الاتروسكي لروما

بعدها مرت روما بنظام جمهوري Res Publica منذ ٥٠٩ وحتى عام ٣٠ ق.م. ، مارست خلال تلك القرون الخمسة تقريباً ، كل إجراء من شأنه تحقيق مصلحة الوطن ككل ، أي روما ومعها كل حلفائها من إيطاليين وغيرهم ، مثل أغريق جنوب إيطاليا Magna Graecia . شكلوا مجالس نيابية من عشرة شيوخ ، ولكنها لم تكن تستمر لأكثر من عامين متتاليين ، وعرفت خلالها كذلك فترات حكمَها ضباط عسكريون صغار ، وطبقاً لترتيبات مؤقتة في ظروف خاصة ، ثم أعطت زعماء القبائل الحق في الوصول إلى منصب القنصلية والذي كان مقصوراً على رجالات مجلس الشيوخ (سناتوس) Senatus .

كما عاشت روما لفترات زمنية قصيرة ، نظام حكم الفرد ، ثم الجماعة العسكرية وإئتلاف القادة وصولاً إلى يوليوس قيصر Julius Caesar الذي ملك زمام الأمور في يده لمدة قصيرة ودخل في خلاف مصيري مع رجالات السناتو الأقوياء الذين لم يغفروا له خطيئة زواجه من كليوباتره السابعة التي تحدت الرومان في عقر دارهم مما قرّب نهاية قيصر بمقتله عام ٤٤ ق. م. لقد كانت القوة العسكرية في إزدياد مستمر مما أهلها لأن تقوم بالدور الأول في تحديد سياسات روما في تلك الفترة من ناحية ، ومما أسفر - نتيجة

للأحقاد ولإختلاف المصالح الشخصية - من صراعات بين القادة أنفسهم كما عرفنا ما كان بين أنطونيوس Antonius وبين أوغسطس وما سبقه من تنافس فريقي يوليوس قيصر وپومپي من ناحية أخرى .

وجدير بالذكر هنا أن نقول أن أوغسطس Augustus كان محظوظاً عندما ساعدته الظروف وساعد هو نفسه في أن يخرج منتصراً على عدوين اثنين في وقت واحد عام ٣١ ق. م. وبذلك خلت الساحة السياسية والعسكرية على السواء من منافس قوي يثير فيه التحدي فراح يفكر تفكير الساسة المحنكين ، حيث برع تماماً في أن يُدَعِّم مركزه العسكري بشكل سياسي قوي وعلى دعائم دستورية ثابتة أوجدها لنفسه وذلك بعد أن نجح في خلق أرضية مشتركة للتفاهم مع الزعماء السياسيين من رجالات السناتو الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر إعلان أوغسطس عن نواياه ، بعد أن توقفت الحروب وأصبح أكتـفـيانوس هو الحاكم الواحد الأوحد للامبراطورية الرومانية Imperium Romanum مما جعل ذلك النظام يعرف بإسم : المواطن الأول Princeps .

إننا بإستعراضنا لتاريخ العصر الامبراطوري الأول في عهد مؤسسه العظيم ، سنتأكد من حقيقة جديدة تماماً على التاريخ القديم كله ، **وهى ذلك النجاح الكبير الذي يحققه قائد عسكري فذ في الميدان السياسي وبذلك يكون أوغسطس هو أول شخصية عسكرية تكسر قيود المقولة بأن العقلية الحربية لا يمكنها ممارسة السياسة بنجاح** .أننا - حقاً - أمام عبقرية قيادية أجادت في ميدان الحرب والسلم كذلك ، وتركتنا أعمال أكتفيانوس هذا ، في المجالات العسكرية والمدنية على السواء ، أمام حقيقة فرضت نفسها على كل دارس للتطورات

التاريخية لروما الامبراطورية ، تلك هي عبقرية أوغسطس الحربية والسياسية .

إننا - ووفقاً لأحدث نظريات دراسة التاريخ - سنقوم بإلقاء مزيد من الضوء على وضع الامبراطورية الإجتماعي وكذلك الإقتصادي وبصفة خاصة وضع مدينة روما العاصمة ومشاكلها المختلفة ، وذلك من خلال الكتابات المعاصرة أدباً كانت أم تاريخاً ، بهدف إبراز هذه الخلفية التي أغفلها دارسو التاريخ القديم ، يوماً ما . وآن الأوان ، في ضوء الإكتشافات الأثرية الحديثة ، أن نتعرف على صورة المجتمع الروماني في نظر الكُتّاب الرومان أو حتى اليونان ، سواء كان منهم معاصراً أو سجل لنا أحداث التاريخ الروماني بعد ذلك بعدة قرون .

وإذا ما سأل سائل لماذا توقفنا عند نهاية القرن الأول الميلادي ، فإننا نرى أن هذا الحد من تاريخ روما الطويل فيه الكفاية لدارس تاريخ تلك الحضارة للوقوف على مظاهر القوة ومواطن الضعف في جسد تلك الأمة التي بدأت ككل الأمم فأخذت بأسباب النهضة وحافظت عليها لمدة طويلة وصلت لأكثر من خمسمائة عام بقليل منذ بداية النظام الجمهوري إلى قمة إزدهارها في عصر أوجوستوس (أي من حوالي ٥٠٩ وحتى عام ١٤م) وهي فترة ليست بالقليلة لأن أسهم روما كانت في تزايد مستمر وحققت لنفسها مكاسب جمة ، كانت في المقام الأول - متمثلة في شخص زعمائها ، وعادت ببعض النفع على عامة الشعب الروماني .

ولكنها ما أن انحرفت عن جادة الصواب وجاد القادة الرومان حَادَ عن الطريق القويم - طريق ومنهج السلف الصالح (Mos Maiorum) وغلّبوا مصالحهم الذاتية على مصلحة البلاد العليا ، فكان أن دَبَّ الخلاف بينهم

وبدأت بذور الشك تنمو وتترعرع داخل النفوس الضعيفة التي راحت تتآمر ضد بعضها البعض فأجهز ذلك سريعاً على البقية الباقية من أخلاق الأوائل مثل الإيثار والتضحية بالنفس (Devotio) في سبيل الصالح العام .. وهكذا حقت عليهم كلمة ربك بالحق .. وكانت بداية النهاية منذ أول خليفة لأعظم رجالات روما فعالية ، الامبراطور أوجوستوس ولذلك رأينا أن نسير معهم طيلة قرن من الزمان تقريباً حتى نتعرف على أشكال الفساد في الامبراطورية الرومانية ونعرف أن **التاريخ القديم - بعامة - هو تاريخ أعظم الرجال والقادة** ، منهم وعلى أيديهم تغيرت نظم وقامت ممالك وزالت أمم ودويلات وأقاليم ... أي أن الفرد ، القائد والزعيم ، كلن هو الأساس ، وصاحب البنيان الأعظم ، وباعث الشرارة الأولى لكل تغيير .. وعلى النقيض تماماً ، يصح العكس .. **فالقدوة الصالحة هى خير الطرق لإقناع الشعوب لإنتزاع مشاركتها الإيجابية وإستمرار تلك المشاركة بالقوة ذاتها والحماس ذاته** .. وأما ما عدا ذلك ، فلن يدوم وسيكشف الشعب زيفه ، وسرعان ما ينفض من حوله ، وبالتالي تُصاب الشعوب بأزمة ثقة وحالة من الإحباط واللامبالاة .

إن الدرس المستفاد من روما الجمهورية وحتى بداية النظام الامبراطوري (على يد المؤسس الأول أوجوستوس) أن النظام المتمثل في قدوة صالحة تمثلها حكومة مخلصة لمبادئها ولشعبها هو أقرب الطرق وأقصرها لإقناع كل الناس بنزاهة أداة الحكم وإعلاء المصلحة القومية فوق كل الإعتبارات وبالتالي سمعنا عن النجاحات في فترة وجيزة أذهلت العالم القديم كله وأثارت تَعجُب پولييبوس .

لقد اعتمدت روما - ككل القوى القديمة في حوض البحر المتوسط - على المبادئ الأخلاقية القديمة ، قبل أن يكون هناك قانون وضعي ، وحققت بذلك نجاحات تلو نجاحات . ولكنها بمجرد أن سارت في موكب الإغراق في الماديات وتناست مبادئ الإنطلاقة الأولى ، انعدم الصبر الجمعي وتقلص الصالح العام ، وتضخمت « الأنا » عند القادة والزعماء ودخلت روما في حرب أهلية ، دفعت ثمنها غالياً ، لتكالبها على المكاسب المادية الشخصية .. وهكذا اشترت الدنيا ونسيت الآخرة .. ولم تعد للرحمة مكانة بين الرومان .. وزادت أعباء المديونية واستفحلت ديون الفقراء وازدادت أعداد العبيد ، حتى انفجروا في بركان هادر ، تمثل في ثورة سبارتاكوس (Spartacus) وأومات الاستقراطية الرومانية برأسها لتمر رياح الغضب بسلام ... وكسبت طبقة العمال والعبيد إحدى جولات الصراع . واكتفت ببعض المكاسب المادية المحدودة ولكن السيطرة السياسية ظلت كما كانت وبات مصير البلاد معلقاً بين يدي كبار رجالات روما الذين دفعوا ثمن أنانيتهم غالياً ودفع الرومان جميعاً ، معهم ، بسبب سلبيتهم وسيرهم على دين ملوكهم ، ولهذا كان عهد خلفاء أوجوستوس بداية النهاية الحقيقية في تاريخ الامبراطورية الرومانية ، حيث تنوعت أشكال الفساد وتغلغلت مظاهرة حتى النخاع في حياة روما والرومان ، ولم تكن القرون الأخرى - الثاني والثالث وحتى الرابع الميلادي ، إلا عزفا على وتر واحد ، وهو المحاولات الفردية من بعض الأباطرة الرومان لإحياء الماضي المجيد في بعض مناحي الحياة ، ولكن هيهات أن تدوم فقد كانوا يبنون على أساس هش ، وكأنهم ينشأون القلاع فوق رمال متحركة ... وكانت النهاية الفعلية على أيدي أقوام آخرين ، بدأوا نهضتهم مما نسيته روما والرومان بعد أكثر من خمسمائة عام من بزوغ نجمها ، فما كان إلا أن هوى

وتكسر على حافة القانون الأزلي وحكمة التاريخ والحياة معاً ، فالحياة دائماً للأصلح والأفيد للمجموع الذي يعيش وسطه ... ولا خلود للأنا إلا أنا الشعب كله ، كما عرفنا ذلك وتعلمناه من درس تاريخ الامبراطورية الرومانية ولا سيما بعد أن تهاوى نظام الجمهورية الرومانية (٥٠٩ - ٢٧ ق. م.) على أثر الحروب الأهلية وتضارب مصالح فئات الشعب المختلفة مع السلطة العليا الحاكمة . صاحبة الحول والطول في تحديد سياسات روما العليا ، أي بسبب ذلك الصراع الطبقي بين العامة (Plebs) والأشراف (Patricii) . إنه درس يجب أن تَعِيَه كل الأمم عبر العصور .

الباب الأول

مدخل عام : التاريخ القديم وروما

الفصل الأول

« حقيقة مصادر التاريخ القديم »

التاريخ القديم إصطلاح واسع ، تضم مادته أحداثا كثيرة ، مضى عليها الزمان وانقضت قرون وعصور وانطمست معالم المكان والاشياء وأصبح من الصعب بل يستحيل على غير المتخصص أن يستنتج أى شىء فى غياب الدليل الأثرى القاطع ، ولا يمكن الاكتفاء بما كتبه البعض من انطباعات أو ما سجله من مواقف وأحداث لأن ذلك لن يخرج عن كونه وجهة نظر شخصية الا فيما ندر ، حيث يتجرد الكاتب عن عواطفة وميوله ، ويعرض للموضوع من جوانبه المختلفة ملقيا الضوء على أبعاده الايجابية والسلبية على السواء وليس على جانب واحد فقط ذلك الذى يعبر عن رأيه الشخصى ويخدم مصالحه هو فقط أو مصالح من يخدمهم قلمه .

إن تاريخ شعب من الشعوب ، يختلف فى بدايته ونهايته من منطقة إلى أخرى ، كنتيجة طبيعية لاختلاف مقومات الشعوب ومدى الإنجاز الحضارى الذى خلفته عصور نهضتها ، ثم تبعا لظروف المنطقة التى قامت عليها مراحل ذلك التاريخ القديم ووقعت أحداثه ولهذا نجد أن التاريخ الفرعونى (المصرى القديم) يبدأ فى فترة تختلف عن بداية التاريخ اليونانى القديم ، كما تختلف بداية التاريخ الرومانى القديم عن كل من التاريخين السابقين ، وهذا شىء منطقى جدا ويؤكد على خصوصية كل حضارة وتفردها عن غيرها بسبب خصوصية كل مقومات تلك الحضارة وتميزها الواضح عن الأخرى ، نفس الشىء يمكن أن يقال عن عوامل تدهور وإنهيار ونهاية كل حضارة من الحضارات السابقة الذكر وكيف أنها تختلف طولا وقصرا وتعليلا .

– فإذا نظرنا نظرة فاحصة إلى كل ما وصل إلى أيدينا من مصادر

تاريخية قديمة فى أى فرع من فروع التاريخ القديم . ولأى أمة من الأمم نجد أن تلك المصادر لا تخلو من معلومات وأخبار موجهة ومقصودة بغرض اعلام الأخرين بأشياء معينة بغض النظر عن مدى حقيقة تلك الأمور ومصداقية وقوع تلك الأحداث . أى أن تلك المصادر ما هى فى الأمر ، إلا بُوق دعاية مغرضة خرجت من القصور الملكية أو من بيوت الأمراء ورجالات الدولة آنذاك لتوضيح بعض المواقف للعامة أو لتسجيل ما هو فى صالح تلك الفئة الحاكمة ، وإختفاء كل دليل على ادانتها . ناهيك عن كتابات الشعراء المنافقين الذين يتكسبون ويحترفون عملية الخلق الفنى ولا يهمهم إلا ما يغدقه عليهم الملك والأمراء من هدايا ومنح .

هل نتوقع إذن ، طالما أن الأمر يتعلق بمصالح معينة أن تكون الحقيقة التاريخية هى هدف تسجيل الوقائع فى حوليات مثلا ، أو داخل أرشيف الدولة فى فترة من الفترات ؟

إنك لتذهل حقا عندما تسمع عن تفاصيل طرق وأساليب الحكام والأمراء والقادة العسكرية فى الوصول إلى كراسى الحكم . لقد كان أسلوب المؤمرات والدسائس هو الطريق الوحيد الموصل حتما إلى العرش فى التاريخ القديم ، إلا عندما كان ذلك العرش وراثيا بين أبناء الأسرة الواحدة وحتى فى هذه الحالة التى تستبعد العناصر الأخرى ، غير الملكية ، عن الدخول كأطراف فى الصراع العائلى من حول العرش ، ألم نسمع عن أفظع الجرائم التى يرتكبها الأبناء ضد إخوانهم ، والأخوة ضد بعضهم البعض طمعا فى الأنفراد بالحكم ؟ عندئذ من ستخدمه الحقيقة التاريخية إذا سجلت ؟ إنها ستخدم عدو السلطة وكيف يسمح الحاكم بذلك ؟ هنا يؤخذ أخطر قرار وهو ضرورة طمس معالم الحقيقة وتسجيل أى شىء آخر غيرها وإيهام الناس

بصدق الرويات الجديدة عن تفاصيل الوقائع والأحداث وبمرور الزمن يصبح ما يصل إلى الآخرين من أجيال لاحقة فى صورة حوليات أو وثائق محفوظة أو مادة أثرية من نقوش[٤] أو شواهد قبور Stelae أو عملات نقود[٥] Coins هى المصدر الوحيد للحكم على عصور التاريخ القديم . فأين الحقيقة المجردة فيما هو مكتوب عن فترات التاريخ القديم ، سواء بأيدى المعاصرين أو اللاحقين ؟ للأسف الأجابة : لا نعرف ! .

ولذلك أن الدراسة التاريخية اليوم وبعد تقدم علم الآثار وتحديث طرقه وأساليبه فى الحفر والتسجيل والتأريخ - لا يمكن أن تكون كاملة بدون الاستعانة بنتائج الكشوف الأثرية التى إما أن تؤكد كتابات الأدباء والمؤرخين القدامى وتثبت مصداقية ما نقلوه الينا عن عصورهم أو عصور من سبقوهم من الأمم وأما أن تكشف النقاب عن عدم دقتهم ومبالغاتهم وحتى عن جهلهم بالموضوعات التى كتبوا عنها وعن اختلافهم لأسباب وهمية لا يمكن لنا اليوم أن نجزم بحقيقتها التاريخية وواقع حدوثها فى وقت ما ، بل يجب علينا عندئذ أن نأخذ حذرنا وألا نرددها كما جاءت . ونتحفظ عند عرض تفاصيلها .

مصادر التاريخ الرومانى :

إنه لمن المعروف لدى دارسى التاريخ والحضارة الرومانية أن العنصر اللاتنى من سكان إيطاليا القديمة ، والذى كان يحمل هذا الأسم Nomen

(٤) تدخل النقوش الأثرية على سطح أي مادة صلبة ضمن مجالات علم كبير يسمي (Epigraphy) له قواعد ، وأصوله في كل حضارة .

(٥) تعتبر العملات النقدية على أختلاف المعادن المصنوعة منها ، أحد أهم المصادر التاريخية القديمة والتي تنتمي إلى علم الآثار ، فرع المسكوكات باليونانية (Nomismatire) وبالإنجليزية Numismatics .

Latinum كان قد وصل إلى إيطاليا حوالى أوائل الألف الأولى ق . م ، أى فى عام ١٠٠٠ ق . م تقريبا وبعد حوالى قرنان من الزمان ، كان اللاتين (Latini) قد استقروا فى أقليم واحترفوا مهنة الزراعة والرعى ، وأقاموا أماكن لآلهتهم وهياكل مقدسة لمعبوداتهم ولتأدية صلواتهم ولتقديم قرابينهم (طمعا فى ترضية الآلهة وكسبا لرضاها ودرءا لغضبهم وشرورهم .

هنا وكما قلنا من قبل ، إن دليلنا على ذلك القدر من المعلومات الاولية البسيطة عن أولى مراحل العمران والتحضر فى إيطاليا القديمة ، ليس إلا ما قدمته الحفائر الأثرية فى إقليم نوڤا Villa Nova بالقرب من بولونيا حيث تم العثور على مخلفات أثرية من آنية فخارية مستديرة ، وأسقف مثلثية الشكل والألواح الخشبية ، ولتوابيت تحفظ رماد الموتى ، فضلا عن العديد من أدوات مصنوعة من البرونز والحديد . وجدير بالذكر أن هذه الآثار تم الكشف عن أشياء مثلها فى مواقع كثيرة من أقليم لاتيوم . ولهذا فإننا نستطيع أن نستنتج باطمئنان كبيران " اللاتين الأوائل " كانوا شعبا رعويا يربون الماشية والأغنام والماعز والخنازير ، ويعيشون فى قرى مبعثرة داخل أكواخ مستديرة مصنوعة من روافع خشبية تحوطها الجوانب المصنوعة من القش المجدول بالطين . كما كانوا يتكلمون بلغة من أصل هندو - أوربى[٦] .

أما عن نشأة مدينة روما نفسها والتى اتفق على أنها وقعت فى عام ٧٥٣ ق . م بل والمذهل حقا ، أن يصل التحديد إلى القول بأن روما أنشئت - طبقا للأسطورة - فى يوم ٢١ أبريل عام ٧٥٣ ق . م لكننا إذا عرفنا أن هذه التواريخ ليس لها أى سند أثرى بهذه الدقة والتحديد ، فإنه ليس من المنطق

---

(٦) عصور ما قبل التاريخ في حضارة روما هي الفترات التي لم تعرف فيها شعوبها الكتابة والتسجيل ولم تكشف الحفائر عن أي أثر مكتوب بلغة محددة واضحة .

أن نصدق ذلك تصديقا تاما ونهائيا . وإذا ما عرفنا - كذلك - إن الدليل الأثرى فيما قبل الميلاد - على أختلاف فأدواته ووسائله فى التاريخ - به مدة سماح للخطأ الزمنى تصل إلى ما بين ٥٠ - ١٠٠ عام ، كان لنا الحق فى ألا نجزم جزما قاطعا بأى تاريخ محدد ، وعلى وجه الخصوص فى فترات ما قبل التاريخ لأى حضارة ما(٧) .

إن كل ما كشفت عنه الحفائر الأثرية فوق تلال روما القديمة هى بقايا لوجود مجتمعات رعوية بدائية وبصفة خاصة فوق تل بلاتينوس Palatinus والتى يمكن تأريخها بحوالى ٧٥٠ ق . م والحقيقة التاريخية تفرض علينا أن نقول أنه من الصعب أن نحدد متى اتحدتهذه التجمعات الرعوية لتصبح تجمعا واحدا أكبر تحت أسم " روما " Roma وكانت تدفن مواتاها فى جبانة واحدة حتى حوالى ٦٠٠ ق . م .

ولهذا كان استنتاج أستاذ الكلاسيكيات والمؤرخ الأنجليزى D . Dudley فى محله عندما قال : "At some date we cannot determine" These" scattered communities released into a Larger unit, then for the first time, the name of Roma may be given.

إذن فإن الحديث عن روما قبل ذلك التاريخ هو ضرب من الخيال أو لون من الأساطير للشعب الرومانى وتراثه الذى لا يمكن أن يخضع لضوابط علم التاريخ والأثار وبالتالى فإن ذكر آية تفاصيل عن أعياد السبعة تلال Septimentium أو عن ملوك روما قبل عام ٥٠٩ ق . م أى ما جاء عند ليڤيوس

---

(٧) نستطيع أن نعتبر هذه اللغة في تلك الفترة المبكرة من تاريخ اقليم لاتيوم ، أول صورة للغة اللاتينية proto-Latin وأقدم مها شكلا ، أما اللغة التي وصلتنا وهي التي كانت لغة العصر الذهبي اللاتيني للحضارة الرومانية فأقدم صورها جاءت في أقدم نقوش لاتينية ، التي يمكن تأريخها بنهايات القرن السادس ق . م .

من ذكر لأسمائهم وكذلك أعمالهم بما فيهم الملك نوما Numa والملك سابينا Sabine لا يمكننا أن نعتمد عليه كمادة تاريخية طالما أن علم الآثار هو مصدرنا الوحيد فى هذه الفترة المبكرة من تاريخ روما ، لم يستطع إلى الآن أن يضيف شيئا أو يكشف لنا عن هوية أولئك جميعا .

وفى ضوء نفس المعيار فإننا لانستطيع أن نكون صورة عن شكل الحياة السياسية لروما اللاتينية ومؤسساتها التى لابد أنها كانت تشتمل على مجلس الشيوخ ، كأنموذج لما عرف فيما بعد بأسم Senatus وبالتالى على جمعية عمومية أو مجلس برلمانى ولكننا لا نعرف شيئا عن علاقات روما ، فى تلك الفترة بالتجمعات السكنية الأخرى فى أقليم لاتيوم(٩) .

لقد عرفت أيطاليا القديمة فى القرن الثامن ق . م ثلاثة عناصر بشرية هامة . كان لها دورها فى تطوير الحضارة فى شبة الجزيرة الإيطالية . إذ كانت لهم اسهامات واضحة فى تاريخ تلك المنطقة . فكان الأتروسيكيون فى شمال أقليم لايتوم والذين تعلم اللاتيم منهم الأبجدية ، وكانوا أصحاب حضارة شرقية فى معظمها ، ثم اليونانيون الذين احتلوا جنوب أيطاليا وشمال صقلية ، حيث عاشوا حياتهم فى مستعمرتهم الجديدة - خارج بالدهم - والتى أسموها اليونان الكبرى . وبعد ذلك بحوالى قرنان من الزمان دخل إلى شبة الجزيرة الإيطالية من الشمال عند نهر الدانوب عنصر سكانى جديد فى موجه غزو حملت معهامها جربن كلينين Celts إلى وادى نهر بو Pe .

وهكذا فإن التقييم العام للوضع فى إيطاليا القديمة فى الربع الأول من الآلف الأولى من قبل الميلاد ، يمكن أن يتخلص فى - ذلك بفضل الدليل الأثرى وجده كمصدر من مصادر التاريخ الرومانى فى تلك الفترة المبكرة -

(8) Dudley, Roman Society, (Pelican books), Great Britain 1970, p. 8.
(9) I bid., p. 9.

أنه : كانت هناك جماعات بشرية صغيرة ، فى مناطق متفرقة ودونما أن يجمع بينها أى نوع من أنواع الوحدة القومية[١٠] وبالتالى ليس هناك على أرض إيطاليا القديمة فى الفترة الآنفة الذكر ، أى أثر لحضارة يمكن أن يقارن بما عرفته كريت أوموكينا فى اليونان وناهيك - بالطبع - عن الحضارات العظيمة فى الشرق الأدنى[١١] وعلى النقيض تماما ، وهذا أمر طبيعى كذلك لأى حضارة من الحضارات القديمة ، فإننا نسمع عن تراث شفهى غنى ليس أمامنا من سبيل إلى تصديقه تماما ولا حتى نفيه كلية .

فالتراث الأدبى للرومان يحكى عن ملوك اتروسكيين حكموا روما لمدة تتجاوز ١٠٠ عام بقليل ، وذلك منذ احتلال تاركونيوس الأول عام ٦١٦ ق . م وحتى طرد الأخير من ملوكهم وهو تاركونيوس المتغطرس عام ٥١٠ على يد بروتوس ، مما وضع نهاية للنظام الملكى وأرسى دعائم النظام الجمهورى الذى كان بداية للتاريخ الرومانى الحقيقى وللانجازات الرومانية العظيمة فى ميادين الحرب والسلام ولكن كل ما نعرفه عن روما تحت الاحتلال الاتروسكى بين بناء المعابد وصناعة تماثيل للآلهة المعبودة واتخاذ روما كمركز تجارى هام للتجارة المارة بها من أقليم اتروريا شمالا إلى أقليم كمبانيا جنوبا ، ليس هناك ما يؤكد تلك المعلومات بالدليل الأثرى[١٢] .

---

(10) I bid., p.4.

(11) Dudley, D., op cit., p. 5.

(١٢) لمزيد من تفاصيل ذلك التراث الأدبي ، راجع ديون كاسيوس ، التاريخ الروماني

في سلسلة Loeb Classical Library

ترجمة Dio Roman History, vol. I, book

Lond. 1954 (Rep), PP-55-133

وبايجاز عن علاقة روما بالاتروسيكين راجع Dudley, D., op. cit., pp.15-19.

مؤرخو التاريخ الرومانى (مثال) :-

لما كانت اللغة اللاتينية وليده هى فقط من مواليد القرن الخامس قبل الميلاد ولم تكشف لنا الحفائر الأثرية عن أى أثر لها دون ببعض أشكالها وتراكيبها إلا ذلك اللوح الذى سجل كلمة "Rex" فحسب مما أوضح - دون شك - نوع النظام السياسى الذى كان موجودا مع نهايات القرن السادس ق . م وبدايات القرن الخامس ، فإننا أمام مصدر واحد لاغير ، وهو التراث الأدبى ، والذى سجله اللاحقون من الأدباء والمؤرخون ، حتى نستطيع أن نملأ به تلك الفجوة بين تاريخ نشأة مدينة روما وبين ظهور استخدام الكتابة اللاتينية أى لمدة تصل إلى حوالى قرنين ونصف من الزمان .

ولما كانت " تواريخ " بوليبيوس [١٣] قد كتبت فقط فى القرن الثانى قبل الميلاد وهو بحق أقدم وأعظم وأدق من كتب تاريخ روما منذ نشأتها وحتى تدمير قرطاجة فى عام ١٤٦ ق . م : وكان حاضرا هذه الواقعة الهامة بالنسبة لتاريخ الرومان وحضارتهم فإننا لا يمكن أن نعتمد اعتمادا كليا على الأدباء الرومان قبل بوليبيوس وذلك لأن الدليل الأدبى لا يعتمد به كمادة تاريخية .

دراسة فى تاريخ بوليبيوس :

تكونت تواريخ بوليبيوس من أربعين كتاباً ، أى جزءا وكان هدف هذا الكاتب اليونانى الذى عاش فترة رجولته فى روما وعاصر اخطر أحداث تطور تاريخها ، هو كتابة تاريخ روما فى الفترة الواقعة بين عام ٢٢٠ - وعام ١٦٨

(١٣) مواطن يوناني من ميغالوبوليس في أركاديا البلوبونيز ، جنوب اليونان، نشأ في أسرة تمارس السياسة ، إذ كان هو يمثل منصبا هاما في الحلف الآخي .. كان واقعيا في كتابته وكان صديقا حميما للقائد الروماني سكيبو scipio وأتاحت له هذه الصداقة زيارة العديد من الولايات الرومانية ومن هنا كان يؤكد دائما على الاحداث المعاصرة (٢٠٠ - ١١٨ ق . م) .

ق . م ، أى من حروب الرومان مع هانيبال Hannibal أعظم قادة قرطاجة وحتى معركة بذنا Pydna والتى على أثرها أصبحت روما سيدة العالم القديم كله .

كانت فصول هذه التواريخ كما وصلتنا كالتالى

الفصول ١ -٢ : تناولت تقديم (prologos) للحروب البونية الأولى ٢٤٦ - ٢٢٠ ق . م ، ويبدو أن الفصول ١ - ٦ ، قد تم نشرها على القراء حولى عام ١٥٠ ق .م بينما لا نعرف متى تم نشر الفصول الأخرى من هذه التواريخ .

الفصول ٣٠ - ٣٩ : تناولت تطورات الأحداث عقب هزيمة قرطاجة عام ١٤٦ ق .م وسيادة روما من خلال وجهة النظر الرومانية .

الفصل ٣٤ : كان موضوعه الجغرافيا .

الفصل ٤٠ : تناول عرضا تاريخيا .

وجدير بالذكر أن للتاريخ ، هند پوليپيوس وظيفتين اثنتين أولهما : تدريب رجال الدولة ، وثانيهما : تعليم القارىء العادى كيف يواجه المصائب ، فقد كان هدفه الرئيسى من كتابة التاريخ هو هدف تعليمى من خلال عرض الوقائع المعاصرة والأحداث كما وقعت ، أى التاريخ الحقيقى : ومعها تحليل عن أسباب وعلة حدوثها .

لقد أرجع پولبيوس النجاح الرومانى إلى عوامل هامة تكمن فى :

١ - الدستور الرومانى .　　　٢ - الجيش الرومانى .

٣ - التوسع القديم لروما ونموها .

لقد كان بوليبيوس أحد معاصرى الأحداث المصيرية فى تاريخ روما القديمة لأنه شاهد وعاش نتائج الحرب البونية Second Punicwar والتغيرات التى تمخضت عنها هذه السلسلة من الحروب بين روما وقرطاجة ، أقوى القوى العالمية فى تلك الفترة التاريخية القرن الثالث ق . م والتى وقفت أمام توسع روما . أنه مع مطلع القرن الثانى ق . م وبالتحديد فى عام ٢٠٢ ق . م استطاع القائد الرومانى الكبير Scipio Africanus أن يهزم هانيبال فى موقعة زاما Zama ويؤكد سيادة روما دون أدنى شك ، فى حوض البحر المتوسط لقد عاش پوليپيوس أعظم لحظة لروما ، وهى نصرها النهائى على قرطاجة عام ١٤٦ ق . م .

وجدير بالذكر أن رحلاته العديدة مع القائد الرومانى الشهير سكيپيو أفريكانوسى ، السالف الذكر قد أمدته بمادة تاريخية كبيرة للكتابة " تواريخه " كما كان قربه من مجلس ذلك القائد الرومانى الكبير كأحد الشخصيات الأساسية لأثراء سكيپيو بالثقافة اليونانية ، أثره فى معرفة المزيد من مسائل السياسة الرومانية العليا .

أما من ناحية سنوات عمره فليس هناك ما يدعونا لأظهاره فى الروايات التى وصلتنا وتحكى أنه عاش ٨٢ عاما وعندما مات كان على أثر وقوعه من فوق صهوة جواده أثناء رحلة صيد .

ومما يذكر لهذا المؤرخ وضوح هدفه وأسلوبه فى الكتابة التاريخية ليس بفضل الدارسين له بل الفضل يرجع له هو لأنه هو الذى حدد كل شىء .

أنه هو الذى كتب يقول(١٣) :

---

(13) I bid ., I.I.

" إن هدفى وموضوعى الوحيد عندئذ لكل ما كتبت هو أن أوضح كيف ومتى ولماذا وقعت كل أجزاء العالم القديم والمعروف أنذاك تحت سيطرة روما " .

ويبدو أن هذا الموضوع وهو سيادة روما على العالم القديم فى فترة زمنية وجيزة كان قد ملك عليه عقله ، مما جعله يردد نفس الفكرة فى كتابه الأول كذلك ، حيث يقول[١٤] :

" هل يستطيع أى شخص ألا يهتم أو يتكاسل عن معرفة بأى الوسائل وتحت أى نظام دستورى سيطرت روما - تلك المدينة بمفردها - على معظم العالم القديم فى مدة لا تتجاوز ٥٣ عاما ؟ " .

---

(14) Histories, 3.I.

الفصل الثاني

مقومات الحضارة الرومانية

إنه لكى تتكون حضارة ما ، تفرض نفسها على مجريات الأمور فى منطقتها بل وتبسط سلطانها على أمم أخرى مجاورة وينجح أهلها فى إقامة أمبراطورية لهم خارج حدودها الجغرافية ، عبر البحار ، لابد وأن تكون قد هيأتها الظروف ، من كل جانب ، بمقومات كانت دعامتها الأساسية لازدهار ذلك المكان ، فى ذلك التوقيت من الزمان ، وعلى أيدى أولئك الأفراد ومن بنى ذلك الجنس البشرى ، الذى كان يسكن تلك البقعة من الأرض .

وأنه ، لمن البديهى ، أن تكون لحضارة الرومان مقومات أو دعامات أساسية ، كانت السر وراء ذلك التفوق الحضارى ، فى فترة من الزمان الغابر ، تلك الفترة التى عادة ما يسميها المؤرخون بالتاريخ الورمانى أو بالأخرى تاريخ الرومان[1] أو تاريخ روما القديمة . .

---

(١) آثرت ترجمة "Historia Romana" باللغة العربية .. بصفة المضاف إليه أي : تاريخ الرومان كما لو كانت "Historia Romanorum" بدلا من الترجمة الحرفية : التاريخ الروماني وذلك حتى لا يخلط البعض من القراء العاديين بين الرومانيين الحاليين ، أهل دولة رومانيا وبين الرومان القدماء ، أصحاب التاريخ المعروف لدارسي التاريخ القديم ، ولقد أصاب الأستاذ الفاضل الكبير د. ابراهيم نصحي ، عندما اختار لكتابه (المكون من جزئين) عنوان تاريخ الرومان وليس التاريخ الروماني وإن لم يكن قد علل ذلك في تقديمه لكتابه الممتاز عن حضارة إيطاليا القديمة وروما المجيدة .. الكتاب منشورات الجامعة الليبية – كلية الاداب ، الجزء الأول ١٩٧١ ، والثاني عن دار النجاح ببيروت .

جغرافية إيطاليا[٢] القديمة :

تتكون من قسمين ، أو أقليمين كبيرين رئيسيين يختلفان أختلافا بيناً فيما بينهما . فالأقليم الأول يشمل الجزء الشمالى من إيطاليا ، حيث تمتد سلسلة جبال الألب والتى يخترقها نهر الراين والرون[٣] أما الأقليم الثانى فيشمل الجزء الجنوبى من شبة الجزيرة الإيطالية ، ويتميز هذا الأقليم عن سابقة ، بوجود الشواطىء الطويلة ولكن توجد به أيضا عدة براكين فى أقليم إتروريا (Etruria) ولاتيوم (Latium) وكمپانيا (Campania) " أنظر خريطة أقاليم إيطاليا "

وجدير بالذكر أن تربة هذه الأقاليم الثلاثة الأخيرة هى أجود أنواع الترب والأراضى الإيطالية ، التى ساهمت البراكين فى تكوين طبقات تربتها وجعلتها صالحة لزراعة الكروم ، وكانت أرض كبانيا - بصفة خاصة - من أجود أراضى الإيطالية القديمة . كما أنه نظرا لطبيعة السواحل الإيطالية ، القليلة التعاريج بوجة عام ، والتى تندرفيها الموانى ، الطبيعية على عكس اليونان التى تنتشر فيها الخلجان والموانىء - والتى كانت تعانى من ظاهرة الترسيب السريع لأنهار الأقليم الثانى فى وسط إيطاليا كما حدث بالفعل لميناء أوستيا (Ostia) عند مصب نهر التيبر ، التي كانت ميناء مباشرا لروما

---

(٢) جاء أسم Italia القديم ، اللاتيني (Italia, ae, f.n.) من كلمة أقدم هي Vitellic ومعناها الأرض العجول ، كان يونانيو جنوب إيطاليا القديمة وصقلية (Magna Graccia) يطلقونه على الطرف الجنوبي من شبة الجزيرة الإيطالية ، كناية عن ثراء مراعيه وغنى أرضه ومع مرور الوقت اتسع استخدام هذا الاسم وأصبح يعني كل إيطاليا منذ نهاية القرن الأول ق . م (راجع د . نصحي : تاريخ الرومان . جـ١ ، ص ١٢) .

(٣) راجع د . نصحي ، المرجع السابق ، ص ص ١٢ - ١٣ .

القديمة وسرعان ما تراكمت كميات الترسيب ، مما جعل الامبراطور كلاوديوس (فى منتصف القرن الأول الميلادى) على نقل هذا الميناء إلى مكان آخر . كما كان مدعاة لروما أن تضع نصب أعينها الأستيلاء على أماكن أخرى بها موانى تخدم سياستها ومصالحها التجارية مع العالم الخارجى الذى تتدخل فى شؤنه الداخلية كلما ازدادت هي قوة وسنحت الفرصة بذلك .

روما وتاريخها :

إن تاريخ إيطاليا القديم ، هو تاريخ روما (Roma) نفسها وتاريخ الرومان الذين وطدوا حكمهم فى أقليم لاتيوم وراحوا يتطلعونه إلى ما حولهم من أقاليم أخرى ، ولهذا كان لزاما علينا أن نتتبع تاريخ مدينة روما ذاتها بشيء من التفصيل أو بتركيز فى ضوء مجموعة من الحقائق نلمسها كما يلى :

أ - أنه بينما كانت طبيعة تكوين إيطاليا التضاريسى لا يسمح بوحدة سياسية لانتشار سلاسل الجبال الشمالية من ناحية ، وجبال الابينين (Appenninus) . فى وسطها من ناحية أخرى[أ٣] مما عرقل عملية الأتصال والأختلاط بين سكان تلك المناطق فإن موقع روما نفسها ، فى وسط إيطاليا وإشرافها على نهر التيبر (Tiberis) مكنها من العمل بحرية فى كل الأتجاهات وحقق أهدافها التوسعية بفضل اصرارها وطموحاتها الكبيرة وتنفيذها لسياسات ناجحة فى علاقاتها مع خصومها ، حتى دانت لها كل شبة الجزيرة الإيطالية . ويقول د . نصحى فى هذا الخصوص .

(أ٣) : سماها المؤرخ الروماني ليفيوس (Livius, XXX V1, 15) بأنها العمود الفقري لإيطاليا فعلا: Appennino dorso Italia dividitur .

" وإذا كان موقع روما فى وسط شبة الجزيرة عاملا بالغ الأهمية فى بسط سيادتها عليها فإن كثرة عدد سكان شبة الجزيرة وموقعها فى وسط البحر المتوسط لم يكونا أقل أهمية في بسط سيادة روما على عالم هذا البحر . ذلك أن روما نجحت فى السيطرة على شبة الجزيرة حتى أتاح لها موقعها ووفرة المقاتلين الذين كانوا تحت أمرتها أن تعالج أمر خصومها واحدا بعد الآخر فى الأوقات المناسبة لها ، وأن تبنى امبرطوريتها المترامية الأطراف[٤] .

أنه بالإضافة إلي وجود أجناس أخرى كثيرة كانت تسكن المناطق العديدة فى إيطاليا القديمة أهمها (Umbri Sabelli) .

ب – وكان اللاتين[٥] (Latini) هم الذين يسكنون أقليملاتيوم حتى أواخر القرن السابع ق . م ، حيث يعيشون حياة بدائية زراعية روعوية ولم يكن لهم إتصال خارجى يذكر .

جـ – وعندما وصل الإتروسكيون[٦] (Etrusci) وهم سكان ... شمال غرب روما القديمة – حوالى أواخر القرن السابع ق . م ، إلى إقليم لاتيوم ، شهدت هذه المنطقة عصرا جديدا ، بدليل دخول عناصر حضارية جديدة إلى هذا

---

(٤) المرجع السابق ص ٢١ .

(٥) : اللاتين ، هم خليط من عناصر بشرية قديمة جدا ، امتزج بعضها ببعض علي مر القرون في ذلك الاقليم ، وذلك منذ العصر الحجري الحديث حتي عصر الحديد ، أوائل الألف الأولي ق . م .

(٦) عادة ما نجدهم ، وإجعنا العربية باسم "الاترووريونوهذا مالا يتفق مع التسميات اللاتينية لمختلفة لهم فهم يطلقون عليهم أسم " التوسكون "Tusci" أو (Tyrsénoi) كما سماهم اليونانيون القدماء ومازال الإقليم الذي كانوا يسكنونه ، يسمى النوم توسكانيا ، أصل التروسكيون مشكلة معقدة تثير الجدل بين المؤرخين الذين انقسموا شيعاً أمام أحتمالات أصلهم الشرقي بين ليديا بآسيا الصغري ، أو الأصل الإيطالي كما يقول البعض وفي الإقليم أنهم مزيج من عناصر حضارية إيطالية وعناصر أخري غير إيطاليا بدليل لغتهم التي وصلته نقوش يصل عددها إلى عدة آلاف ، هي لغة لم يتم فهمها بعد .
راجع ، (orpus Inscriptionuam Etruscarum, Leipzig, I (1893-1902). II. fasc., I-III
1907- 1936 & M. eallottino, the Erruscans, pelican 1955 pp. 12 ff. 222 .

الإقليم منها المقابر المنحوتة فى الصخر ، وكذلك وجود السدود والقنوات المائية للصرف ، بالأضافة إلى أزدهار الصناعة (صناعة المعادن) وأقتباس اللاتيوم منهم للحروف الأبجدية ، فضلا عن تحول قوى كثيرة فى إقليم لاتيوم إلى مدن حصينة تحت لها أسوار من الطين ، ومنها معابد اتروسكتيه ، كما كان لهذا العنصر لغتة ونقوشه ، التى لن تفك رموزها بعد ، وهم شعوب - كما يصفهم د . عبد اللطيف أحمد على[٧] . - يكتنفهم الغموض ، لهم حظ وافر فى الحرب والتجارة وأخضع السكان الأصليين القاطنين حوله دون أن يحاول أبادتهم .

د - لقد كان من الطبيعى أن تفوز عناصر السمان الأصلية ، أهل البلاد الأصليين من أمبريين (Umbri) وسابليين ولاتين (Sabelli) ، وهم يكونون ما يمكن تسميته بالسكان الإيطاليين (Italici) ، تمييزا عن أولئك الغرباء المهاجرين إلى شبة الجزيرة الإيطالية أمثال الأغريق (Graeci) ، أو الأتروسكيون (Etrusci) وأن تظفر بالسيادة على أراضى وطنها كاملة وكانت تلك السيادة ثمرة مجود كل هذه الجالايات مجتمعة .

هنا نجدر الأشارة إلى دور روما الطليعى والقيادى فى تحقيق هذا الأنتصار الشامل على بقية شعوب إيطاليا القديمة ، وذلك بمساعدة المدن الإيطالية الأخرى ولكن تحت زعامة روما ، كل الظروف ولهذا يمكننا تجاوزا أن نسميهم جميعا - وليس أبناء روما وحدهم بأسم الرومان (Romani) .

وإذا ما افتقينا أثر التطور الحضارى لروما وزعامتها للشعوب الإيطالية كلها استطعنا أن نتعرف على تلك المراحل الحضارية :

كان لموقع روما - كما قلنا سابقا أهمية كبرى فى قيامها بدور ، الزعامة فهى تقع على جزيرة فى نهر (Tiberis) التيبر ، الذى تحده من ضفته اليسرى - الشرقية - بالقرب من مصبه ، ثلاثة تلال ، ثم إلى الشرق من هذه

---

(٧) روما - الجزء الأول - تاريخ الجمهورية والإمبراطورية الرومانية ، القاهرة سنة ١٩٦٠ ، ص ١٨ .

توجد أربعة تلال أخرى تتاخم مجرى النهر ، ولهذا ولهذا سميت روما " بالمدينة ذات التلال السبعة "[٨] .

هناك شبه أتفاق على أن روما أنشأت عام ٧٥٣ ق . م[٩] لتكون فى الغالب قلعة محصنة للدفاع عن اللاتين ضد عدوان الأتروسكيين الذين يعيشون شمال نهر التيبير وربما لم تكن هذه المدينة (Roma) إلا نقطة حراسة أمامية فى ذلك التاريخ القديم من نشأة روما ، والتى حكيت حولها الأساطير الكثيرة[١٠] .

---

(٨) التلال السبعة Aventinus, palatinus, Capitolinus, Quirinalis, Viminalis, Esquilinus, كما ذكر الأدباء والمؤرخين الرومان تواريخ أخرى منها على سيبيل المثال أن الشاعر Ennius حدد عام ٩٠٠ ق . م ، كتاريخ لروما ، بينما المؤرخ Fabius ذكر عام ٧٤٨ ق . م ، والمؤرخ Alimernius حدد سنة ٧٢٨ ق . م ، وأكد كاتور (Cato) وبوليبوس تاريخ فابيوس ، بينما ذكر M. T. Varro سنة ٧٥٣ ق . م ، وتبعه شيششرون Cicero (De Oratore II. 12, 52) وحدد نفس التاريخ بانه في ١٧ ابريل عام ٧٥٣ ق . م (١٢) .

من تأسيس المدينة (ab urbe condita) أنظر نصحي ، المرجع السابق ص ص ٧٩ – ٨٠ .

(٩) أثبتت الكشوف الأثرية أن أقدم التلال التي تحيط هي مثل Palatirus Palatinus ومثل Esquilice كما كانت الأحداث والوقائع تؤرخ بدءً من هذه السنة ، كما كان اليونانيون القدماء يفضلون بالنسبة لتاريخ أول اولمبياد ٧٧٦ ق . م ، فكان الروماني يقول حدث كذا بعد كذا سنة .

(١٠) يذكر د. ابراهيم نصحي : تاريخ الرومان ، الجزء الأول ، منشورات الجامعة الليبية – كلية الآداب ، ١٩٧١ ص ص ٧٦ – ٧٩ ، أسباباً أخرى عن نشأة روما كبناء الملاك مارس Mars الاله الخامس لروما ولكن أشهر هذه الأساطير تقول بان إينياس (Aeneas) أحد أبطال حرب طروادة بين الأغريق وأهل المدينة حوالي بدايات القرن الثاني عشر ق . م ، فر هاربا بعد سقوط مدينته وجال في البحار ثم استقر به المقام على الساحل الإفريقي الشمالي – عند نفس المكان الذي قامت عليه مستعمرة قرطاجة الفينقية فيما بعد – وهناك قابل الملكة ديدو (Dido) التي أحبته حبا لا حدود له – وصفة فرجيل (Virgil) الشاعر اللاتيني في ملحمته الإنيادة – ولكنه هجرها فما كان منها إلا أن انتحرت وواصل هو رحلته إلى ساحل إيطاليا ونزل في سهل لاتيوم وأخضع القبائل الموجودة به وأسس مدينة Lavinium ثم أسس مدينة فينقية Alba longa وبعد مدة ومضي عدة قرون أنشأ أحد أحفاده ويدعي Romulus مدينة روما قبل القرن الرابع ق . م .

وفى ضوء الدليل الأثرى الذى كشف النقاب عن أقدم أماكن للسكنى فى هذه المنطقة بذاتها ، تستطيع القول أن أقدم الجماعات البشرية التى عاشت في إقليم روما (Roma) القديمة ، كانت فوق تل بالاتينوس ، حوالى عام ٨٠٠ ق . م .

وفى القرن السابع ق . م ، لابد أن سكان إقليم لاتيوم توحدوا أمام الخوف من عدوان الإتروسكيين ، وبالتالى " لقد كانت للأتروسكيين يد فى أنشاء روما الباكرة . وذلك فى ضوء الدليل الأثرى من تحصين تل الكابيتول وأنشاء سور حول أحياء المدينة روما وهى " أعمال ضخمة لابد من أن تقضيها أمور ملحة مثل ضرورة آتخاذ العدة لرد خطر داهم كخطر عدوان اتروسكى[١١] .

(١١) د . نصحي ، المرجع نفسه ، ص ٨٣ .

الفصل الثالث

أسباب عظمة روما الرومانى

إن التاريخ الرومانى القديم ، بحق ، تاريخ حافل بالمواقف الكثيرة التى تؤكد دائما سياسة المسئولين عن روما ومصيرها ، كما تكشف عن تفكير عملى واضح لهؤلاء وحكمة قادتهم وصلابة مواقفهم ، واستعدادهم المستمر للتضحية فى سبيل مصلحة الجماعة ، وهو السلوك المعروف لديهم بأسم (devotio) .

وإذا ما سأل سائل ، وما هو السر وراء كل هذا النجاح المنقطع النظير لمدينة صغيرة ، مثل روما (Roma) حتى تصير أقوى المدن الإيطالية القديمة وتفرض سلطاتها على من جاورها من مدن ، فى إقليم لاتيوم (Latium) وتتحدث بأسم كل مدن العصبة اللاتينية أو البلديات (Municipia) فى شمال وجنوب إيطاليا حيث الوجود اليونانى منذ القدم فى أقوى وأغنى مدينة تارنتوم (Tarentum) ؟.

ذلك الصراع الطويل الذى خاضته روما من أجل البقاء ، هو الذى علم ساستها وكبار شيوخها الذين يديرون دفة الحكم فيها ، أصول الدبلوماسية الحقة ، فاتبعت سياسات مرحلية ، واقعية إلى أقصى درجات الواقعية والصلابة ، والقوة فى إتخاذ القرارات ، تصل إلى حد التخلى عن كل معانى الشهامة .

إن سر عظمة روما ونجاحاتها المستمرة ، هو فى الشخصية الرومانية ذاتها .. هو فى السلوك الشخصى للأفراد ، وبصفة خاصة لساسة روما وقادتها طوال تاريخها الطويل ، الذى بلور تلك الشخصية وأثبت مواقف صراعها الدائم لأثبات وجودها أنها كانت على حق ، وأنها تستحق ما وصلت

إليه من مجد فى فترة زمنية قصيرة ، إذا ما قيمت تلك الفترة (هى من ٢٢٠ - ١٦٨ ق . م) بتواريخ حضارات أخرى ، فإنها تعتبر بحق - كما يعتقد بوليبيوس (Polybius) المؤرخ اليوناني - أمر لا نظير له ، فغدت فى فترة لم تتجاوز الخمسين عاما أقوى مدينة أنذاك ، وحصلت على السيادة العالمية فى حوض البحر المتوسط عقب انتصارها النهائى على قرطاجة فى عام ١٤٦ ق . م فما هّى إذن ، خصائص الشخصية الرومانية ؟

يمكننا إيجاز أهم خصائص ومقومات الشخصية الرومانية فيما يلى :

(١) الجانب العلمى :

يقول كاتو الأكبر[1] "أن الروماني المثالى هو الرجل المقدام الفعال : vir fortis et Strenus. ويقول مؤرخ رومانى كبير - فى فترة لاحقة - أن جميع المشروعات والأعمال لابد أن تحقق غايات مفيدة فى الحياة : "adutilitatem vitae " أى أنّ أى عمل يقدم عليه الرومانى ، يجب أن يكون موجهاً إلى تحقيق هدف محدد يستفيد منه ويجعل حياته أكثر سهولة وراحة له ، وتخفيفا من أعباء الحياة على جماعته ومدينته . وهذا دليل كافى على نظرة الرومانى العملية ، والواقعية التى تحدد هنا المصلحة والمنفعة ، وقد أوصلت هذه الروح العملية للرومانى إلى ميدان القتال والقانون والحكم ، فخلفت منهم قادة مطيعين ، واضحى الهدف (إذ كان الجيش الرومانى يدخل المعارك لامن أجل الغنائم بل لتحقيق أهداف عملية واضحة) ورجال قانون غاية فى الدقة والضبط ، ينفذون قوانين هدفها الأول تحقيق المنفعة للصالح العام ، والضرب

---

(١) شخصية رومانية تسونجية ، صلبة وصارمة رنزيهة (٢٣٤ - ١٤٩ ق . م) كان لها دور كبير في سياسة روما في تلك الفترة . خدم بلده في ميادين عديدة في السياسة والجيش والمجتمع .

بقوة على كل خارج عن تلك القوانين ، كما جعلت منهم رجال حكم وإدارة غاية فى الشدة والأصرار على بلوغ الهدف .

(٢) : القوة والصلابة :

يقول أشعر شعراء الرومان فرجيل (Virgilius) وكان شاعرا للقصر الامبراطورى فى عهد أوغسطس أننا شعب شديد المراس ، تحمل أطفالنا إلى الأنهار ونعودهم قوة الأحتمال فى المياة الثلجية القارصة وهم فى الصبا يقضون الليالى ساهرين على الصيد ويقطعون (أخشاب) الغابات ، رياضتهم هى كبح جماح الجياد ، وقذف النبال بالقوس ، فإذا بلغوا سن الشباب ، يزداد جلدهم على المشاق وأحتمالهم للضنك فيسخرون الأرض بمعاولهم أو يهزون المدائن فى الحرب[٢] .

ويقول نفس الشاعر مقارناً مواطنيه بالشعب اليوناني الذي يمتاز بالخيال الخصب ، والإحساس الطيب بالجمال ، والسعي وراء الكمال « ،،،،،، ولكن أنت أيها الروماني ، ضع نصب عينيك أن تسود الشعوب بسلطانك ، فتلك هي رسالتك : أن تفرض سنة السلام وتصفح عن المقهورين ، وتقهر المتجبرين[٣] » .

---

(٢) فرجيل ، الانيادة ، الكتاب ٩ ، سطور ٦٠٣ - ٦٠٨ ، الترجمة العربية هي عن د . عبد اللطيف أحمد علي : روما ، الجزء الأول مكتبة النهضة المصرية ، ص ص ٧ - ٨ النص اللاتيني هو :
"dutum a stirpe genus natos ad flumina primum" deferimus saevoque gelu drramus et undis; venatu invigilent pueri silvasque fatigent, flectere ludus equas et spicula tender cornu; at patiens operum parvoque adsueta iuventus aut rastris teriam domat aut quatit oppida bello" .

(٣) الانيادة ، الكتاب السادس ، سطور ٨٥١ - ٨٥٣ :
"Tu regere imperio populos, Romane, memento (Chaec tibi erunt artes) pacisque imponere morem, parcere subiectos et debellare superbos".

كذلك نجد كاتو الاكبر (Cato maior) قبل فرجيل بحوالي مائة عام أو أكثر ، ينصح ابنه - في الكتاب الذي وضعه حول نشأة روما (Origines) - فيقول : « إن الملمات تروضنا وتعلمنا السلوك الرشيد ، بينما تضللنا الإنتصارات عن سبيل الرشاد » . وهو بهذا يؤكد على خاصية واضحة في طبيعة الشعب الروماني - وبصفة خاصة أهل روما وقادتها وساستها - وهى ذلك الإصرار ، والصلابة في المواقف ، مهما يمكن أن يحدث من نكسات وهزائم في معارك ، ولكن دونما إستسلام للواقع ، فكانوا يخرجون بدروس مستفادة من كل نكبة ، ويعودون أكثر قوة ، وأشد أصراراً على تحقيق النصر المبين .

والآن ننتقل لنرى سوياً ، تلك المبادئ والقيم التي كان الرجل الروماني يتربى عليها في أسرته ، وهى نواة أي مجتمع من المجتمعات ووراء نجاح أو إنهيار أية جماعة بشرية ، وحيث يتعرف المواطن منذ نعومة أظافره ، على سلوكيات معينة ، كان عليه أن يقلدها ويحافظ عليها ، وهى السر الحقيقي وراء عظمة روما ، كمجتمع فرض نفسه على كل من حوله ، بل لم يكتف بذلك فخرج إلى بلدان حوض البحر المتوسط وفرض سيطرته عليها الواحدة تلو الأخرى ، منتهزاً الفرص السياسية المواتية لبسط سلطانه ونفوذه بإسم الشعب الروماني كله ، وتحت قيادة رجالات روما بصفة خاصة . إنها هى روما ذاتها وأهلها ، الذين هم وراء كل نجاح حقيقي سواء في داخل ايطاليا القديمة أو خارجها وراء البحار ، عندما كانت متمسكة بمبادئ نشأتها ونهضتها الأولى ، وهى هى نفسها التي إنهارت خلقياً ، فإنهزمت سياسياً وتدمرت عسكرياً وتقلصت ممتلكاتها الخارجية ، عندما تناست أسرار نجاحها الأولى .

فكيف كانت اذن حياة الأسرة في روما القديمة ؟

للإجابة على هذا السؤال يجب أن نتعرف على مفهوم الأسرة والأفراد الذيك يكونونها ، ودور كل فرد في تلك الجماعة الصغيرة ، وأكثرها تأثيراً على المجتمع بأسره .

الفصل الرابع

الأسرة (Familia)

كانت تتكون من :

١ - الأب (Pater) وهو أكبر الأعضاء سناً ، وله سلطة مطلقة في تصريف شئون الأسرة ، فهو بالنسبة للأسرة (Pater Familia) ، أي رب الأسرة ، المسئول الأول عنها وعن كل أفرادها ، ولهذا كان يزاول سلطة الأب على زوجته وأولاده ، وهذا ما تعرفه بإصطلاح (Patria Potestas) أما على العبيد فكان يزاول سلطة السيد (dominica potestas) أما على الأتباع أو الموالي سلطة الحماية أو الولاية (patronatus) .

أما سلطة الأب على الزوجة فتعني (Manus) وعندما كان الأمر يتعلق بإتخاذ قرارات نهائية بخصوص عضو من أفراد الأسرة ، كان العرف الروماني ، يقف حائلاً دون سلطة الأب المطلقة ، فيرضخ إلى رأي مجلس الأهل والأقارب[1] فكانت سنة السلف (mos maiorum) ، بمثابة القانون الواجب النفاذ ، بدافع الإلتزام العوني ، وإحتراماً للتقاليد الجماعية .

٢ - الأم (Mater) أو الزوجة :

كان دورها قاصراً على أعمال المنزل ، كالطهي وغزل الملابس الصوفية . فلم تكن - مثل المرأة المصرية الفرعونية - تساعد زوجها في الأعمال الزراعية والفلاحة في الأرض ولهذا فإن اللغة اللاتينية لم تعرف مفرداتها لفظة (فلاحة) ، بل فلاح فقط (agricola) .

---

(١) ما أقرب هذا التصرف بما كان يحدث عندنا في الأرياف عند وقوع مشاكل عائلية ، فيشارك في حلها مجلس العائلة كله وتعتبر قراراته واجبة النفاذ .

كان للزوجة الرومانية تأثير غير مباشر على مجرى الأمور في حياة الأسرة ، وكان لها حرية التصرف داخل المنزل ، فهى صاحبة الكلمة العليا داخل جدرانه . كما كان لكل فرد في الأسرة عمل معين ، يجب عليه أداؤه . فضلاً عن الواجبات الدينية تجاه آلهة الجماعة ، تلك الآلهة التي توفر لها الأمان والحماية وتحل بفضلها البركة والرخاء للأسرة جميعها .

٣ - الأبناء (liberi) :

وهم أبناء الأسرة كلها سواء أكانت الأسرة صغيرة ، أم كبيرة يعيش في كنفها أبناء متزوجين للجد الأكبر ، الذي يملك كل السلطات . وكان عملهم يتمثل في مساعدة الأب في إنجاز الأعمال خارج المنزل ومساعدة الأم داخله ، فكانت البنات دائماً داخل المنزل لا يخرجن منه أبداً ، حتى ولو للزيارة أو للاستضافة ، بدليل أن اللغة اللاتينية لا يعرف قاموسها كلمة مؤنثة لكلمة ضيف (Conviva) ، التي تستخدم للنوعين .

٤ - العبيد (Servi) :

وهم ، أصلاً ، إما أسرى حرب ، وأبناء أسرى ، أو أشخاص ، أصبحوا عبيداً لأنهم لم يستطيعوا الوفاء بديونهم ، فيظلوا هكذا إلى أن يستطيعوا تأدية ما عليهم ، أو أن يدفعها عنهم أحد ويعتقهم هذا ما يذكرنا بعصور الجاهلية ، فيما قبل الإسلام عندنا ، كما يدل دلالة واضحة على القسوة في المعاملة مع غير القادرين - بادياً - من أبناء الطبقات الإجتماعية الفقيرة . وكان الأب ، كبير الأسرة التي يعملون في ظلها ، يمارس عليهم سلطة السيد (وهى المعروضة في اللاتينية (dominica potestas) .

٥ - الأتباع أو الموالي (Clientes) :

هم أناس أحرار وليسوا عبيداً ، ولكنهم يصاحبون أسيادهم دائماً ، ويقومون على خدمتهم ، ويكونون دائماً رهن إشارتهم في كل شئ ، وذلك لبقاء ما يجود به هؤلاء الأسياد (domini) عليهم من نعم وهبات ، ولهذا فإنهم بذلك كانوا يربطون مصيرهم بحياة سيدهم ومصيره ، كما كانوا يتواجدون بإستمرار حيث يوجد سيدهم ، فيترددون على بيت الأسرة ويلبون طلباتها ، املين في حمايتها لهم وإعالتها إياهم ، وكانت سلطة رب الأسرة عليهم سلطة الحامي أو الوالي (Patronatus) ، أنه نفس ذات النظام الإجتماعي الذي سمعنا عن جزئية منه في صدر الإسلام وهو المعروف بالموالي ، فكان فلان ، ولي فلان .

وإذا ما تطرقنا إلى حياة الأسرة الدينية ، وممارستها الإيمانية داخل حدود البيت ، نجد أن الأسرة الرومانية القديمة كانت تؤمن بمجموعة من الآلهة ، التي يعتقون في مساعدتها وتأثيرها عليهم ، فبفضلها يؤمنون وبرعايتها تفلح أعمالهم ، ويضمنون سلامتهم ، وتتحقق رفاهيتهم ويزيد خيرهم . ومن هذه الأمثلة .

١ - ڤستا (Vesta) :

ربة النار والموقد ، حيث كان الموقد من ضروريات المنزل الريفي (Villa) بسبب برودة الشتاء القارس كما تفرضه الطبيعة في بلادهم .

٢ - لارس (Lares) :

وهى أرواح الأرض الزراعية - أو كما يظن البعض ، فهى أرواح الأسلاف الراحلين - التي تظل حية تطوف بأماكن إقامتها فوق الأرض

وقبل مماتها ، لتبارك الأحفاد ، كان طبيعياً أن يعتقد الروماني القديم في الهة تخص الأرض التي يزرعها ويعيش على ريعها طول العام ، وكان لابد أن يتقرب لها ويشكرها على خيرها العميم الفياض كل موسم وعند الحصاد .

٣ - يناتيس (Penates) :

وهى أرواح غرفة التموين والتخزين التي لا يخلو منها أي بيت ، حيث كانت تتجمع كل ضروريات الحياة الريفية البسيطة ، من ألبان وجبن ولحوم مجمدة محفوظة ، وكل أنواع المحاصيل التي تجود بها أرض الأسرة وكانت الأرواح حامية هذا المكان .

٤ - جنيوس (Genius) :

وهى الروح الحارسة ، وبصفة خاصة ، لرب الأسرة . هنا يبرز دور الأب ، كبير الأسرة ومدى خوف أهله عليه ، وحرصهم على أن تتولى حمايته مباركته روح مسئولة عنه وحده ، وذلك بسبب خطورة دوره وأهميته بالنسبة لأفراد الأسرة ، الذين يعتمدون عليه في كل شئ ، ويتوقف عليه هو ، مصير الأسرة بكاملها ، بما في ذلك العبيد والموالي . لقد كانت الأسرة الرومانية كما تستطيع أن تفهم أسرة أبوية ، أي ينفرد الأب فيها بالسلطة على جميع أفرادها ، وإليه هو ينتسبون ، ولهذا كان إعتقاد أفراد الشعب الروماني القديم ، بأن هناك روحاً مسئولة عن توفيق الأب ونجاحه في كل خطواته من أجل سعادة وخير الأسرة كلها وكانت تلك الروح تباركه في صحته وعمله اليومي .

هنا تجدر الإشارة إلى أن هذه الأرواح ، لم تبلغ - لدى العقلية

الرومانية البدائية - مبلغ الآلهة ولم ترق إلى مصافها ، ولكنها كانت ذات تأثير بالغ في حياة الجماعة ، والأسرة الرومانية في مراحل تطورها الأولى ونهضة المجتمع الزراعي المحدود ونموه البدائي .

أن أهم ما يمكن أن يسجل لتلك الصور البدائية لحياة الجماعات والأسر ، كبيرها وصغيرها ، هو ذلك الإحترام غير المحدود ، الذي يصل إلى درجة التقديس ، والإلتزام بالواجب ، دونما مناقشة أو معارضة لسنة السلف (mos maiorum) تلك التي كانت بمثابة القانون ، في الوقت الذي لم يكن للقانون الوضعي أي وجود .. وكان العرف والعادة أي كما تعارف الناس تعودوا على مر العصور ، هى القانون الذي لا ردة عنه .

- صورة للحياة اليومية لأسرة ريفية :

كانت الحياة الريفية ، كما هو معروف ، ونحن هنا في مصر لسنا بغرباء عن تلك الحياة كثيرة المطالب العملية ، خارج المنزل ، أي في الحقل أو المزرعة وكان لابد من توزيع الإختصاصات على كل أفراد (الأفراد) القادرين على العمل ليقوم الأب (Pater familias) ويصحبه أبناؤه وعبيده ومواليه إلى الحقل حيث يتولى كل فرد نوعا من متطلبات حياة الفلاح والنشاط الزراعي ، ثم يعودون قبل الغروب إلى منزلهم ، حيث يجدون سيدة البيت قد أعدت لهم الطعام فيجلسون جميعاً ، في مكان واحد ، يتقدمهم رب الأسرة ، الذي يبدأ في تلاوة صلاة شكر للآلهة ، وكانت تلك الصلاة بسيطة وتتكرر عند كل وجبة ، ويشارك فيها جميع الحضور ، وكان رب الأسرة ، عندئذ ، بمثابة الكاهن في معبد ، والأولاد سدنته ، وهكذا تضح سلطة الأب المطلقة على الأبناء وكل من حوله ، ولكن سنة السلف (mos maiorum) كانت هى الشئ الوحيد الذي كان يحدها ويقيدها .

وحينما كانت تنشب المنازعات والخلافات كان الأب ، يقوم أيضاً بدور القاضي فيفصل في هذه المنازعات ، ويعاقب مرتكبي الجرائم ، إلا ما كان منها ما يتعلق بمصير خطير ، مثل الإعدام أو الطلاق ، مثلاً ، فكان الأب يلجأ قبل إتخاذ أن خطوة نهائية بشأنها ، - كما يقتضي العرف وسنة السلف - إلى عقد مجلس من الأقرباء ، لإتخاذ مشورتهم - بالضبط كما كنا ، ومازلنا نفعل في ريفنا المصري ، فيجتمع مجلس العائلة لفض مثل هذه المنازعات . ويصبح قرار هذا المجلس ملزماً لكل الأطراف ويجب طاعته فوراً .

هكذا ، إذن ، كان الفرد يتعلم الالتزام ، والطاعة الواجبة لكبار السن ، آباء الأسر داخل الجماعة أو المقاطعة الواحدة (Pagus) حيث يعرف ماله وما عليه ، فينشأ عضو عامل ، نافع ، يعتمد عليه ، يعرف النظام والواجب ، اللذان كانا بالفعل من أهم خصائص الفرد الرومانى ، داخل أى تجمع بشرى ، حيث تربى على ذلك ، فكان بحق ، أهم دعائم وركائز المجتمع الرومانى الكبير ، الذى ساد الجماعات الإيطالية الأخرى ، وصبغهم بصبغته ، وأخذ بيدهم ، فكانوا هم كذلك سندا له فى الخطوات التى تلت سيادة روما ، فخرجت الزعامة من مدينة روما ، وفرضت نفسها على المدن الأخرى ، المدينة تلو المدينة ، والأقليم تلو الأقليم ثم ما لبث العالم القديم أن دان للشعب الرومانى وكونت روما بفضل زعامة أبنائها الأشداء وساساتها الحكماء ، أعظم أمبراطورية واكتسحت الممالك القديمة فى شرق وغرب البحر المتوسط وأدخلت العديد من الولايات تحت سيادتها وسيادة الشعب الرومانى .

نموذج لأسلوب تربية المواطن :

لقد وجدنا من الضرورى أن نعرض نموذجاً واحداً للتدليل على طريقة أو أسلوب تربية المواطن الرومانى ، لأنه من خلال ذلك النموذج ، ربما يكون

من الأيسر والأسهل تقيم تلك الخلال الحميدة التى اتصف بها ذلك المواطن فى تلك الحضارة الغابرة

إنه لمن المؤسف حقا أن نقرر سوء حظنا اليوم فى عدم العثور على وثائق معاصرة . يمكنها أن تشفي غليلنا عن تلك الفترة المبكرة من تاريخ الشعب الرومانى ، ولكننا سنستعين ، ببعض ما كتبه لنا واحد من أعظم الشخصيات الرومانية على الأطلاق ، وهو كاتو الأكبر (Cato Maior) ، لابنه حتى ينصحه ببعض تجاربه الحياتية لعله ينتفع بها ، وكان ذلك فى القرن الثانى ق . م أى بعد ما لا يقل عن ٢٥٠ عاما من البدايات الأولى لنهضة مدينة روما وازدياد قوتها بالنسبة لبقية المدن اللاتينية فى نفس أقليم لاتيوم (Latium) ؛

وتتلخص هذه النصائح في الاحترام والطاعة والتواضع ، واجتناب كل ما هو مخل بالآداب . فقد كان هو نفسه " حريصا على الا يتفوه بلفظ أمام ابنه كما لو كان حاضرا أمام عذارى الربة ڤستا (Vesta)[٢] .

كان كاتوا الأكبر قد ترك لأبنه كتبا فى التاريخ حتى يعرف الأبن سيرة السابقين وأمجادهم ويتخذهم قدوة له ، ويتعلم الواجب تجاه مدينته ووطنه ككل ، وإن كان ذلك قد ضعف إلى حد ما فى الفترة التى نحن بصددها ، أى فى القرن الثانى ق . م ولهذا وجد كاتو ضرورة فى تعليم وتربية ابنه عليها كما كان السلف الصالح فى أيام المجد الأول . ولكن الدولة وزعمائها حاولوا

(٢) جاء في كتاب . د. عبد اللطيف أحمد علي « روما ، تاريخ الجمهورية والإمبراطورية الرومانية ص ٦٤ ، أن هؤلاء العذاري ، كن بنات صغيرات يخترن من بين الأسر الكريمة ليقمن علي خدمة ربة النار المقدسة في المعبد الخاص بها . وقد بلغ عددهن ست فتيات وكن يخدمن الربة ثلاثين عاما . يبقين أثناءها عذاري ، لا يفرطن في عذريتهن ، وكان الكاهن الأعظم يوقع عليهن الجزاء إلى حد دفنهن أحياء ، إذا فرطن في عفتهن .

جاهدين بث روح الواجب والانتماء وحب الوطن . فى لقاءات كثير على لسان المشاهير من العظماء والأدباء وعظماء القادة ... وتحقيقا لهذا المبدأ والهدف ، فقد كان يسمح للشباب حضور جلسات مجلس الشيوخ (Senatus) . أعلى هيئة تشريعية فى الدولة .

إنه من الطريف حقا ، أن نذكر هنا رواية ، وصلتنا عن كاتوا الأكبر ومفادها أن ابنا صاحب أباه إلى مجلس الشيوخ وحضر معه جلسات ذلك اليوم ولما عاد إلى البيت ، سألته أمه : ماذا كنتم تناقشون اليوم ؟ فرفض الأبن الأجابة ، مخبرا والدته بأنه لا يجب الأفصاح عن ذلك أو نقله إلى أحد ، فما كان منها إلا الالحاح بعد أن زاد فضولها لمعرفة موضوعات مناقشة مجلس الشيوخ . صمت الأبن لحظة وخطر على باله - تفاديا للوقوع فى خطأ أفشاء أسرار المجلس - أن يخبرها بقصة خيالية من بنات أفكاره فقال لها : " كان المجلس يناقش عما إذا كان من حق الرجل أن يتزوج .. بامرأتين أو أن تتزوج المرأة برجلين " فانزعجت الأم كثيرا وخرجت لتوها لتخبر صديقاتها اللائى قررن ! الإعتراض على حق الرجل وتأكيد حق المرأة فى الزواج من رجلين ، وضرورة الذهاب فى صباح اليوم التالى إلى مقر السناتوس (Senatus) للأعراب عن معارضتهن لحق الرجل . وفعلاً ، جاء الصباح ، وكانت دهشة رجال مجلس السناتو كبيرة عندما وجدوا زوجاتهن وأخريات كثيرات يصحن وينادين بحقهن فى الزواج من رجلين ، بدلا من زواج الرجل بأمرأتين ، ولم ينته الموضوع إلا عندما أتى الغلام بنفسه فكشف عن سر هذا الموقف وحرصه على ألا يبوح بأسرار الأجتماع ، فخلق لأمه تلك الحكاية ، فما كان من السناتو إلا أنه كافأه على أمانته وحسن تصرفه . ولكن السناتو ، فيما بعد ، لم يسمح - نتيجة لذلك - لأى صبى أن يحضر جلساته .

وهناك مثل آخر على مدى قوة السناتو في تقرير مصير الدولة ، من ناحية ومدى الطاعة العمياء له ولقراراته ، حتى من قبل القادة العسكريين الكبار وليس من المواطنين فحسب ، بالرغم مما يمكن أن تحدثه تلك الطاعة الواجبة من آثار مدمرة للفرد ذاته .

حدث في عام ٣٢١ ق . م ، أن وقع جيش روما ، بقيادة قنصلين في كمين عند فاوكيس كوديناى (Fauces Caudinae) ذلك المكان الذى خلدته أحداث الموقعة وآثارها على شعب مدينة روما – وقد أرغم هذا الجيش على الأستسلام . وفرض قائد جيش العدو ، وكان يسمى (Pontius) شروطه على القائدين الرومانيين ومنها أن يتعهدوا نيابة عن السناتو الرومانى ، بقبول الجلاء عن سمنيوم (Samnium) وكمپانيا (Campania) وأبرام الصلح مع سكان هذين الإقليمين ، فتعهد القنصلان بذلك فأخلى سبيل جيش روما وقائديه ، بعد أن أعترفا بهزيمتهما[٣] .

وعاد القنصلان إلى روما ودعا مجلس السناتو إلى أقرار ما تعاهدوا به للسمنيين . فما كان من السناتو إلا أن رفض الموافقة على ذلك رفضا تاما ، وأمرهما بالعودة من حيث أتيا أو أن يسلما نفسيهما إلى القائد السمنى (Pontius) كأسرى حرب ، ليفعل فيهما ما يشاء ، فما كان منهما إلا الأذعان لأمر السناتو ، تضحية بشخصيهما فداء لمدينة روما وشعبها .

---

(٣) وذلك بعد أن اجبروا كل الجيش الروماني على أن يمر من تحت النير (iugum) وهو عبارة عن حرية مرتكزة على حربتين قائمتين ، رمز للذل والمهانة والهزيمة ، كعادة الإيطاليين القدماء لكل مهزوم أو مستسلم .

الباب الثاني

تاريخ روما السياسي

الفصل الأول

الدستور الرومانى فى العصر الملكى

سبق أن ذكرنا أن النظام الجمهورى (Res Publica) بدأ فى روما عام ٥٠٩ ق . م وكانت عندئذ نهاية آخر الملوك الإتروريين ، وهو الملك المتغطرس ، تاركوينيوس (Tarquinius superbus) ولكننا لا نعرف على وجه التحديد ، متى بدأ النظام الملكى فى روما ، بالرغم من علمنا بنهايته فى عام ٥٠٩ ق . م .

على كل حال ، فإن – كما هو واضح ومعروف عن كل الأنظمة الملكية – فى التاريخ القديم ، والحديث كذلك مع فارق الظروف التاريخية والملابسات التى تفرضها طبيعة تطور المجتمعات البشرية منذ ذلك التاريخ وحتى الآن – كان الملك هو سيد كل المواقف وبيده كل السلطات .

أولا : السلطة الملكية (Imperium)[1] .

إن المجتمع الرومانى القديم ، فيما قبل عصر الجمهورية ، أى فيما قبل ٥٠٩ ق . م ، كان صورة مصغرة كما كانت عليه حياة الأسرة فى روما القديمة ، فكان الأب ذا سلطة مطلقة (Potestas) على الأبناء والزوجة والعبيد والموالى ، وكان الملك (Rex) هو صاحب السلطة المطلقة (Imperium) فى الدولة ، أى المملكة .

كانت السلطة الملكية المطلقة (Imperium) ، هى بمثابة تفويض شعبى لشخص ما لكى يحكم بالحديد والنار ، فمن يحصل عليها عن طريق شرعى . وجبت طاعته طاعة عمياء ، ولا سبيل إلى مقاومة تلك السلطة ، طالما أن

(١) كلمة امبريم (Imperium) وتعني السلطة المطلقة الامر ، القوة ، السلطة العليا والقيادة العسكرية ، وهي من الفعل اللاتيني : Impero, are ويعنى . أمر ، احكم ، اصبح امبراطوراً .

الشعب هو الذى كان يمنحها وفقا لأجراءات معينة ، تخلع على صاحبها الصبغة الشرعية ومن هذه الأجراءات ما يلى :

١ - قرار باجماع شعبى لأعطاء تلك السلطة لذلك الشخص ، أى لابد من أخذ موافقة مواطنى الدولة على هذا الأختيار لهذه المهمة .

٢ - اعتماد واقرار آلهة الدولة لذلك ، عن طريق إظهار فأل حسن بخصوصها عند إجراء طقوس التنصيب التى كانت تقليدية . ولابد ألا يقع فيها أى خطأ ، وإلا أصبح أختيار الحاكم (الملك) باطلا .

ومما تجدر الأشارة إليه ، هو أن الملك عند تنصيبه ، كانت تصاحبه شاراته الرمزية - ومن أهمها " عصا الفاسكيس (Fasces)[٢] التى كانت رمزا لضرورة الطاعة للملك ، وتذكيرا للمواطنين وتخويفهم من عاقبة المخالفة .

كانت السلطة الملكية (Imperium) ذات ثلاث دلالات أو صاحبة ثلاثة ميادين ، تمارس فيها نفوذها ، وتثبت وجودها :

١ - فى الشئون الدينية : لما كان المجتمع القديم ، مازال فى مراحل تطوره الأولى ، حيث لعب الدين دورا أساسيا وجوهريا فى استقرار وسلام المجتمعات البشرية ، فقد كان الناس فى مدينة روما القديمة شأنهم فى ذلك شأن معظم الأمم الأخرى ، فى تلك الحقبة من الزمن يعتقدون أنه إذا

---

(٢) هي عبارة عن مجموعة من العصي ، التي تلتف حول يد بلطة (axis) كحزمة حطب ، وكان يحملها ، أمام موكب الملك ، جماعة من المرافقين له ، يسمون ليكتوريس (Lictores) وبذلك فقد كانت هذه العصى رمزا لحق الحاكم في جلد العصاة والخارجين علي السلطة الملكية ، أما البلطة فكانت رمزا لحقه في اعدامهم ، ولهذا فليس مستغربا إذا عرفنا أن كلمة الفاشية (Fascism) الانجليزية قد اشتقت من ذلك الاسم السابق (Fasces) للدلالة على دكتاتورية السلطة ، وعن النظام الذي يحكم بالحديد والنار ، ولا يسمح أبداً بأي قدر من حرية الراى والتعبير .

لم يستطع الملك - وهو المسئول الأول فى نظرهم - أن يفوز برضاء الآلهة عن مجتمعهم ومدينتهم (مما يحقق سلاما سماوياً (Pax Deorum) يعود بالنفع والخير العميم على أهل الأرض ، الذين يحرصون عى دوام قيام رابطة الحب والطاعة للآلهة ويحسنون تقوى السماء في علاقاتهم ببعض وبينهم وبين قوى الطبيعة ، حتى لا تغضب عليهم بالكوارث والمصائب) فإنهم لا شك هالكون .

ولما كان الملك لا يمكنه القيام بأعباء تأدية فروض الطاعة والولاء لآلهة المدينة وحده ، فإنه استعان بمجلس صغير من رجال الدين ، وهم الكهنة (Pontifices) إلى جانب المجلس الأصغر من العرافين (Augures) الذين كانوا متمرسين على تفسير الطوالع والظواهر الطبيعية تفسيرا دينيا وكذلك التنبوء بمشيئة الآلهة .

وهكذا فاننا نجد أن سلطة الملك الدينية لم تكن مطلقة ، فقد قيدها وجود الكهنة والعرافين الذين كانوا هم المصدر الحقيقى وراء أى قرار ملكى فى الشئون الدينية .

فى القضاء : كانت حكمة " امبريوم " تلك السلطة الملكية العليا ، تتيح لصاحبها ممارسة النفوذ الأعلى فى ميدان القضاء ، والفصل فى القضايا والمنازعات حتى ينتشر السلام ويستتب الأمن فى جنبات المجتمع الرومانى آنذاك .

كان الملك ، فى هذا المجال سلطة مطلقة تماما على خلاف الوضع فى الشئون الدينية - وصلت إلى حد توقيع العقوبات التى يراها ، بما فى ذلك عقوبة الأعدام ... وبالرغم من ذلك ، فلم تكن تلك السلطة استبدادية دائما ، فقد مارس الحكماء من أهل روما دورهم بأسم العرف وسنة السلف (Mos

(Maiorum في تحجيم تلك السلطة المطلقة قانونا ، ذلك لأن العرف ، ذلك لأن العرف كان أقوى من القانون نفسه ، ومارس أقوى الضغوط على السلطة الحاكمة ، كما كان من مصلحة الحاكم أن يراعي ذلك مراعاة كاملة حتى يضمن رضاء الآلهة ، وحب الناس على السواء . وتحقيقاً لتلك الغاية استعان الملك في النهوض بواجب القاضي الأكبر أو قاضي القضاة ، بالحكماء من الرومان فى صورة مجلس سمى مجلس الشيوخ (Senatus)[٣] وهم أبناء الأسر الرومانية الكبيرة ، الذين كان العرف الرومانى يلزم الملك باستشارتهم ، وأن لم يلزم بقبول مشورتهم . بهذه الطريقة نجد نظام الأسرة الصغيرة فى المجتمعات الصغيرة ، يكرر نفسه على مستوى الدولة - أفلا نرى هنا ما يقابل مجلس الأقرباء (العائلة) الذى سبق الحديث عنه .؟

كما كان للملك حق دعوة الجمعية الشعبية (جمعية الأحياء :[٤] (Comitia curiata) لأخطارها بقراراته حول قضايا قانونية مثل التبنى ومنح الجنسية أو الوصاية .

فى الميدان العسكرى (الحربى)

هنا يختلف الأمر عن سابقية ، فنجد سلطة الامبريوم فى يد صاحبها سلطة مطلقة بكل معانى الكلمة ، وذلك لعدة اعتبارات أهمها :

---

(٣) وهو نفس النظام المعمول به في أوربا اليوم ، حيث نسمع عن البرلمانات الغربية ودورها في اتخاذ القرار في كل الميادين . أما أمريكا فقد حافظت على المضمون والشكل معا ومجلسها النيابي كذلك يسمي "Senate" اشتقاقا من التسمية اللاتينية .

(٢) أي تلك الجمعية التي كانت تتكون من ممثلي الثلاثين حياً من أحياء مدينة روما القديمة (Curia) والتي كانت بدورها تكون ثلاثة قبائل (Tribus) .

١ - أن الرومان كانوا يعتقدون أن قائد الحرب ، الذى يخرج بجيشه خارج أسوار روما ، سيكون فى منأى عن رعاية آلهة المدينة ، وسيصبح تحت رحمة آلهة أجنبية ، مما يستلزم أعطاءه سلطة مطلقة ، دون قيد من أحد ، هذا فضلا عن قيامهم أنطلاقا من نفس الفكرة السابقة ، بطقوس دينية خاصة بقصد حماية الجيش الرومانى وقواده من الأرواح الشريرة التى ستحيط بهم "وهم بعيدين عن بلادهم وآلهتهم" .

ولكننا ، لانستطيع أن نستبعد قيام قائد الجيش باستشارة قادته والعمل بنصائحهم أولا ، ذلك لأنه لم يكن مجبراً أن يستشيرهم .

وجدير بالذكر فى هذا المقال أن نقرر هنا أننا لانعرف شيئا كثيرا عن الشعب الرومانى ودوره فى العصر الملكى ، ومن المؤكد أن دوره كان ثانويا جدا . وأن طبقات المجتمع آنذاك ، كانت تنقسم إلى قسمين واضحين أو فئتين ، بينهما فجوة أجتماعية كبيرة ، فالأولى كانت طبقة الأشراف (Patricii) وممن هم فى مستواهم من النبلاء والأغنياء ، وطبقة ثانية ، هى طبقة العامة (Plebs) وهم من الفلاحين والتجار والصناع وغيرهم ، من ذوى الأملاك المحدودة ولكن الجميع كانوا يتمتعون ، داخل المدينة روما بحقوق المواطنة (civitas) على أختلاف ، أنواعها الخاصة (iura privata) والعامة ، (iura publica) ويدفعون الضرائب كل حسب ثروته ، ويخدمون الجيش - بدون أجور .

هنا ، يجرنا الحديث عن الجيش الرومانى ، الذى كان يتكون من مشاة (cohortes) وكان هؤلاء لا يجهزون أنفسهم بأسلحة (بالأسلحة اللازمة لهم ، والفرسان (equites) الذين كانت الدولة تزودهم بالخيل بسبب أرتفاع ثمنها وعدم مقدرة الأفراد على شرائها . أما كبار الملاك والأشراف الذين أستأثروا

بامتيازات عدة ، وكانوا هم أصحاب المصالح الحقيقة ، فكانت تقع عليهم أعباء كثيرة فى الدفاع عن روما وممتلكاتها ضد أى أعتداء ذلك لأنهم هم الذين كانوا يجهزون أنفسهم بكل أنواع السلاح والعتاد ، ويقفون فى الخطوط الأمامية أثناء المعارك ، وقد اشتهرت من بينهم أسرتان ، ظل أفرادها على مر الأزمان هم القادة المهرة والذين تخصصوا فى خوض غمار الحرب وقيادة المعارك وهما أسرة فابيوس (Fabius) وأسرة بابيريوس (Papirius) وقائد يسمى قائد الشعب (magister populi) أى الجيش ولا سيما المشاة أما قائد الفرسان فكان يسمى (magister equitum) وكما ذكرنا من قبل فأن القائد كان يتمتع بالسلطة (بسلطة الأمبريوم المطلقة) وكذلك من يعينهم بجانبه من القادة والضباط لمساعدته ولتنفيذ أوامره .

الفصل الثاني

الدستور الرومانى فى العصر الجمهورى

أنه بمجرد أنتهاء النظام الملكى فى عام ٥١٠ ق . م وطرد آخر الملوك ، وقيام نظام جمهورى فى عام ٥٠٩ ق . م ، غدت كلمة ملك (Rex) كلمة ممقوتة من الشعب الرومانى (populus Romanus) لما أرتبط فى أذهانهم عن ذلك العصر السابق من تسلط وسيادة مطلقة ، لم يكن لهم فيها أى نصيب من المشاركة الفعالة .

لقد سمى النظام الجديد باسم "Res Publica"[(١)] أى - كترجمة حرفية لهذا الأصطلاح - " الشيء العام " بمعنى النظام الذى يعنى بالأمور العامة والشعب ، أو الغالبية العظمى من الناس وليس ذلك النظام الأرستقراطى ، الملكى السابق ، الذى كان يعنى بمصالح الأغنياء والنبلاء والأشراف فقط .

كانت أهم التغييرات التى طرأت على النظام السابق ، وأحلال بعض الوظائف الجديدة ، تبعا لضرورات تأدية مصالح الشعب على أحسن وجه وضمان القيام بالمهام الموكلة إلى شاغر تلك المناصب خير قيام ، دون تهاون أو شطط ، فتمثل فيمايلى :

---

(١) انها هي تلك الكلمة الخالدة التي عرفتها أوربا باسم « النظام الجمهوري » واستخدمت له اشتقاقا من الأصل اللاتيني هذا ، بعد حذف النهايات اللاتينية لكل من الكلمتين السابقتين ، فغدتا مصطلحا « واحدا » (Republic) ومن الأخطاء الشائعة ترجمة كلمة (Politeia) عند أفلاطون بأنها « جمهورية أفلاطون » ، لأن هذه الكلمة ، أنذاك ، لم تكن تعني الا « المجتمع » او اى تجمع بشري « بغض النظر عن شكل نظامه السياسي ، أي « أية دولة » ، ولم تكن تعني نظاما جمهوريا ، كما يحاول البعض مقابلة هذا باصطلاح "Res publica" أو "Civitas" اللاتيني ، لأن أفلاطون لو كان كان يعني ذلك النظام لاستخدم كلمة « ديمقراطية : "Democratia" ، والتي كانت معروفة لدي يوناني العصر الذهبي ، وهي المقابل اليوناني لكلمة "Res publica" اللاتيني .

أولا : الأبقـاء على سلطة الأمـبـريوم (Imperium) ولكن تم أعطاؤها لحاكمين أثنين ، عرفا بأسم القنصلين : Consules ولمدة زمنية محددة - هى سنة واحدة - بعد أن كانت ، فى العهد الملكى ، لمدى الحياة ، وهكذا فأنه بعد أنتهاء العام ، يترك القنصلان منصبيهما ، ويتخليان عن شارات وظيفيتهما ويصبحان مرة ثانية مواطنين عاديين .

ولما كـانت تلك السلطة ، أى سلطة الأمـبـريوم ، هى أعلى سلطة فى البلاد ، فكان الشعب كله ، فى روما القديمة ، يشارك فى أنتخاب القنصلين الجديدين ، مرة كل عام ، داخل جمعية شعبية تسمى بأسم الجمعية المئوية[٢] : Comitia Centuriata وهى التى حلت محل الجمعية القديمة المعروفة بأسم Comitia Curiata وكانت لها صلاحية أصدار القوانين وانتخاب الحكام والمسئولين الذين يتمتعون بسلطة الأمبريوم . كما كان لها صلاحية أعلان الحرب وإبرام السلام مع أعداء روما ، كما كان مكان انعقاد جلساتها فى ميدان الحرب ، فى ساحة الآلة مارس (Campus Martius) ، خارج أسوار مدينة روما .

وقد حرص الرومان على ألا يستبد أى من القنصلين بتلك السلطة المطلقة فأعطوا كل منهما الحق فى الأعتراض على قرارات الآخر Intercessio أو بما يعرف اليوم فى لغة السياسة بأسم الفيتو: "Veto"[٣] .

(٢) عن عبارة عن جمعية ، أنشأت في الغالب بعد عام ٤٥٠ ق . م ، تمثل فيها كل طبقة شعبية (كانت طبقات الشعب يتحدد على أساس ثرواتها) بنسبة معينة من الوحدات المئوية (Canturiae) : كنتورياي ، التي تحسب بصوت واحد لكل منها عند الاقتراح ، وصل العدد الاجمالي لتلك الوحدات حوالي ١٩٣ وحدة ، لما كانت الطبقة الأولي الغنية تستحوز على ٨٠ وحدة ، والفرسان على ١٨ وحدة ، فانها كانا يضمنان الأغلبية داخل تلك الجمعية .

(٣) هي كلمة لاتينية - في الضمير الأول المتكلم المفرد ، فعل مضارع بمعني « أعترض » .

وجدير بالذكر ، أن واقعية الرومان الخالصة والمرنة - فى نفس الوقت التى تنبع عن ثقة مطلقة في الأفراد والمسئولين عن تلك المناسب الخطيرة جعلت سلطة الأمبريوم تبادلية بين القنصلين داخل وخارج مدينة روما ، أى أنها تكون بيد قنصل واحد فقط ، فى وقت ما ، فإذا كان هناك قنصل فى خارج روما يحارب أعداءها ، فأنها ستكون بيده هو ، وليس بيد القنصل الموجود داخل أسوار روما يصرف شئونها . ذلك لأن قائد جيش الشعب الرومانى magister populi عندما يخرج ، بعيدا عن روما فأنه يكون - كما كان يعتقد أهل روما القديمة - تحت رحمة ظروف غير عادية وتحت وطأة آلهة أجنبية ، ربما تسبب له من المشاكل الكثير طالما أنه الآن بعيدا عن حماية آلهة مدينته روما ، ومن ثم يجب - كما كانوا يعتقدون - أعطاؤه صلاحيات أوسع وسلطات أكبر .

ولكن ، إذا كان الأمر يتعلق بأصدار حكم نهائى مثل أعدام مواطن - مثلا أى داخل حدود المدينة - فلا يملك القنصل سلطة إصدار قرار نهائى بذلك ، إلا بعد الرجوع إلى الجمعية المئوية الشعبية لأخذ مشورتها وموافقتها أو رفضها لذلك ، وكان هذا الأجراء بمثابة قيد آخر لدرء خطر القنصلين على حياة الشعب والأضرار بمصالحه .

ثانيا : ظل السناتو (Senatus) هذا المجلس المبجل للشيوخ وكبار شخصيات المجتمع الرومانى القديم ، قائما ، يباشر أعماله ولكن كهيئة أستشارية وليست تنفيذية أو تشريعية ، كما أننا لا نعرف - بطريقة قاطعة مؤكدة كيف كان أسلوب الرومان لأختيار عضو هذا المجلس فى تلك الفترة وأن كنا نرجح أن كل من يتولى سلطة الأمبريوم يوما ما ، كان يحق له ، وهذا شيء طبيعى يمكن تخمينه بسهولة ، أن يرشح نفسه لعضوية مجلس

الشيوخ ، وذلك إذا ما أخذنا فى الأعتبار أحترام الرومان المتأصل فى أعماقهم لكبار رجالاتهم وقادتهم بفضل خبرتهم وحنكتهم فى الحياة ووطنيتهم المؤكدة .

وتصل واقعية السياسة الرومان وحكماء روما القديمة إلى أبعد من هذا وذاك ، فقد اتصف نظام حكمهم السياسى فى العهد الجمهورى بمرونة كبيرة ، وعدم تقديس النظام القديمة ، بل راحوا يغيروا فيها ويطوروها لتصبح صالحة تحت كل ظروف وفى ظل كل الملابسات ، وذلك إذا كان فى هذا التغيير أو التطور تحقيق لصالح الشعب الرومانى أو تأمين لسلامة البلاد من أخطار محققة ، فمثلا كانت الظروف تفرض نفسها على النظم المعمول بها ، كما حدث فى تعيين رجل واحد مزود بسلطة الأمبريوم من قبل القنصلين ، بمعرفتهما ، حتى يتمكن فى ساعات الخطر أن يتخذ القرارات السريعة ، فى الوقت المناسب ودونما أضاعة للوقت فى مناقشات وأعتراضات ، كان ذلك يتم بإيعاز من السناتو ، ولا يجب أن تزيد مدة سريان هذا الأجراء المؤقت عن (ستة شهور) ، ودونما الحاجة إلى استدعاء الجمعية المئوية للانعقاد ، مما يؤكد الثقة الكاملة التى يوليها رجالات السياسة فى روما القديمة فى قادتها وزعمائها[٤] .

ثالثا : أدخال وظائف جديدة تماما فى تلك الوظائف العامة (Cursus Honorum) ، وذلك لضمان سير العمل على الوجه الصحيح وتأدية كل مواطن لواجبات جاه الدولة من المشاركة فى تأدية الخدمة العسكرية (الألتحاق بالجيش) ودفع الضرائب ، كل حسب ثرواته ، فضلاً عن الأطمئنان على

(٤) كانت الشخصية التي تعينها لتولي مقاليد سلطة الامبريوم المطلقة تسمى « دكتاتور : dictator » وكان أول قائد تولاها هو تيتوس لاكريوس (T. Lacrius) .

مناصبه وقيام المسئولين فى الدولة بواجباتهم تجاه المواطنين فى كافة الأمور.

ومن هذه الوظائف ما يلى :

١ - نقيب العامة (Tribunus) :

يقول الأستاذ الدكتور إبراهيم نصحى[٥] : "لم يترتب على أتساع نطاق حروب روما وتلك الإصلاحات العسكرية التى مرت بنا وما جاء فى أعقابها من أنشاء جمعية المئات[٦] فحسب ، بل أيضا عدة تجارب فى كيفية ممارسة تلك السلطة العليا مدنية وعسكرية فى ظروف ، كثيرا ما كانت تقضى بوجود أكثر من شخصين (أى القنصلين) ، يستطيعان ممارسة هذه السلطة فى عدة أماكن فى وقت واحد[٧] .

ومن ثم أوجد الرومان مجالس : مكونة من ثلاثة أو ستة حكام مزودين بالسلطة العليا المطلقة "Imper ium" ولا سيما فى الفترة الواقعة من ٤٤٠ ق.م إلى ٣٦٧ ق . م - وكانوا يعرفون بأسم.: الترابنة العسكريون ذوى السلطة القنصلية : .Tribuni militum ccnsulari potestate

وكان ذلك الإجراء يهدف من ناحية أخرى " إلى أرضاء العامة المحرومين من تولى القنصلية وأشراكهم فى منصب يتمتع أصحابه بسلطة " الأمبريوم " على حد قول د / عبد اللطيف أحمد على[٨] ولكن هذه الوظيفة لم تستمر طويلا ، وألغى العمل بها ، وأعيدت القنصلية فى عام ٣٦٦ ق.م.

---

(٥) تاريخ الرومان ، الجزء الأول ، منشورات الجامعة الليبية ، كلية الآداب ، ص ١٦٩ .

(٦) هي الجمعية المئوية ، التي ذكرناها سابقاً .

(٧) نفس وجهة النظر هذه فنجدها عند أ . د . عبد اللطيف أحمد علي ، المرجع السابق ص ٨ .

(٨) المرجع نفسه .

٢ - الحاكم القضائى (Praetor) :

أنشأت تلك الوظيفة عام ٣٦٦ ق . م تخفيفا عن القنصلين . فقد روعى أيجاد البرايتور المدنى (Praetor urbanus) ليفصل فى القضايا المدنية بين المواطنين (Cives) وبرايتور الأجانب (praetor peregrinus) ، الذى كان يفض النزاعات القائمة بين المواطنين الرومان والأجانب . وقد كان تعيين هذا الحاكم القضائى ، سواء البراتيور المدني أو برايتور الأجانب عن طريق انتخابه فى الجمعية المئوية ، كما كان طبيعيا ، كذلك ، أن يزداد عدد أولئك باتساع نطاق الفتوحات الرومانية خارج شبه الجزيرة الإيطالية ، وربما الأستعانة بهم فى حكم بعض الولايات الخارجية (Provinciae) التابعة للشعب الرومانى ، طالما أنهم كانوا يتمتعون بالسلطة العليا .

٣ - الرقيب (Censor) :

أنشئت تلك الوظيفة (الكنوسور) حوالى ٤٤٣ ق . م ، وذلك بهدف أحكام عملية الإحصاء (Census) ، التى كانت تجرى لأفراد الشعب الرومانى ، كل خمس سنوات ، لمعرفة ممتلكاتهم وقيمة الضرائب الواجبة عليهم تجاه الدولة ، وعندما كان يحين وقت إتمام الإحصاء ، تنتخب الجمعية المئوية اثنين من الرقباء (Censores) ليتوليا عملها لمدة (١٨) شهرا فقط ، ولا يتمتعان بسلطة الأمبريوم العليا ، ونظرا لخطورة تلك الوظيفة ، وضرورة توافر الخلق السليم والسمعة الطيبة لدى شاغرها فانها كانت وقفاً على من يتولى منصب القنصلية من قبل ، وكان حسن السلوك العام ، كان هذا الشرط نابعا من جسامة المسئولية التى تقع على عاتق الرقيب ، فكان :

أ - يسجل - مع زميله الآخر - كل المواطنين الرومان وممتلكاتهم تبعا لقبائلهم وأحيائهم (Curiae) .

ب - يفحص تلك القوائم ويتأكد من مدى سلامة البيانات ويعاقب المخادعين وذلك بفرض غرامات عليهم .

جـ - يعاقب سيء السلوك والذين يضرون بالصالح العام ويحكم عليهم بسوء السمعة (infamia) .

د - له صلاحية أقرار أو أستبعاد عضوية بعض شخصيات مجلس الشيوخ - ولا سيما منذ نهاية القرن (٤ ق . م ، وذلك بكتابة تقرير عنهم (nota censoris) } .

هـ - يقدر ضريبة الملكية على أساس الثروة ، وهى الضريبة المعروفة باسم (Tributum) وكانت تجمع فى وقت الحروب ، وساعة الأخطار الداخلية أو الخارجية ، وأرضاء للعامة "Plebs" فقد تم أقرار حقهم فى انتخاب أحد المراقبيين فى كل مرة ، وذلك منذ عام ٣٩٠ ق . م ، وبمرور الوقت ، أصبح الرقيبان الأثنان من تلك الطبقة ، ولكن منذ عام ١٣١ ق . م وما بعدها ، وليس قبل تلك السنة المذكورة .

٤ - أمين الخزانة العامة (Quaestor) :

كان للقائمان على هذا المنصب فى بدايته ، أى منذ عام ٤٤٩ ق . م يختصان بالإنابة عن القنصلين فى قضايا القتل بدون مبرر وهى الوظيفة التى تعرف بأسم (quaestores patricii) وكانا ينتخبان من الجمعية القبلية (Comitia tributa) فى كل عام . وعندما اكتسب العامة حق تولى هذه الوظيفة

عام ٤٢١ ق . م ، وصل عددهم إلى أربعة كوايستوريس : (quaestores) أثنان منهم يعملان : كأميني الخزانة العامة (Quaestores aerarii) والآخران يساعدان القنصلين في ميدان القتال كمسئولي تموين " للجيش ولمعرفة مرتبات الجنود .

ولكن في عام ٣٦٦ ق . م مع ظهور وظيفة البرايتور ، اقتصر نشاط الكوايستور على الشئون المالية ، وكانت الوظيفة هذه أدنى الوظائف العامة ولكنها كانت خطوة على طريق تولي مناصب أهم وأكبر .

٥ - مسئول الأمن والتجارة : (aedilis) :

لم تكن تلك الوظيفة من الوظائف العامة في الدولة ، حتى جاء عام ٣٦٧ ق . م فأصبحت وظيفة الأيديليس ، وظيفة سنوية عامة ، يتولاها صاحبها عن طريق الأنتخاب (انتخاب الجمعية القبلية له) كما كان يشغلها أربعة موظفين ، أثنان منهم يعرفون باسم "aediles plebis" أي العامة وأثنان أخران بأسم "aediles carales" أي من الأشراف .

مرت تلك الوظيفة بمرحلتين الأولى قبل عام ٤٤٩ ق . م ، عندما اقتصر على الأيديليس حفظ المحفوظات وأمانة الأرشيف كموظف لنقباء العامة (Tribuni plebis) والثانية بعد ذلك ، وبالتحديد بعد ٣٦٧ ق . م ، عندما أصبحت تلك الوظيفة وظيفة عامة وشملت الأختصاصات الآتية التي كانت تعرف بأسم " رعاية شئون المدينة cura urbis ومنها :

أ - صيانة شوارع روما وتطبيق قواعد المرور فيها .

ب - تدبير امداد روما بالمياه والحبوب .

جـ - الأشراف على المعاملات التجارية في الأسواق ورقابة الموازين .

د - حفظ الأمن والنظام وخاصة في الحفلات والأعياد .

هكذا ، تأكد لنا بحق ، شيوع تولى العامة لمعظم المناصب الأدارية المختلفة فى العصر الجمهورى ، ذلك العصر الذى أشرك عامة الشعب Plebs فى الحكم وأدارة الأمور " وأصبح نظام الدولة الجديد ، شكلا ومضمونا " نظاما جمهوريا يشارك فى ادارته جمهور الشعب جنبا إلى جنب مع طبقة الأشراف والنبلاء وأصحاب المصالح العليا فى البلاد والذين أداروا دفة روما القديمة والعصر الجمهورى بنفس القدر من الأخلاص والتفاني ، والطاعة والالتزام ، كما كانوا هم أعمدة انتصاراتها الأولى السابقة فى العصر الملكى ، ولكنهم اليوم بمساندة العامة ، أصحاب المصالح المباشرة ، يحققون كذلك مزيدا من الاستقرار ، لدعم حقوق كل المواطنين الرومان ، والأستمتاع بخيرات الولايات الخارجية ، التى ضمها إلى أملاك الشعب الرومانى قادة عظام ، التزموا بدساتير بلادهم فى كل نظام دقيق ، بهدف تحقيق العدالة والمساواة أمام القانون فى كل شىء ، وبالتالى كان التفانى فى أداء الواجب ، أهم سمات رجالات العصر الجمهورى ، سواء فى ميدان السياسة أو فى الميدان العسكرى على أرض المعارك .

ولكن حقيقة الأمر ، أن العامة كافحوا كفاحا مريرا حتى تم الأعتراف بحقوقهم ، مما استلزم الدخول فى صراع بينهم وبين طبقة السادة والأشراف[٩] (patricii) .

ومما يؤسف له حقا ، ويؤكد ذلك الأستاذ الدكتور إبراهيم نصحى[١٠] أن ذلك الصراع الطبقى بين الأشراف "patricii" بين العامة (Plabs) والذى

---

(٩) لمزيد من التفاصيل الهامة عن هذا الصراع الطبقي ، أنظر د . نصحي ، المرجع السابق ، ص ص ١٧٩ - ٢٠٢ .

(١٠) المرجع نفسه ، ص ص ١٩٩ - ٢٠٢ .

بدأ منذ بدايات القرن الخامس ق . م ، أى حوالى منذ عام ٤٩٤ ق . م ، وأنتهى تقريبا عند اوئل القرن الثالث ق . م ، حوالى عام ٢٨٧ ق . م ، أى أنه دام ... حوالى قرنين من الزمان) لم يحقق النتائج المرجوة منه . كيف إذن يمكن فهم ذلك ؟

نعم لقد حقق العامة أنجازات كبيرة وحصلوا على حقوق كثيرة منها :

١ - تكوين جمعية القبائل (Comitia Tributa) ومجلس العامة (Concilium plebis) وتوليهم مناصب سميت باسمهم ، نقباء عن العامة (Tribuni plebis) .

٢ - شاركوا في سن القوانين ونشرها بعد أن كانت حكراً على الأشراف والنبلاء من الطبقة الأرسقراطية على غرار قوانين سولون الأثيني على يد لجنة منهم سميت بلجنة العشرة رجال (Decemvir) بالرغم من صعوبة تصديق ذلك[11] ومن أهم نصوص تلك القوانين إقرار حق العامة في إستئناف أي حكم ضدها (Provocatio) .

٣ - كسبوا حق تولي منصب القنصلية عام ٣٦٧ ق . م حتى أن تسعين منهم تولوا هذا المنصب ، وأصبحوا أعضاء في السناتوس (Senatus) بعد ذلك في المدة من ٣٦٦ حتى ٢٦٥ ق . م .

٤ - حصلوا على حق تمثيل طبقتهم بنصف أعداد الجماعات الدينية المختصة بالنبوءة المقدسة decemviri sacris faciundis وجملة كبار الكهنة (Pontifices) وجماعة العرافين Augures وذلك منذ عام ٣٠٠ ق . م .

وكذلك ، فإن العامة نجحوا في وضع حد لمشاكلهم ولاستئثار طبقة

---

(١١) المرجع نفسه ، ص ١٨٧ .

الأشراف بكل الإمتيازات دونهم ، وكانت نهاية هذا الصراع درامية ، عندما هاجر العامة إلى خارج حدود مدينة روما ، على تل يانيكولوسل عبر إلنهر ، في عام ٢٨٧ ق . م ، وهددوا بالإنفصال عن مدينة روما ، مما أجبر السناتوس على إتخاذ موقف أكثر مورنة وتفاهم ، فاتخذوا من بينهم دكتاتوراً عنهم هو هورتنسيوس (Hortensius) الذي نجح في فض الخلاف ، وأصدر قانونا باسمه (.Hortensia) نص على سريان مفعول أي قرار تصدره جمعية القبائل دون أن تسبقه أو تعقبه موافقة السناتوس عليه .

عندئذ نعود إلى سابق سئوالنا ، ولماذا لم تحقق كل هذه الإنجازات النتائج المرجوة ؟ .

يقول د. نصحي[١٢] في هذا المقام « إنه قد ترتب على شدة ميل الرومان جميعاً إلى الحفاظ على تقاليدهم قدر الإمكان ، أمران مهمان : إحدهما هو أنه بالرغم ما كسبه العامة من حقوق كفلت لهم المساواة قانوناً مع البطارقة (الأشراف) ، فإن هذه المساواة كانت شكلية أكثر منها حقيقية ولا أدل على ذلك من أنه بعد إكتساب العامة حق تولي الوظائف العامة جميعاً ، لم يحدث إندفاع نحو شغلها برجال من العامة ، بل ظل الناخبون يميلون إلى تفضيل المرشحين الذين لهم أو لأسرهم ماض ممتاز في الحياة العامة » .

ثم يضيف قائلاً : « والأمر الآخر ، هو أنه برغم ما منح للعامة من حقوق وما اتسمت به تريبونية العامة وجمعية القبائل من طابع ديمقراطي لم يصبح نظام الحكم الروماني نظاماً ديمقراطياً بمعنى الكلمة وإنما ظل في الواقع نظاماً ارستقراطياً » .

(١٢) المرجع نفسه ، ص ٢٠٠ .

ومما هو جدير بالذكر أن طبقة العامة ،بعد أن حققت كثيراً من مكاسبها ، حتى عام ٢٨٧ ق . م وتساوت - شكلياً - مع طبقة الأشراف إلا أنها - بحكم إمكاناتها المحدودة وشاغل حياتها المستمر سعياً وراء حياة أفضل ، قنعت بذلك وتركت الحياة السياسية ، كما كانت من قبل في أيدي الطبقة الأرستقراطية الجديدة ، التي نشأت من تآلف بين طبقة الأشراف والنبلاء القديمة بين مستوري الحال من الطبقة العامة .

لقد استراحت طبقة العامة إلى شكل الأوضاع الجديدة ولا سيما في الميدان الإجتماعي ، فقد كسبت حق الزواج من طبقة الأشراف بمقتضى قانون كانوليوس (Lex Canuleia) ، يقضي بذلك نهائياً على عقدة النقص لدى العامة ، وتم القضاء على روح التعصب الطبقي القديمة كما سعدت تلك الطبقة سعادة غامرة بإيجاد وظيفة الرقيب ، تلك الوظيفة القوية ، التي لم تفرق بين كبار القوم وصغارهم ، وراحت تفتش عن الإنحرافات أو صور التهاون في حق الدولة ، بل تستجوب أرباب الأسر عن نسيانهم لواجباتهم العائلية ، وعن سوء معاملتهم لعبيدهم ، فكان الكنسور Censor يعاقب أولئك عقاباً شديداً صارماً ، بأن يحذف اسم رب الأسرة من قائمة أفراد القبيلة، مما يسبب له سمعة سيئة بين الأسر الأخرى ، وكان ذلك أخشى ما يخشاه الفرد الروماني ، لقد وصل نشاط هذه الوظيفة - كما قلنا سابقاً - إلى إستبعاد بعض أعضاء السناتوس أو أفراد من طبقة الفرسان ، إن أهمل أحدهم في الاهتمام بفرسه الذي أعطته له الدولة . حقاً لقد استراح الرومان جميعاً إلى نزاهة هذا المنصب ، وعدالة قراراته ، فأطاعوا جميعهم السلطة الشرعية ، ومن بينها أولئك المفتشون الرقباء ، الذين كانوا ينهون مدتهم بإجراء تطهير ديني (Lustratio) للمواطنين ، خارج أسوار روما ، ومصحوب بتقديم القرابين وإقامة الصلوات في مساحة الاله « مارس » .

٣ - الإختيار الصعب

إنه لو لم يتم العثور على بقايا نقش قديم ، يرجع تاريخه إلى القرن السادس ق . م ، وذلك تحت أرضية الفوروم (Forum) ، حيث تمكن الدارسون من قراءة كلمة « Rex » ، لما عرفنا شيئاً عن تلك الحقبة ونظامها ونظام حياتها السياسي ، ولظل إحتمال وجود هذا النظام على أساس من التخمين والحدس ، في ضوء الإستنتاج الضعيف القائم على وجود ألقاب مقرونة بلفظة « rex » في العصور التالية لذلك مثل لقب : (inter - rex) وتعني الحاكم المؤقت في عصر الجمهورية الرومانية ، ولقب « ملك القرابين » (rex sacrorum) الذي كان يحمله كبار الكهنة الرومان .

لقد أجمع المؤرخون والأدباء الرومان ، على أن روما القديمة كان يحكمها ملوك حتى سقوط ذلك النظام ، سنة ٥٠٩ ق . م ويعتقد أنهم كانوا ستة ملوك[١٢] حكموا روما لمدة استمرت حوالي قرن ونصف قرن[١٣] إلى أن قام النظام الجمهوري الارستقراطي (Res publica) .

ويبدو أن روما قد وقعت في أيدي الأتروسكيين ، بعد إلغاء النظام الملكي مباشرة ، نتيجة لضعفها ، ولكن هذه السيادة على روما لم تدم فاتحدت الجماعات اللاتينية في إقليم : لاتيوم وهزمت أولئك الغزاة الأجانب وطردتهم نهائياً حوالي سنة ٥٠٥ ق . م .

---

(١٢) يعتقد د . نصحي ما أكدته روايات الرومان ، بأن الملكين تاركوينيوس العتيق ، وتاركينيوس المتكبر ، كانا دون سائر الملوك في روما القديمة من أصل اتروسكي (أنظر المرجع السابق ، ص ص ٨٦ - ٨٧) .

(١٣) يذكر بنيامين فارنجتون ، مدنية الأغريق والرومان (ترجمة امين تكلا) مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٤٨ ص ٨٧ ان الملكية سادت لمدة ٢٥٠ عاماً .

عندئذ أصبحت كلمة « ملك » (rex) تثير إمتعاض الرومان وانتقل الحكم إلى أيدي نظام جديد . يتمثل في تكوين قيادة منتخبة من حاكمين اثنين ، يتم تعيينهما بالإنتخاب السنوي ، ويتمتعان بسلطة مطلقة في ميدان الحرب وسلطة محدودة في الشئون المدنية . أنهما القنصلان (consules) ويوجد إلى جانبهما هيئة إستشارية مؤلفة من رؤساء الأسر الشريفة وتسمى بالسناتو (Senatus) أي مجلس الشيوخ .

ولكن بعد كل ذلك ، ألا يثير نجاح روما هذا تساؤلات في نفس الدارس عن طرق وأساليب روما في السيطرة على بقية أجزاء إيطاليا ، حتى أصبحت سيدة ايطاليا كلها بدون منازع ؟ !

لقد بدأت روما مشوار التوسع الخارجي بإقامة علاقات وطيدة مع جيرانها من المدن والقرى اللاتينية في عام ٤٩٣ ق . م عقدت معاهدة اشتهرت بإسم « معاهدة كاسيوس » Foedus Cassianum وبموجبها غدت كل من روما وإقليم لاتيوم كله قوة واحدة ويصف د. عبد اللطيف علي هذه الإتفاقية بأنها ***كانت أول خطوة عظيمة خطتها روما نحو التوسع في ايطاليا***(١٣) .

كانت روما وزعامتها السياسية والعسكرية على قدر كبير من الذكاء العملي ، الذي جعلها تفكر في ضرورة تحقيق نوع من التحالف مع بقية أو أهم وأقوى المدن اللاتينية الأخرى ، مثل مدينة Praeneste وكانت بنود الإتفاقية السالفة الذكر أكبر شاهد إثبات على ما نقول ، فها هي روما تعطي المدن اللاتينية الأخرى :

---

(١٣) روما : الجزء الأول : تاريخ الجمهورية والامبراطورية الرومانية ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٢٨ .

١ - حق المواطنة الرومانية civitas .

٢ - حق الزواج من سيدات رومانيات conubium وكذلك حق الأولاد والأبناء - عامة - في الميراث .

٣ - حق التجارة والتعامل داخل روما Commercium .

٤ - حق ممارسة الحقوق المدنية العامة iura publica . مثل حق التوظف ius honorum وحق الإقتراح Suffragium وحق التقاضي أمام المحاكم في روما legis actio .

غزو الغال (Galli) لروما :

لما كانت روما في حاجة إلى مساعدة مدن العصبة اللاتينية ، كانت هي البادئة بالتقارب وطلب معونتهم ولكنه بمجرد زوال الخطر الخارجي أو إنتهاء نزاعها مع إحدى المدن الإترورية كما حدث مع مدينة Veii الواقعة على مقربة من روما ، والتي استمرت في صراع مع روما استمر طويلاً سقطت في نهايته سنة ٣٩٢ ق . م ، بعد أن دمرتها روما تدميراً كاملاً - تنكرت روما لمساعدة المدن اللاتينية الأخرى ، وبدأت تعاملها بصلف وعنجهية ولهذا ما لبث الغال أن غزو روما ، وهنا أظهرت المدن اللاتينية تشفيها ، وأعلنت عن رفضها لمساعدة روما نكاية فيها . لقد كان الدرس الذي لقنة الغال لروما سنة ٣٩٠ ق . م درساً قاسياً فتركوا خلفهم دماراً وخراباً كبيراً ، وأدخلوا الرعب في نفوس سكان مدينة روما وأيقظت الروح الوطنية التي نقمت على سوء الأوضاع في روما أنذاك ، فحاول الجميع أخذ العبرة من ذلك الدرس القاسي وعملوا على تحسين الأوضاع .

ولقد كان من حسن طالع روما أن عاد الغال سريعاً بعد هزيمة روما عند نهر آلياً (Allia) ولم يمكثوا طويلاً بعد أحداث الدمار الشامل في المدينة .

من الطريف أن تسمع وتقرأ عن قصة وطنية رجال السناتو الروماني أولئك الرجال الكبار السن ، والذين كانوا مضرب الأمثال في التضحية والولاء لمدينتهم ، فقدموا أرواحهم فداء لها ، وفقاً لعادة دينية قديمة (devotio) كان المواطنون ، ولا سيما المسئولين في الدولة ، يقدمون عليها عند بلوغ ساعة الخطر .

تلك القصة مفادها أن شيوخ روما - عند غزو الغال - عقدوا النية على مواجهة الغزاة بأسلوبهم الخاص ، فجلس كل واحد منهم أمام منزله لابساً رداءه الرسمي ، دون حراك ، حتى خيل لجنود الغزاة أنهم تماثيل ، فحاول أحدهم التأكد من ذلك ، واجترأ - ربما عن قصد حسب الرواية - على ضرب أحد الشيوخ على وجهه ، وكان يدعى بابيريوس papirius فما كان من الشيخ العجوز إلا أن ضرب الغازي بعصاه ، فثار الأجنبي البربري ولم يسترح إلا بعد أن أجهز علي الشيخ ، فكانت تضحيته ، والآخرين من أمثاله ، نموذجاً فريداً للفداء في سبيل الوطن ، وإن كنا لا نملك الوسيلة - الآن حتى نتأكد من صدق أو كذب هذه الروايات .

حل العصبة اللاتينية :

كان على روما أن تنهج نهجاً جديداً تماماً لما اتبعته قبل غزوة الغال لها ، فراحت تعتمد على قوتها هي نفسها ، فأولت للمنطقة الشمالية الواقعة على حدودها أهمية بالغة بأن أقامت فيها مستعمرتين لها (Coloniae) فكانت

تلك بمثابة القلاع الأمامية للدفاع عن روما ضد الغزاة . ثم ولت وجهها شطر المدن اللاتينية (أمثال مدينة تيبور Tibur ومدينة براينستي Praeneste . اللتان كانتا قد شقتا عصا الطاعة لروما وثارتا على زعامتها لإقليم لاتيوم) وذلك بهدف تأديبها وإدخالها بالقوة إلى حظيرة طاعتها ، واستغلال جميع موارد العصبة اللاتينية لصالحها أولاً ، وتتضح سياسة روما هذه في تلك المعاهدة التي عقدتها مع قرطاجة باسم روما ، نيابة عن لاتيوم كلها ومدنها جميعاً . كان ذلك سنة ٣٤٨ ق . م ويبدو من نص المعاهدة - التي حفظها لنا المؤرخ بوليبيوس (Polybius)[١٣] أن قرطاجة - وكانت أقوى دولة بحرية عندئذ - تعهدت ألا تتعرض للمدن اللاتينية بسوء ، *طالما بقيت هذه المدن على ولائها لروما* . هذا شرط أول لصالح روما أما البند الثاني الذي يؤكد إستغلال روما وفرض سيطرتها على مدن العصبة اللاتينية عنوة ورغماً عنها ، هو أن *قرطاجة تعهدت لروما بأن تعيد إلى سيطرتها - أي سيطرة روما - أي مدينة لاتينية متمردة تسقط في يد قرطاجة* .

وجدير بالذكر أن هذا الأجحاف والظلم من روما لمدن العصبة أدى - بعد مرور حوالي ٨ سنوات فقط ، أي حوالي سنة ٣٤٠ ق . م إلى ثورة عارمة

(١٣) مؤرخ يوناني و عاش في الفترة من ٢٢٠ إلى ١١٧ ق . م ، ويعد التاريخ الذي كتبه عن روما في تلك الفترة من أوثق وأدق ما كتب عنها .. لأنها كتابة محايد ولم يكن بوقاً للدعاية لحساب روما وزعمائها كما أن تاريخه الذي يقع في ٤٠ كتابا - يمثل وجهة نظر سياسي محنك ، عرف الشعب الروماني وقيادته في تلك الفترة عن كثب ، بعد أن اسره الرومان سنة ١٦٦ ق . م ، عقب هزيمة العصبة الآخية (Achaea) في البلوبونيز ، يذكر عنه ، رأيه الصائب وادراكه العميق لحركة التاريخ وتفرد روما وبسط سلطانها السريع ، وإذ قال « إن سيادة روما العالمية بعد فترة كفاح دامت حوالي نصف قرن (من ٢٢٠ إلى ١٦٨ ق . م) أمر لا نظير له في التاريخ » والحقيقة أن التاريخ لم يعرف حتى الآن نموذجا آخر لمدينة فرضت لنفسها على المنطقة التي تعيش فيها ثم تكون امبراطورية خارج أراضيها لنفسها في مثل هذه السرعة .

بين تلك المدن ضد روما استعانت فيها تلك المدن بأهالي كمبانيا جيرانهم الجنوبيين .

ولسوء حظ اللاتين (Latini) فإنهم قد هزموا أمام روما في معركة جبل فيزوفيوس (Vesuvius) وكان من روما أن *حلت العصبة اللاتينية وجردتها من كل خصائصها* الإتحادية وكان ذلك حوالي سنة ٣٣٨ ق ، م وتغير كل شئ بعد تلك الثورة المشئومة ، فلم يعد الرجل اللاتيني قادراً على التمتع بالحقوق التي ذكرناها سابقاً إلا في مدينته فقط ، أو على أحسن تقدير في روما كذلك ، ولكن لا يمكنه ذلك في أي مدينة أخرى من مدن العصبة اللاتينية ، كما كان الحال من قبل . بينما – على العكس تماماً – كان المواطن الروماني – ساكن مدينة روما – هو صاحب الحق في التمتع بكافة الحقوق السابقة في كل مدن العصبة . وهكذا احتكرت روما لنفسها حق التعامل – كمنتصرة – مع المدن اللاتينية . هنا نذكر دفاع د. عبد اللطيف أحمد علي عن موقف روما هذا ، وهو موقف غير عادل – فيقول : .

« إذا أدركنا في مسلكها ما يجا في أحياناً روح العدالة أثناء عملها من أجل البقاء – فلعلنا لا ننسى أنه ما من أمة مظفرة إلا وقد يوجه إليها نفس النقد . لقد أدركت روما أنه لابد من أن تصبح لاتيوم رومانية لكي تبقى هي واللاتين على قيد الحياة ، فابتدعت سياسة عزل المدن اللاتينية الواحدة عن الأخرى تحقيقاً لهذا الغرض[١٤] » .

ويضيف د. عبد اللطيف ، في آخر حديثه في هذا الموضوع :

---

(١٤) روما الجزء الأول : تاريخ الجمهورية والإمبراطورية الرومانية – القاهرة ص ٣٨ .

وهكذا أصبحت كلمة لاتيني لا تدل على شعب بالذات بقدر ما تدل على وضع قانوني معين واستمرت تدل على هذا المعنى قروناً عدة ، بينما أصبحت الدولة الجديدة - التي كان نجمها يصعد في الأفق العالمي - تعرف لا بالدولة اللاتينية بل بالدولة الرومانية[١٥] .

وبالتالي ، كان لروما الحق في إطلاق إسمها على ممتلكاتها الخارية ومستعمراتها في الشرق والغرب فنسمع عن الامبراطورية الرومانية والجيش الروماني والسلام الروماني .

(١٥) المرجع نفسه ، ص ٣٩ .

الفصل الثالث

الفتوحات الخارجية وتكوين الامبراطورية الرومانية

أولاً : فتوحات روما داخل شبه الجزيرة الايطالية :

١ - استسلام كمبانيا : Campania

نجحت روما بأسلوبها المتميز في تحييد أعدائها أو بالقوة المسلحة مالم تنفع الوسائل الدبلوماسية في إقناع كمبانيا بالغاء تحالفها مع اللاتين ضد روما وتوصلت معها إلى عقد صلح منفرد ومنحت أهلها حق التعامل معها والزواج منها . كما ذهبت إلى أبعد من ذلك فأعطت بعض مدن كمبانيا حقوق المواطنة المدنية .

فأصبحت تلك المدن مثل كوماي Cumae جزءاً من روما بعد فشل مدن الوحدة اللاتينية - عقب ثورتهم في ٣٤٠ ق . م ضد روما وانهزامهم هزيمة ثقيلة عند جبل فيزوفيوس Vesuvius عام ٣٣٨ ق . م .

وهكذا ردت روما الضعيفة صفعتين على وجه مدن العصبة اللاتينية ونجحت في تحييد كمبانيا ، بل وكسبتها إلى جانبها . ووجدت نفسها سيدة على منطقة فسيحة غنية في جنوب ايطاليا التربي وكذلك على جميع مدن اقليم لاتيوم .

٢ - الحروب السمنية :

نشب صراع مرير بين روما من ناحية وبين سكان المرتفعات الوسطى من شبه الجزيرة الايطالية ، رجال الجبال أولئك وهم جماعات معروفة بقوتها وقسوتها ، ويسمون باسم (Samnites) استمرت تلك الحروب على ما يقرب

من ثلاثين عام : فالحرب السمنية الأولى استمرت من ٣٢٦ - ٣٠٤ ق . م ، أي حوالي (٢٠) عاماً ، بينما الحرب السمنية الثانية من ٢٩٨ - ٢٩٠ ق . م ، حوالي (٨) سنوات .

وأهم ما يذكر من حلقات ذلك الإصرار العظيم من روما ، على بسط نفوذها وسيطرتها على كل ايطاليا القديمة ، بما فيها سكان المناطق الجبلية ، تلك الموقعة المعروفة بإسم موقعة الحلق Fauces عام ٣٢١ ق . م حين فشل الرومان في هزيمة القائد السامني بنتيوس Pontius وأملي شروطه على القنصلين الرومانين ، قائدي الجيش الروماني ، وما أن عاد القنصلان إلى روما لإقرار الإتفاق الذي وقعاه مع القائد السمني ، حتى رفضه رجالات السناتوس وأجبروا القائدين الرومانين على العودة لتسليم نفسيهما إلى القائد السمني ليفعل فيهما ما يشاء وما كان منهما إلا الطاعة والتنفيذ ، وهما يعلمان جيداً بأنهما هالكان لا محالة .

٣ - إخضاع الإغريق في جنوب ايطاليا :

كان الساسة الرومان ، في روما القديمة بعيدي النظر ويعرفون أصول الدبلوماسية الحقة ، فاتخذوا أول خطوة لفصل اغريق الجنوب عن القبائل السمنية القوة في وسط ايطاليا ، وذلك بإنشاء مستعمرة ڤنوسيا الكبيرة .

ولما كانت تارنتوم (Tarentum) هى أقوى المدن الإغريقية وأكثرها ثراء وخصوبة ، فقد حاولت روما أن ترجئ الدخول في صراع مباشر معها ، ولاسيما أنها دائمة الإتصال بالممالك اليونانية في بلاد اليونان ذاتها لتضمن حماية نفسها من الايطاليين ، وجدث أن استعانت تارنتوم بملك يوناني ، كان يتشبه بالاسكندر المقدوني ، ويدعي بيرهوس (Pyrrhus) كان ملكاً على عرش إبيروس (Epirus) في شمال غرب اليونان ، وحاول هذا الملك أن يقوم

.. ير محرر الإغريق في الغرب ، ولكنه اصطدم بروما الفتية ، ودخل معها ثلاث .. ارك تارة ينتصر وتارة ينهزم ، ولكنه في النهاية خرج مهزوماً شر هزيمة عند بنفنتوم (Beneventum) في إقليم سمنيوم (Samnium) عام ٢٧٥ ق . م حتى ضرب به المثل في تحقيق الإنتصارات الباهظة الثمن والفادحة الخسائر وبالتالي الأقرب إلى الهزيمة[1] وسقطت تارنتوم بهزيمة حاميها بيروس ، ودخلت في حظيرة روما القوية منذ ذلك التاريخ .

٤ – إخضاع شمال ايطاليا :

لقد تأخرت روما في شمال ايطاليا ، حتى مطلع القرن الثاني ق.م. وذلك لأنه كان مسرحاً للعمليات الحربية بين أقوى عدو لروما أنذاك وهو هانيبال (Hannibal) القرطاجي ، الذي كان يحارب روما من الشمال ويحتفظ بإقليمين فيه ، ولكن بهزيمة هانبيال النهائية ورحيله من الشمال في عام ٢٠٣ ق.م. استسلمت لروما كل مدن وأقاليم الراين الهام من شبه الجزيرة الايطالية . وكعادة روما في الفتوحات الخارجية ، أقامت هنا كذلك عدة مستعمرات رومانية ولاتينية ، لتأكيد سيادتها ونفوذها ولضمان الولاء لها كما أنشأت عدداً من الطرق العامة المعبدة ، مثل طريق ايميلوس (Aemilius) والذي أنشئ عام ١٨٧ ق.م ، وطريق كاسيوس (Via Cassia) عام ١٧١ ق.م ، وذلك لتسهيل الإتصال بروما عبر إتروريا وحتى وادي نهر البو ولم تنس روما إنشاء قاعدتين بحريتين عند لونا (Luna) وجنوه (Genua) بعد هزيمة الغال في عام ٢٢٠ ق.م.

---

(١) شاع في اللغة الانجليزية تعبير Pyhrric Victory وذلك لضرب المثل بتلك الهزيمة الثقيلة في التاريخ القديم ، كثمن فادح لانتصار وهمي .

روما سيدة ايطاليا :

وهكذا فإن روما ، حوالي نهايات القرن الثالث وبدايات القرن الثاني ق.م. كانت قد غدت زعيمة لإتحاد إيطالي ، يمكن وصفه بأنه كان إتحاداً فيدرالياً ، يقوم على :

١ - عقد المعاهدات بين المدن الإيطالية وروما فقط ، وليس بين المدن الإيطالية وبعضها البعض مع إحتفاظ كل مدينة بحكومتها وقوانينها الخاصة .

٢ - كان السناتوس الروماني - في روما فقط - يقوم بدور مجلس الإتحاد الفيدرالي ، ويصرف كل أمور هذا الإتحاد في شتى الموضوعات والعلاقات ، سواء ما يتعلق منها باللاتين أو الايطاليين أو اغريق أو غال .

٣ - كان الإتحاد الروماني ذو طابع عسكري بالدرجة الأولى إذ كان على المدن الأخرى أن تضع جميع مواردهما العسكرية تحت تصرف روما في أي وقت تشاء ، وهكذا كانت ايطاليا كلها قوة محاربة تحت قيادة روما ، التي كانت تتصرف بحرية كاملة باسم هؤلاء جميعاً وثبت ذلك في كل القضايا السياسية أو الإجتماعية أو الإقتصادية .

أما الشكل الإجتماعي والإداري لهذا الإتحاد فيمكن إيجازه فيما يلي :

أولاً : المواطنون الرومان (Cives Romani)

أ - وكان بعضهم يتمتع بكامل الحقوق المدنية والسياسية كذلك ويعرفون بطبقة (Cives optimo iure) وكانت تلك البلاد تسمى ببلديات الشعب الروماني (municipia civium Romanorum) .

أو في المراكز والقرى التابعة لتلك المدن (fota. conciliabala) أو المستعمرات الرومانية ، التي كان يتألف سكانها من المواطنين الرومان (coloniae civium Romanorum) وكانوا هم الوحيدون الذي يعفون من الخدمة العسكرية لأنهم يدافعون عن مستعمراتهم أصلاً .

ب - وكان البعض الآخر لا يتمتع بكامل حقوقه السياسية وهم المعروفون باسم (Cives sine suffragio) مثل الحرمان من حق الإقتراع أو الترشيح .

ثانياً : الحلفاء (الأجانب : Peregrini)

أ - الحلفاء اللاتين (Socii Latini)

وهم أشد سكان ايطاليا صلة بروما وأكثرهم ولاء لها . وكانوا يقيمون في المستعمرات اللاتينية أي المدن اللاتينية القديمة ، وكان لهم حق النزوح إلى روما لإكتساب الجنسية الرومانية بشرط ترك أبناء لهم في سن الجندية ولكنهم لم يكونوا يخدمون في الفرق الأساسية للجيش الروماني (Legiones) بل كانوا يؤلفون وحدات خاصة مساعدة (Auxilia) من المشاة (cohortes) أو الفرسان Alae .

ب - الحلفاء الايطاليين (Socii Italici)

وكانوا يشملون بقية سكان شبه الجزيرة الايطالية من عناصر وأجناس آخرى مثل الأميري (Umbri) والأتروري (Etruri) والإغريق Graeci وكانت كل جماعة أو قبيلة (Tribus) منهم ترتبط مع روما بمعاهدة خاصة (foedus) .

وجدير بالذكر أنهم كانوا ، مدناً حرة مستقلة في شئونها الداخلية فقط

(Ligerae) ذات دساتير ونظم خاصة ، ولم تكن تدفع لروما أي نوع من أنواع الضرائب ولكنها كانت ملتزمة بمساعدة روما العسكرية ، وتخضع لسياستها الخارجية . كما أن المدن الإغريقية ، في جنوب ايطاليا ، كانت معفاة من الخدمة العسكرية في الجيش الروماني ، لأنها كانت ملزمة أن تمد الأسطول الروماني بالسفن والملاحين . مما أطلق عليهم اسم الحلفاء البحريين (Socii navales) .

هكذا ، تجد مرونة السياسة الرومانية ، تتشكل مع كل ظروفها ، وتتأقلم ، بل وتتغير لتتلاءم مع كل موقف تفرضه عليها الأحداث والعلاقات مع الشعوب الأخرى التي خضعت لسيادتها وزعامتها .

وهكذا ، أيضاً ، بدأت روما تخطو خطوات واسعة وعملية نحو تنفيذ مخططاتها التوسعية تحقيقاً لاختيارها الصعب الذي فرضته على نفسها وعلى أجيال عدة ، من بعدها ..

فهل نجح التحدي الروماني خارج إيطاليا كذلك ؟

٢ - فتوحات روما خارج إيطاليا وتكوين الأمبراطورية الرومانية

أننا هنا - فى هذا المجال - لن نتناول بالشرح والتفصيل معارك روما وانتصاراتها الخارجية وسنكتفى بعرض سريع موجز لفتوحات تلك الدولة الفتية ، التى أثبتت مقدرتها على التصدى وتحقيق طموحات قادتها وسياستها فى تدمير أعظم قوى ذلك الزمان ، ألا وهى قرطاجة تلك المملكة التى كانت يوما ما حليفا لها ، ولكن سوء النية عند الرومان ، وحقدهم على نفوذ وثراء قرطاجة ، جعلهم يأخذون موقفا غريبا ، من حادثة صغيرة ، حول مدينة (Messana) فى صقلية ، وأصبحوا هم أعداء لقرطاجة مما فرض عليهم حروبا طويلة ، لم يفطن الرومان إلى خطورة أوزارها على مجتمعهم نظراً لسوء تقديرهم .

ويعلل الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد على[٢] هذا الموقف الغريب للرومان من حليف آخر ، هو الملك ، هيرون فى صقلية ، تعليلا مقنعا للغاية ، فيقول :

« أن نزعة النظام والطاعة فى الداخل ، لم تولد فى نفوس الرومان روح العدالة والشرف عندهم وعند تعاملهم مع الأجانب ، لأن نظرتهم العملية إلى الحياة ، وهى نظرة لا تتضمن العقل أو تهذيب الشعور ، لم تساعد على تنمية السلوك النبيل إلا مع بنى جلدتهم . وليس فى معنى كلمة فيرتوس (Virtus) التى تعبر عن واجبات المواطنين العملية ما يوحى بعرف التعامل خارج دائرة المواطنين ، فالمثل العليا تحتاج إلى شىء من الخيال لتجد لها مكانا فى الحياة العامة وكان الطابع الغالب على الدبلوماسية الرومانية هو " الالتواء) وسنلمس

(٢) روما - الجزء الأول - تاريخ الجمهورية والإمبراطورية الرومانية مكتبة النهضة المصرية ، ص ٩٩ .

دائما روح الشدة ، التى كثيرا ما تبلغ حد القسوة ، فى سلوك الرومان إزاء العدو والمغلوب .

لقد دخلت روما الحرب مع قرطاجة[٣] على ثلاثة مراحل :

١ – الحرب البونية[٤] الأولى (٢٤٦ – ٢٢١ ق . م)

٢ – الحرب البونية الثانية (٢١٨ – ٢٠١ ق . م)

٣ – الحرب البونية الثالثة (١٤١ – ١٤٦ ق . م)

وكانت قد حققت فى المرحلة الأولى السيادة البحرية على غرب إيطاليا وحول صقلية ونسمع خلالها قصة القائد الرومانى "Regulus" الذى كان قد وقع فى الأسرىين يدى القرطاجين وكيف أنه أوفى بوعده وشرف كلمته أثر قيامه بإقناع السناتوس بشروط قرطاجة وعاد فسلم نفسه أسيرا حيث لقى حتفه ، ضاربا المثل على الفداء والتضحية (devotio) فى سبيل وطنه وكرامته .

وفى المرحلة الثانية ، استطاعت روما أن تهزم قرطاجة فى موقعة (Zama) زاما بشمال أفريقية عام ٢٠٢ ق . م بعد سلسلة طويلة من تبادل

---

(٣) سميت تلك الحروب بالحروب البونية نسبة إلى التسمية اللاتينية لهذه الحرب (Bellum Punicum) التي اشتقت من الصفة (Punicus) وتعني قرطاجي ، أو « ذو لون أحمر أرجواني » .

(٤) ويذكرنا هذا بقصة المضيفة المصرية ، شادية التي كانت همزة وصل بين مختطفي الطائرة المصرية (بوينج ٧٣٧) في مطار ڤاليتا بمالطة في شهر نوفمبر الماضي سنة ١٩٨٥ ، وكيف أنها خرجت من الطائرة لتوصيل شروط المختطفين والتفاوض مع مسئولي المطار وعودتها بكامل ارادتها إلى الطائرة مرة ثانية بالرغم من أن ذلك كان يعني انهاء مصيرها وكان قدرها كذلك .

الهزائم والانتصارات بين قادتها وبين هانيبال(٥) القائد القرطاجى العظيم الذى أوقع بالجيش الرومانى أفدح الخسائر فى موقعة كناى (cannae) عام ٢١٦ ق . م تلك المعركة التى أصابت المجتمع الرومانى بالشلل والفزع التام ولفت سياسته بالحيرة وألبستهم رداء الشك والقلق على مصير دولتهم . فلجأوا وهم فى حالة الفزع " فزع دينى " إلى الآلهة لأرضائها ، لعلها تكشف عنهم تلك الغمة ، والكارثة العظيمة(٦) .

ولكن روما ، بزعامة السناتوس القوية الصارمة ، والهادئة كذلك ، استطاعت أن تضمد جراحها بأسرع ما يمكن ولم تمض شهور على أعظم خسارة حلت بها ، حتى كانت أمورها تسير سيرها الطبيعى ، وقد خلقت من الهزيمة نصرا جديدا ، على نفسها وعلى عدوها ، فحققت نصرا كبيرا فى موقعة ميتاوروس (Metaurus) على هاسدريال > أخى هانيبال ، الذى قتل فى الميدان ، عام ٢٠٧ ق . م ، وذلك بعد نجاح روما فى الزود عن نفسها ، وصد هجمات هانبيال نفسه عن أسوار المدينة فى عام ٢١١ ق . م .

أما فى المرحلة الثالثة ، فقد تمكنت روما من تدمير مدينة قرطاجة ذاتها وتم تحويلها إلى ولاية رومانية ، ضمن أملاك الشعب الرومانى أى (Provincia)

---

(٥) وتعني الفنيقي ذلك لأن قرطاجة (Carthago) كانت مستعمرة فينقية ، أنشئت في أوائل القرن ٥٩ ق.م. ولمزيد من المعلومات عن عبقرية هانيبال الحربية ، انظر بسام العسلي : هانيبال القرطاجي ، المؤسسة العربية بيروت ١٩٨٠ .

(٦) أقرب مثل لتلك الكارثة هي نكستنا نحن في عام ١٩٦٧ ، حيث فقدنا حوالي ٨٠ ٪ من أسلحة جيشنا وما يقرب من ١٠٠ الف من الجنود والضباط ما بين قتيل وجريح ومفقود وقد استعدنا ثقتنا بأنفسنا بعد ٦ سنوات وحققنا نصرا عسكريا غاليا على اسرائيل في ١٩٧٣ . لقد فقدت روما كذلك في عام ٢١٦ ق . م ، حوالي ٨٠,٠٠٠ (أو ٥٠,٠٠٠٠) جنديا رومانيا وبدت كأنها لن تقوم لها قائمة بعد ذلك .

فى عام ١٤٦ ق . م ، على يد القائد الرومانى العظيم سكيبو أيميليانوس Scipio Aemilianus الذى استولى عليها بعد حصار دام (١٥) شهرا ، وتم تدميرها تدميرا كاملا عام ١٣٣ ق . م .

أننا هنا فى هذا القسم من دراستنا عن الفتوحات الرومانية الخارجية لن نتعرض لموضوعاتنا تفصيلا ، ذلك لأن تلك التفاصيل والمعارك التى دارت بين القوات الرومانية وأعدائها ، لا يجب أن تلهينا عن الصورة العامة للشعب الرومانى ، والآثار التى ترتبت على هذه الصراعات الحربية ، الطويلة سواء سلبا أم أيجابا على الحياة الأجتماعية والأقتصادية من ناحية وعلى الحياة السياسية فى روما ، من ناحية أخرى ، وهذا فى حد ذاته هو الأتجاه الصحيح ، والحديث فى نفس الوقت ، لدراسة التاريخ بفروعه المختلفة .

ولكننا ، برغم ذلك ، وزيادة فى الفائدة ، سنعرض عرضا سريعا وموجزا للغاية ، فى تسلل تاريخى ، كلما أمكن ذلك للتوسعات الرومانية الخارجية ، حتى نتعرف على حجم المجهودات الضخمة التى بذلتها روما لتكوين أمبراطورية خارجية ، لقد دخلت روما ميدان الحرب فى أكثر من جبهة فى آن واحد ، مما فرض عليها أرسال الجيش فى كل أتجاه ، وزاد ، بالطبع من أعباء الدولة والمواطن الرومانى على الخصوص .

أولا : حققت القوات الرومانية ، بعد معارك كثيرة ، انتصارا غاليا على يوجورتا ، أمير مملكة نوميديا (الجزائر تقريبا) ، عقابا لها على انحيازها مع القرطاجنين ضد روما فى موقعة زاما عام ٢٠٢ ق . م ، فلم تنس لها روما ذلك ، ودخلت فى حروب مستمرة مع هذا الأقليم فى شمال غرب

أفريقيا إلى أن تم القضاء على يورجورتا[٧] آخر أعداء روما فى المملكة فى عام ١٠٤ ق . م ، بعد أن دوخ هذا الأمير ، الأفريقى القادة الرومان فى حرب عصابات ، والساسة الرومان ...... بأساليبه الملتوية ، فأوقعوه فى الأسر وزجوا به فى السجن حيث قتل وكانت مكافأة القائد الرومانى العظيم ، ماريوس بأن رشحه الشعب الرومانى بأصرار ، قنصلاً لعام ١٠٤ ق . م ، للمرة الثانية رغم تناقض ذلك مع الدستور الرومانى ، بل أنه ظل فيها لمدة ٥ سنوات متوالية (١٠٤ - ١٠١ ق . م) نظرا لثقة الشعب الرومانى فيه وفى قيادته ثقة مطلقة ، فضلا عن أنجازاته العسكرية والتفاف قادته العسكرين حوله وإيمانهم الشديد بزعامته لهم وولائهم له فى الوقت الذى ساءت فيه سمعة رجال السناتوس رشوتهم وهزيمة قوادهم فى أسبانيا وشمال إيطاليا أمام قوات القبائل الجرمانية الجائعة عام ١١٣ ق . م ، فكانت فرصة طيبة لظهور نجم ماريوس وتكوين جبهة شعبية ديمقراطية (Populares) بزعامته فى مقابل الحزب الأستقراطى (Optimates) الذى قلت هيبته وتزعزت أركانه .

ثانيا : كسر شوكة مملكة بنطوس (Pontus) على سواحل البحر الأسود وهزيمة مثراداتيس Mithradates ، الذى أثار متاعب جمة للإيطاليين والرومان المقيمين فى آسيا الصغرى ، عندما أعلن الحرب على روما منتهزا فرصة إنهماكها فى داخل إيطاليا مع جيرانها من القبائل الإيطالية المختلفة ،

---

(٧) بلغت جرأة يرجورتا حداً أنه دبر مؤامرة لخصم له في روما ذاتها لأنه كان ينافسه على عرش نوميديا ،لما كشف أمره أمرته الحكومة الرومانية بمغادرة روما والعودة إلى بلاده ، عندئذ قال قولته المشهورة عن مدينة روما عام ١١١ ق . م .

Sallustius, Bellum Iugurthinum, XXXV, I0: « مدينة للبيع توشك أن تزول بسرعة ، إذا وجدت من يشتريها "Urbem venalem et mature peviturum si emptorem invenerit" .

وقد زاد من قوة هذا الملك (اليونانى) تحالف كثير من المدن الإغريقية فى آسيا الصغرى معه ومناشدة الشعب الأثينى نفسه ، فى عام ٨٨ ق . م لذلك الملك أن يخلص أثينا من حكومة الأقلية الموالية لروما . ولكن سوللا (Sulla) ، القائد الرومانى الكبير ، استطاع أن يحاصر مثراداتيس ، وبمساعدة قواده الآخرين ، ويهزمه في البر والبحر مما أجبره على عرض الصلح الذى تم وفقا للشروط الرومانية ، فى سنة ٨٥ ق . م .

ولكن مثراداتيس لم يهدأ ولم ينس أحلامه الماضية التى أجبر على (التخلى عنها) ، ولكن إلى حين لأنه عاد إلى مسرح الأحداث ، ومعه هذه المرة قراصنة من كيليكيا (Cilicia) شمال شرق البحر المتوسط وكانوا قد أعتادوا أن يغيروا على السفن التجارية الرومانية ، بل على سواحل إيطاليا نفسها ، يخطفون الأهالى ويبيعونهم فى أسواق الرقيق ، فأراد السناتوس أن يوقف هذا العبث بمصير الرومان الإيطاليين ، فأوفد حملة ضد هؤلاء فى عام ٧٧ - ٧٥ ق . م ، ولكنها لم تنجز مهمتها كاملة .

ولما آلت مملكة بيثينيا (Bithynia) إلى الرومان بناء على وصية ملكها عام ٧٥ ق . م ، وتحولت إلى ولاية رومانية خاف ميثراداتيس على مملكته التى تقع فى شمال تلك المملكة ، من الحصار الرومانى له فى بحر الدردنيل (Helles Pontus) والبسفور (Bosporus) وحرض ابن ملك بيثينيا ضد الرومان ، ولكن الرومان أوفدوا للأثنين أكثر من جيش ، كان أحد قواده يحمل سلطة حربية مطلقة (Imperium Infinitum) فى البحر المتوسط للقضاء على القراصنة في أي مكان فيه . وحقق الرومان نصرا أكيداً هذه المرة عاد ذلك الملك المشاغب فى عام ٧٢ ق . م ، وفر الملك تاركا مملكته للرومان ولجأ إلى أرمينيا .

ثالثا : الحملة فى الشرق بقيادة بومبى :

(أ) الحملة وأهدافها : كان الهدف منها أساسا هو القضاء النهائى على قراصنة البحر المتوسط ولاسيما فى كيليكيا ، وبالرغم من أن روما كانت قد جردت عليهم حملات وجيوشا فى ١٠٢ ، ٧٧ ، ٧٤ ق . م ، إلا أنها جميعا لم تقض على أولئك قضاء مبرما وكان القراصنة قد خربوا ميناء ديلوس اليونانى (Delos) فى منتصف البحر الإيجى - فى عام ٦٩ ق . م ، وأغاروا على الموانى الإيطالية مثل برنديزى (Brindisi) كما قطعوا الطرق التجارية البحرية التى تنقل خلالها السفن القمح والغلال إلى روما ، ولهذا كان حتميا ضرورة القضاء التام على هؤلاء فى قاعدتهم الجديدة فى جزيرة كريت وخرجت اليهم حملة رومانية فى عام ٦٨ ق . م ، ولكنها للمرة الرابعة لم تسكت أوكارهم ، فكان من المستحيل تجاهل خطرهم المتزايد يوما بعد يوم .

هنا فقط تقرر إيفاد بومبى ، عام ٦٧ ق . م ، قائدا عاما على رأس جيش كبير ، يتألف من ٥٠٠ سفينة وحوالى ١٠,٠٠٠ مقاتل ومتمتعا بسلطة حربية مطلقة (Imperium Infinitum) لمدة تستمر ٣ سنوات ، ويحق لصاحبها ترشيح ١٥ - ٢٤ ضابطا مساعدا (legati) وكل هذه السلطة والصلاحيات توضح بجلاء أهمية المأمورية الموكلة إلى القائد العام بومبى . كما ساعد الحظ بومبى كذلك عندما صدر قانون مانيلوس (Manilius) ، أحد الترابنة (نقباء العامة) فى عام ٦٦ ق . م ، بإسناد حكم ولايتى بيثينيا وكيليكيا وقيادة الحرب فى أسيا الصغرى كذلك ضد مثراداتيس وحليفه تجرانيس إلى

بومبى[٨] هكذا أصبح فى يد بومبى سلطة عسكرية ليس لها مثيل فى التاريخ الرومانى ، كما أن تلك القيادة فى الشرق تركت آثارا كبيرة ، تعتبر بحق تحول من الدستور الجمهورى إلى الدستور الأمبراطورى .

نجح بومبى ، أخيرا ، فى القضاء على مثراداتيس عام ٦٦ ق.م ، وعلى تجرانيس فى أرمينيا وفى ٦٥ ق.م ، قضى هذا العام فى أخضاع الألبانيين حول بحر قزوين (caspium mare) كما استولى على دمشق (Damascus) فى سوريا ، وعاد إلى آسيا الصغرى عام ٦٤ ق.م ، فأعاد تنظيم شئونها ، واتجه مرة ثانية إلى سوريا عام ٦٣ ق.م ، لأعادة الأمن إلى أرجائها وواصل سيره حتى مملكة يهوذا (Iudaea) فى فلسطين وأستولى على أورشليم مع نهاية عام ٦٣ ق.م ، وكان ذلك بداية للصراع الطويل بين روما واليهود في فلسطين . وعاد بومبي في ٦٢ ق.م. إلى آسيا الصغرى فنظم شئون شرقها وشمالها . وكانت له أساليبه في إدارة الممالك الجديدة التي فتحها :

أ - أدمج بعض الولايات الجديدة مثل سوريا وكريت إلى أملاك الأمبراطورية الرومانية ، وذلك لاعتبارات أمنية عسكرية .

ب - وأنتهج السياسة الرومانية التقليدية فترك الأدارة فى أيدى أمراء وقواد البلاد الأصليين التابعين لروما .

جـ - وضع الولايات الجديدة والقديمة على السواء دساتور خاصة بها ، وظلت هذه الدساتير تحمل اسمه فى بيثينيا مثلا ، حتى أوائل القرن الثامن الميلادى .

---

(٨) وكان هذا هو الاقتراح الذي أيده شيشيرون (Cicero) في خطبته المعروفة باسم "Pro lege Manilia" او "De Imperio cn. Pompet" وقد القي شيشيرون ، الفيلسوف الروماني الكبير ، تلك الخطبة على المواطنين الرومان في أجتماع شعبي عام ، وذلك تعضيدا لبومبي ولصداقته له .

د - شجع الحياة المدنية فى منطقة الشرق الأدنى ، فأنشأ حوالى ٣٩ مدينة فى آسيا الصغرى وسوريا ، وتجميع السكان من القرى للحياة فى تلك المدن .

هـ - فرض على معظم المدن الضريبة بما يعادل (عشر) محصول الأرض التى فى زمامها (decuma) وكانت نفس القيمة الموجودة قديما ، أما الملوك والأمراء وكبار كهنة البلاد الواقعة على الجانب الغربى من الفرات فقرض عليهم جزية سنوية معينة (Stipendium) .

ب - آثار يومبى على الشرق :

١ - زيادة كبيرة فى ثروات روما ، فقد وزع - بعد أنهاء حروبه - على جنوده ما يعادل (٢) ملايين جنية ونصف ، ثم أودع حوالى (٤) ملايين أخرى فى الخزانة العامة لروما .

٢ - تضاعف دخل روما السنوى من الجزية .

٣ - تمتعت شعوب المنطقة - فى الشرق الأدنى - بسلام لم تشهده منذ سقوط الأمبراطورية الفارسية .

٤ - تطهرت البحار من القراصنة وتخلصت سوريا من الفوضى .

٥ - زيادة هيبة روما فى الشرق .

٦ - يسر انتشار الحضارة الهيللينية بأنشاء مدن حرة وأعطائهم الحكم الذاتى فى الشرق .

وبعد عودة بومبى إلى روما وتسريح جيشه عام ٦٢ ق . م ، رأى أن ينهى مهمته نهاية موفقة ، فتقدم إلى السناتو بطلبين أثنين :

أولهمـا : أن يصـدق السناتوس على قـراراته الأدارية وتنظيمـاته التى أتمها فى الشرق .

ثانيـهمـا : أن يعطى لحـوالى ٤٠,٠٠٠ جندى رومـانـى من المسـرحين اراضى زراعية .

وفوجئ بومبى بحقد السناتوس عليه ، ورفضـه لمطالبه وقـيام جبـهة معارضة فى السناتوس على رأسـها لوكيوس وكاتو وكراسوس ، كما - أن المجلس أيضا رفض بعض اقتراحات كراسوسى فيما بعد حوالى ٦٠ ق.م ، وعندما عاد قيصر (يوليوس قيصر) من أسبانيا فى يونيو عام ٦٠ ق.م ، ولم يجبه السناتو كذلك إلى طلبه بدخول روما (دخول المنتصر القائد من الفتوحات الكبيرة فى أسبانيا ، ولم يقبل ترشيحه قنصلا لعام ٥٩ ق . م ، سـاءت علاقـات - كل هؤلاء القـادة بمجلس الشيـوخ . كـون هؤلاء الثـلاثة هم كراسوس وبومبى وقـيصـر " الائتلاف الثـلاثى (Triumviri) ونجح قـيصـر فى تولى منصب القنصليـة عـام ٥٩ ق.م ، بمسـاعـدة زمـيليـه ، وبدأ هو فى أرضائهما وتوطدت العلاقات بينهم أكثر فتزوج بومبى جوليا (يوليا Iulia) ابنة قيصر ، ولكنهم لم يستريحوا حتى انتقموا من أعدائهم وبصفة خاصة شيـشيـرون وكـاتـو اللذان أيدا السـناتوس فى كل خطواته ضـد هؤلاء القـادة الثلاثة فتم نفى شيشيرون إلى خارج البلاد ، وتخلصوا من كاتو بارساله إلى قبرص فى مهمة ظاهرها مصلحة روما ، وباطنها إبعاده عن روما لأكبر مدة ممكنة .

رابعا : فتح بلاد الغال (فرنسا) .

ضم الرومـان " غالة البعيدة " إلى أملاكـهم فى عام ١٢١ ق . م ، وقد وقـفـوا إلى جـانب بعض القبـائل هناك وأيدوها فـأحـرزت النصـر على بقـية

قبائل ولكن لم يدم ذلك طويلا ، فتبادلت الزعامة بعض هذه القبائل ولم تستقر الحال أبدا فى تلك المناطق الشمالية .

وعندما استنجدت أحداها بقيصر ، خرج على رأس فرق رومانية وحقق النصر على الهلفيتى[٩] ولكنه لم يحقق عليهم نصرا نهائيا وفى عام ٥٨ ق.م ، أستطاع أن يهزم الجرمان هزيمة ساحقة .

خامسا : ضم البلجيك إلى حظيرة روما :

وفى ربيع ٥٧ ق . م ، أستطاع قيصر كذلك - بعد تعزيز قواته بفرقتين جديدتين - أن يهزم قبائلهم وفى مقدمتها قبيلة Nervii وأرغمهم على الاستسلام ، وباع رجالها فى سوق الرقيق . إلا أنه عاد فى عام ٥٦ ق . م ، وأدب قبيلة Veneti التى تزعمت الثورة ضد الرومان وسحق مقاومة قبائل نورماندى ، ثم دخل مع الـ (Veneti) فى معركة فاصلة فى المحيط الأطلسى ، حطم فيها سفنهم وأسر بعضهم وقتل زعمائهم وباع بقية السكان فى سوق الرقيق .

سادسا : غزو ألمانيا وبريطانيا :

وقف قيصر فى عام ٥٥ ق . م ، موقفا يقظا من تحركات القبائل الجرمانية صوب الغرب ، وعندما تأهب لملاقاتهم عرضوا عقد هدنة ولكنهم خرقوها هم أنفسهم ، فلم يقبل منهم قيصر أى أعتذار وأسر زعمائهم وشتت شمل جماعتهم ، بل وأباد منهم بوحشية عددا كبيرا[١٠] .

---

(٩) عن بقية القبائل ، راجع . Caesar, Bellum Gallicum, 1, 29

(١٠) يقدم قيصر تبريراته لهذا الفعل الذي انتقده عليه بشدة كاتو الأصغر ولكن السناتوس احتفل بذلك النصر عشرين يوما Bell. Gall. IV 4-13 .

وفى عام ٥٤ ق . م ، عبر قيصر مضيق دوفر (Dover) والتقى بالقوات المعادية ، فى بريطانيا ، والتى كان يتزعمها زعماء كنت (Cint) قد أعدوها ، فانتصر عليهم ، بالقرب من كنتربرى كما تمكن من أخضاع ملك المنطقة الواقعة شمال نهر التيمز ، وفرض عليه شروطه ودفع الجزية للرومان .

سابعا : ضم مصر إلى أملاك الشعب الرومانى :

أما ضم مصر إلى الدولة الرومانية فانه تأخر قليلا وأن كانت روما قد جعلت من نفسها وصية على الحكام البطالمة منذ بداية القرن الثانى ق . م ، .... ولكنها تدخلت صراحة وأعلنت وصياتها عليها أمام العالم القديم ، عندما أرسلت أعظم قادتها فى عام ١٦٨ ق . م ، وهو پوپليوس لايناس (P . Laenas) وكيف أذل هذا القائد الرومانى الملك السورى (المقدوني) الذى جاء طامعا فى مصر وخيراتها ، فما كان إلا أن أرسلت روما له تخبره بوجودها وأنها هى صاحبة النفوذ الحقيقى فى تلك المنطقة من العالم ، وأن لم تكن قد ضمتها فعلا إلى حظيرة ممتلكاتها الخارجية .

وظلت روما تراقب عن كثب الصراعات الأسرية على العرش البطلمى حتى أوصى يوإرجيتيس الثانى ببرقة إلى الشعب الرومانى عام ١٥٥ ق . م ، نكاية فى أخيه فيلوميتور ملك مصر ، وجاء من بعده ابنه عام ٩٦ ق . م ، فلم تترك روما فرصة هذه الوصاية ، هذه المرة ، وهكذا تكون قد اقتطعت جزءا من أملاك مصر الخارجية ودونما حرب أو أى مجهود من جانبها .

أنه لولا انشغال روما بحروبها الخارجية من ناحية ، وبمشاكلها الداخلية ومحاربة الإيطاليين من ناحية أخرى لكانت قد أستولت هلى مصر منذ وقت بعيد ، أى قبل عام ٣٠ ق . م ، بوقت طويل .

لقد كانت الحرب الأهلية الإيطالية ، بين زعماء الرومان وقادتهم المشهورين أمثال بومبى وكراسوس وقيصر من أهم عوامل تأجيل قرار البت فى المسألة المصرية ، وبالتالى دخول الرومان مصر ودخول الفاتحين ، كما حدث فى ٣٠ ق . م .

لقد وصل الأمر بقيصر ، فى عام ٤٨ ق . م ، وبعد أنتهاء معركة فارسالوس بينه وبين بومبى ، أن نظر إلى ساحة المعركة مليئة بالقتلى من اعدائه قائلا[11] .

" لقد أرادوا ذلك . ولو لم استعن بالجيش عليهم ، لقضوا على أنا نفسى بالموت ، برغم ما قمت به من أعمال جليلة " .

حقا لقد فرض القتال على قيصر ولم يكن أمامه خيار ازاء تكتل الأرستقراطين ومعهم حليفة القديم ، بومبى ، كما حاول قيصر جاهدا أن يتفاوض معهم ولكنهم كانوا قد أعدوا العدة للقائه .... وكان النصر حليف قيصر فى النهاية ، فأصبح دكتاتور إيطاليا كلها وواصل تعقب بومبى حتى وجده فى مصر مقتولا على أيدى أحد الضباط الرومان المأجورين لصالح الملك البطلمى الصغير ، بطليموس (١٣) أثناء صراعه مع اخته كليوباتره السابعة على العرش ، فما كان منه ، وهو القائد الرومانى الكبير . إلا أن حزن .. أشد الحزن على غريمه السياسى « وأن كان ذلك الصراع قد أخذ شكل الأقتتال والحرب .

وشاءت الأقدار أن يعاصر قيصر فى مصر الصراع داخل البيت البطلمى الواحد ، ويحاول التوفيق بين الأخ وأخته ، ولكن تندلع الحرب

(11) Suet. Div. IuL. 30: "Hoc voluerunt, tantis rebus gestis Gaius Caesar condemnatus essem misi abexerceitu auxilium petissem"

المشهورة بأسم حرب الاسكندرية : (Bellum Alexandri num) ويتحرج موقف قيصر فى الاسكندرية ، ويموت الملك البطمى الصغير غرقا وتحدث خسائر كبيرة فى قوات قيصر نفسه كما تتدمر دار العلم (Museum) والمكتبة (Bibiothēkē) والمسرح ومدافن الأسرة المالكة[١٢] .

وأنتهت معارك (المعارك) واستسلم الأسكندريون بعد أن أبلوا بلاء حسنا إلى جانب قوات الملك البطلمى الصغير ، وسار قيصر الاسكندرية هو المنتصر ، وقد صفح عن أهلها ، ونقل إلى سبب البلاء الكبير ، كليوباترة تلك نبأ وفاة أخيها ، وأرسل أختها العنيدة أرسينوي إلى روما لتلقى جزاء عدواتها للرومان .

لاستكمال مشوار الدولة الرومانية وبداية عهد الأمبراطورية على يد أوغسطس (أوكتافيانوس) فى ٢٧ ق . م ، (بعد أن قضى على غريمة أنطونيوس) فى موقعة أكتيوم البحرية ٣١ ق . م ،. وأنتحار كليوباترة فى الأسكندرية ودخول مصر حظيرة الأمبراطورية الرومانية) أنظر الملاحق .

---

(١٢) بل ربما كان موجودا كذلك قبر الاسكندر (sēma) لانه لم يتم العثور عليه حتي الآن في نفس ذلك الحي الملكي الذي يتاخم الميناء الكبير الشرقي . يقدر عدد لفائف البردي التي أحترقت حوالي ٤٠,٠٠٠ (Biblia) كانت مودعة بالمكتبة لتصديرها إلى الخارج ، بالاضافة إلى ما كان موجودا بالفعل ، ويقدر بحوالي ٧٠,٠٠٠ مخطوطاً.إن موضوع قبر الاسكندر الأكبر ، هو من أكثر القضايا الأثرية القديمة حيرة للعلماء والباحثين . حول أحدث النظريات ، راجع د. محمد عادل عبد العزيز : قبر الاسكندر الأكبر أقدم مساجد الاسكندرية ، القاهرة ١٩٩٠ . ولكننا نحتفظ بحق الرد - كمتخصصين - على هذه النظرية ، وسيكون ذلك - إن شاء الله - في شهر مارس القادم (٢-٤ مارس ١٩٩١م) بالاسكندرية ، في ندوة قسم الحضارة والآثار اليونانية - الرومانية ، بعنوان : « قبر الاسكندر : إحتمالات موقعه وشكله ، دراسة في المصادر اليونانية » .

الباب الثالث

المجتمع الروماني في العصر الجمهوري

الفصل الأول

الحياة الأقتصادية والثقافية

أولا : الزراعة :

ظل المجتمع الرومانى كما كان مجتمع زراعيا أولا وأخيرا وقد ساعدت فتوحاتهم خارج حدود مدينة روما ومنهم الأقاليم الأخرى فى إيطاليا على زيادة رقعة المساحة العامة للأراضى (AGER PUPLICUS) والتى كانت الدولة تملكها ، ثم تزرعها فى صورة أقطاعيات مثلا ، بالإيجار لكن الأشراف بما لديهم من نفوذ وثراء كانوا يعتبرون ما يؤجرون من أراضى الدولة ضمن ملكياتهم وحيازتهم (possessio) وقد استغل المواطنون الرومان (Romani) أو اللاتين (Latini) عند أقامة مستعمرات (ccloniae) عسكرية رومانية أو لاتينية المساحات التى كانت تخصص للأستغلال العام وكانوا يزرعونها بالمحاصيل التى تلائم الأقليم كما كان الشائع كذلك ولا سيما فى حالات المستعمرات القريبة أن توزع مساحات من الأرض على المواطنين الرومان واللاتيين الذين يرغبون فى الأستيطان بهذه المستعمرات الجديدة ، عندئذ تصبح هذه الأرض ملكا وذلك تشجيعا لهم على البقاء والأستقرار في هذه المستعمرات المدنية والطريف حقا هو أن الأشراف (Patricii) كانوا يحثون العامة على أمتلاك هذا النوع من الأراضى حتى يتمكنوا من التخلص من العناصر المشاغبة داخل مجتمع روما .

ثانيا : التجارة والحرف :

ولهذا كان المجتمع الرومانى ، فى النصف الأول من عصر الجمهورية

وما تلاه لا يستدعى أصحاب الحرف أو التجارة لأداء الخدمة العسكرية ولا يتم مثل هذا الأستدعاء إلا عند الضرورة القصوى ، مع مراعاة عدم الأعتماد عليهم فى فرق الجيش الرئيسية من مشاة (cohortes) أو فرسان (equites) وهذا يعنى كيف كان الرومان .... ينظرون إلى المهن الأخرى - خلاف الزراعة - باعتبارها مهن أقل شرفاً .

وكانت تارنتوم (Tarentum) من أهم المراكز التجارية فى إيطاليا القديمة ويبدو أن الحرب قد أثرت تأثيرا سلبيا واضحا على عمليات التبادل التجارى بين المدن الرومانية بعضها البعض وبين تلك المدن والعالم الخارجى فلم تسفر الحفائر عن إلا عن أعداد قليلة للغاية من الآنية اليونانية التى تؤرخ بالقرنين الخامس والرابع ق . م .

وخير دليل على عدم أهتمام روما القديمة بالتجارة ، هى بنود الأتفاقية التى كانت روما قد عقدتها مع قرطاجة حيث سمحت بمقتضاها لهذه المدينة الفينقية أن تحتكر تجارة غرب البحر المتوسط ، فضلا عن تكاسلهم فى إيجاد عملة نقدية للتعامل التجارى بدلا من المقايضة التى تعطل العمليات والنشاط التجارى هذا بالرغم من معرفتهم وممارستهم لنوع من القواعد الموحدة لتقدير قيمة الأشياء وكانت كلمة (pecunia) التى هى مشتقة من كلمة (pecus) وتعنى (قطيع) ، (بمثابة الرمز عن النقود) للدليل على تقدير ثمن الأشياء بما تساويه من ماشية وأغنام .

فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، بدأ الرومان فى أستخدام كتلة من البرونز (aes rude) غير مسكوكة ، زنة كل منها رطل أو (١٢) أوقية ، فى النصف الثانى من نفس القرن ، صدر قانون يقضى باعتبار الثور الواحد أو عشر أغنام تساوى عشرة أرطال (asses) من البرونز .

وفى عام ٢٨٩ ق . م ، صدر قرار بضرورة أستخدام العملة ، وتكوين لجنة ثلاثية تشرف على دارسك هذه العملة ، سموا بـ Triumviri monetales وكانت أول عمل لهم هو إصدار سبائك مختومة (aes signatus) تزن كل وحدة منها حوالى ٦ أرطال وهذا يعنى أول أنتاج لتلك الدار لم يكن نقود بل مجرد عملات . الحقيقة أن أول أنتاج (أول نقود سكتها روما كانت فى عام ٢٦٨ ق . م ، بين فئتين فئة الدراخمة الواحدة وفئة ذات دراخمتين وكانتا مصنوعتان من الفضة وعلى النسق الإغريقى ويرجح أن تكون تقليدا للعملة البطلمية ، الذهبية ، التى كان بطلميوس فيلادلفوس قد سكها بمناسبة تخليد ذكرى زوجته وأخته أرسينوى فى ٢٧٠ ق . م ، واضعين فى الأعتبار السفارة المتبادلة بين مصر وروما حوالى عام ٢٧٣ ق . م ، وتجدر الأشارة إلى وجود نوع آخر من النقود ، ولكن من البرونز وتسمى عملته بالآس (as) .

وفى عام ١٨٧ ق . م ، حدث أن تغير النقد الرومانى فأصبح علي أساس الفضة فظهرت النقود الفضية الجديدة " الدينار " (Denarius) وعملة أصغر من الدينار قليلا هى " السيسترتيوس " (Sestertius) .

٢ - الحياة الاجتماعية

سبق أن تكلمنا عن الأسرة وتكوينها وعلاقات الأفراد داخلها ولكننا لم ندخل فى تفاصيل كثيرة عن نظام حياتهم الإجتماعى ، الذى كان من أبرزه ما يلى من مظاهر :

(١) الزواج : هناك منه ثلاثة أنواع :

ففى الأول : تنتقل العصمة للزوج بعد الزواج ، ويصبح هو صاحب السلطة عليها : Conventio in manus وتلازمه مجموعة أشياء :

١ - حفل دينى .

٢ - حضور (١٠) شهود وأحد كبار المعبد ليبارك الزواج بتلاوة عبارات مقدسة (Solemnia verba) وكان هذا النوع منتشرا بين الأشراف (patricii) ويعتبر من أقدم أنواع الزواج الروماني .

أما النوع الثانى : فكانت سلطة الزوج تتحقق على الزوجة ، عقب توقيع صفقة بيع صورية (Coemptio) وهذا نوع قديم ذلك ولكنه أنتشر بين أوساط الطبقات الشعبية (Plebs) وكان لا يلزم اتمامه إلا حضور (٥) شهود . كما لا يلزم أى طرف بأقامة احتفال ديني من أى نوع .

والنوع الأخير (الثالث) : يعتبر أبسطها جميعا ، ويقوم أساساً على أتفاق الزوجين على أن يعاشر كل منهما الآخر ، فى ضوء حقوق تساوية للطرفين ، كما كان الزوج يمكنة ممارسة سلطته (manus) على ـته ، إذا عاشرته معاشرة زوجية متصلة (ouas) لمدة عام كامل ، دون ـطاع ، حتى ولو لمدة (٣) ليالى خارج منزل الزوجية .

وكان الحد الأدنى في هذه الزيجات اسلنه ، هو الرابعة عشرة للرجال والثانية عشرة للأناث ، وهنا تجدر الأشارة إلى أن الزواج لم يكن له قاضى خاص للأحوال الشخصية . ينظمه ، بل كان مسألة شخصية بحته ، شأنه فى ذلك شأن الحفلات التى كانت تصحبه فى النوع الأول منه ، وكذلك الطلاق الذى كان يسيرا ولكنه كان نادرا لشدة حرص الشعب الرومانى على تحقيق الوفاق العائلى وكيان الأسرة وكما هو الحال عادة فى الأسر الريفية فى كل مكان من العالم ، قديمة وحديثه على السواء .

وعندما نتناول دور الفرد فى الأسرة ، فنجد أسمه يرتبط بأسم العشيرة (gens) وأسم الأسرة (cognomen) مثل :

Publius Cornelius Scipio.
1 2 3.

فباللاتينية :

Praenomen nomen Cognomen.

وبالأنجليزية :

Forename Name Surname.

أى أن أسم الشخص نفسه هو : پوبليوس .

وأسم العشيرة هو : كورنيليوس .

وأسم أسرته (لقبه) هو : سكيپيو .

وكانت لكل عشيرة طقوسها الدينية الخاصة بها Sacra gentilica لتكريم وأرضاء الآلهة التى تحميها ، كما كان هناك مجلس لكل عشيرة ، يتكون من آباء الأسر فيها ، للفصل بين المنازعات ودراسة أحوال العشيرة ، أما الأتباع فى كل أسرة فكانوا يعتبرون أتباع لكل العشيرة تضمن حمايتهم وتربطهم بها علاقات متينة .

كان نظام العشائر – فى العهد الملنى – قاصرا على الأشراف ، ولكن النظام الجمهورى ، وبفضل كفاح العامة ، أوجد هذا النظام بين أسر عامة الشعب ، الأكثر ثراء ، ولما حصل تقارب بين أولئك وهؤلاء ، خلقت الأوضاع الجديدة وإلتقاء المصالح بين الفئتين طبقة جديدة تماما ، هى طبقة أرستقراطية من نوع جديد مما أثر على شكل السناتوس ، والعديد من الوظائف العامة .

(ب) الدين :

كانت واضحة تماما فى عبادة الأسرة الرومانية لمجموعة من الآلهة الرومانية الخالصة فى العصر الملكى ، ولكنه بمقدم العصر الجمهورى دخل عدد من الآلهة اليونانية إلى عالم المعبودات الرومانية ، عندما دخلت عبادة الـ Dioscuri فى عام ٤٨٤ ق . م[١] .

وفى عام ٢٩٣ ق . م ، بسبب تفشى الطاعون فى روما ، استقدم الرومان الإله الإغريقي اسكليبيوس (Asclepius) كما ازداد أهتمامهم بالموافقة على دراسة علم النبوءة على أسس التعاليم الإتروسكية (disciplina Etrusca) .

ولما كان الرومان (الرومانى) مادى بطبعه ولا يعرف للخيال مكانا فى عقله فإنه يتضرع إلى الآلهة أن تمنحو خيرا ماديا وليس معنوياً وذكر د / إبراهيم نصحى ثلاثة أسباب لتمكن الدين وسيطرته على العقلية الرومانية[٢] وهى :

(١) انظر المؤرخ اللاتيني ليفيوس : . Liv., II, 20, 12: 42,5

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٢٢٥ – ٢٢٦

١ - دور الدين فى تحقيق المودة بين أفراد الأسرة والدولة كذلك .

٢ - الإيمان العميق بقدرة الآلهة على تحقيق الخير لكل من يرضيها بالطريقة السليمة والطقوس الصحيحة .

٣ - الجرى على سنن الآباء (mos maiorum) والتمسك بها .

جـ - القانون :

من أهم ما خلفته العقلية الرومانية فى تاريخها كله هو مجموعة القوانين الوضعية التى كانت تصدر تباعا لسد الفجوات ، بين فترة وأخرى وذلك لضمان تحقيق الصالح العام ، ودرءا لاستغلال فئة لفئة ولضمان حسن سير العلاقات البشرية والجماعات الأنسانية .

لقد كانت قوانين الألواح الأثنى عشر ، قوانين أساسية للدولة الرومانية فى النصف الأول من عصر الجمهورية ، وتدل دلالة واضحة على ذلك الحس الخاص الذى تمتعت به تلك العقلية ، الحماية المادية ، فى مجال القانون الخاص فهى مثلا فصلت فصلا تماما بين الدين والقانون واستبدلت بنظام الثأر تعويضات كان يجب على الجانى دفعها لأهل المجنى عليه .

وتعزيزا لحق المواطن الرومانى أزاء الأحكام الصادرة صدر فى عام ٣٠٠ ق . م ، تشريع يعطى المواطن الحق فى استئناف كل الأحكام حتى لو كانت صادرة عن أى حاكم رومانى وقد سبق ذلك - على سبيل المثال لا الحصر قانون ٣١٢ ق . م ، الذى قضى على عادة رهن شخص المدين وأستعباد المواطنين الرومان العاجزين عن دفع ديونهم .

د - الفن :

الروماني ، بطبعه ، ميال إلى البساطة ، وتوفير سبل العيش السروية دون اللجوء إلى الكماليات إلا في فترات الإزدهار الحضاري العظيم ، في العصر الامبراطوري عندما قاءت عليهم مستعمراتهم الخارجية والولايات الأجنبية من خيرها الكثير . وهكذا اهتم الروماني إهتماماً خاصاً في النصف الأول من العصر الجمهوري - بإنشاء الضروريات فقط ، مثل معابد الآلهة وأسرار مدينة روما وغيرها ، ووصف طرقها وشوارها وحفر القنوات .

وفي النحت - في نفس الفترة ، كان الإهتمام قاصراً على عمل تماثيل للآلهة المعبودة داخل المعابد ، وكانت تصنع من الطين أو الأحجار ، ومنذ أواخر القرن (٤) ق.م. تم عمل تماثيل تذكارية لتخليد كل من قدم خدمات جليلة لبلاده في السوق العامة ، أمام المعبد ، كما حدث لقنصلي عام ٣٣٨ ق.م.

وتجدر الإشارة إلى أن صانعي تلك التماثيل - حتى في نهاية القرن الرابع وأوائل الثالث ، لم يكونوا من الرومان بل من الأتروسكيين والإغريق الذين فرضوا وجودهم الفني في القرن الثالث ق . م ، ولم يكن هناك وجود للفن الروماني الحقيقي فيما عدا فن التصوير الشخصي (Portraits) قبل القرن الأخير من عهد الجمهورية ، تقليداً لنماذج الأقنعة في الفن الاتروسكي .

وفي ميدان التصوير الجداري ، بالألوان ، فليست لدينا أكثر من مناظر حربية تقليدية صورت دون عناية كبيرة على جدران مقبرة في صخور تل اسكويلينوس (Esquilinus) والتي تؤرخ بالقرن الرابع ق.م.

وحقيقة الأمر أن المستوى الفني التصويري عند الرومان في القرن الرابع ق . م لم يصل بل لم يحاكى الفنون الأخرى وكان دونها الكثير وهذا ما تدل عليه نماذج الصور على النقود الرومانية ، التي صكت في عام ٢٦٨ ق . م وما بعدها .

أما عن المساكن : وكانت تعكس الوضع الإجتماعي لأصحابها فمساكن الريف عبارة عن أكواخ من البوص المغطى بطبقة من الطين – وما أشبهها بمساكن ريف الصعيد عندنا اليوم وبصفة خاصة ، أكواخ الطبقة الدنيا من أهل القرية المصرية ولكن بعض المساكن الأخرى ، ولا سيما في روما فكانت عبارة عن غرفة واحدة أو غرفتين ، احداهما أما خلف الأخرى أو فوقها كدور ثاني . وكان صاحب أي حرفة يتخذ من الغرفة الأولى أو السفلى مكاناً لحرفته أو تجارته . وعادة ما كانت هذه المساكن تبنى من الطوب اللبن والأخشاب .

وكانت المعابد قليلة ، فقد استكمل بناء معبد الثلوث المقدس (چوبيتر : Jupiter) وچونو : Juno ومنيرڤا : Minerva بداية عصر الجمهورية كما أنشئت أربعة معابد احداها عام ٤٩٥ ق . م للآله مركوريوس (Mercurius) اله التجارة والتجار ورسول الآلهة وآخر للآله أبولو Apollo عام ٤٣١ ق.م.

أما القرن الرابع ، فلا نعرف – بشكل عام – شيئاً عن إقامة أي معابد تؤرخ بهذا القرن بينما في بدايات القرن الثالث ، حوالي ٢٤٠ ق . م . اقيم معبد للآلة اسكولابيوس Asculapius .

والدارس لعمارة تلك المعابد يستطيع أن يتبين فروقاً كبيرة بينها وبين المعابد اليونانية من حيث :

أ - إرتفاع قاعدة المعابد الرومانية عن مثيلتها في العمارة اليونانية .

ب - بروز تلك القاعدة عن بهو قاعة تمثال الآله (Sékos) .

جـ - إختلاف طرز الأعمدة .

د - عدم وجود بهو الأعمدة الخارجي (Peristylio) .

كما هو في العمارة اليونانية والذي يحيط بالمعبد .

وأخيراً ، فقد كانت المنشآت العامة ، في النصف الأول من عهد الجمهورية ، قليلة ومنها .

١ - بناء سور حول روما عقب غزوة الغال في ٣٩٠ ق . م .

٢ - إنشاء طريقين هما :

أ - طريق لاتيوم (Via Latina) .

ب - طريق أبيوس (Via Appia) .

٣ - إنشاء قناتين لتوفير حاجة روما من المياه الصالحة ، وهما قناة أنيو فتوس (Anio Vetus) وقناة أبيوس كلاوديوس (Appius Claudivs) .

٤ - رصف شوارع روما الرئيسية بالأحجار وإنشاء مجاري فيها وجدير بالإشارة إلى أن منطقة المعبد (Templum) وكان يوجد بها سوق مكان فسيح Forum حيث تجتمع في جزء منه جمعية الكورياي Curiae والجمعية القبلية comitia cariata et comitia tributa في مواجهة المنصبة (Rostra) الرئيسية ، التي بنيت خصيصاً ليتحدث فوقها الحكام والأمراء ، أما جزء (Basilicae) وهو جزء هام من بين مهام إيواء المحاكم .

وفي عام ٢٢٠ ق . م أنشأ الكنسور فلاڤينيوس مضماراً جديداً لسباق الخيل والعربات في ساحة الاله مارس (circus) .

وهنا يجب ألا ننسى أن الرومان لم يقلدوا الإغريق في بناء المسارح الحجرية بل لم يغيروا أنماطهم المعمارية واكتفوا بإقامة منشآت خشبية لعرض مسرحياتهم .

خاتمة :

وعند نهاية العصر الجمهوري ودور المؤسس الثاني لروما قيصر - الذي اسماه ضباطه وجنوده بالامبراطور (Imperator) - بمعنى القائد العام عندئذ ، وعن حكمه القيصر وإصلاحاته الكثيرة وعلاقته بمصر وعلاقة كل من أنطوني واوكتاڤيوس بقيصر وعن الامبراطور أوجوستوس (Augustus) ومرحلة السلام الروماني (Pax Romana) التي استغرقت حوالي ٢٠٠ عام تقريباً تستطيع أن تطلع على صفحات الفصول التالية حتى تتعرف على مراحل تطور الحياة السياسية ، أما عن المجتمع الروماني منذ نهايات القرن الأولي الميلادي وطيلة القرن الثاني كله تستطيع أن تعرف أدق تفاصيلها في ساتيرات جوڤينال Juvenalius : Satires , I-XVI في أي طبعة أجنبية سواء في سلسلة loeb Classical Library أو في سلسلة نصوص Oxford الإنجليزية .

الباب الرابع

المراحل الأولى في تاريخ الامبراطورية

الفصل الأول

الأوضاع فيما قبل ٣٠ ق . م

ليس من المستغرب أن تسمع من يقول أن تاريخ ايطاليا القديمة هو تاريخ مدينة روما نفسها ، منذ نشأتها ، مروراً بفترات الحكم الملكي والحكم الجمهوري ، ثم العهد الامبراطوري . حينما جنت روما ، بل وايطاليا كلها ، ثمر المجهودات المضنية التي بذلها رجالات روما الأوائل ، عسكريين كانوا أم سياسيين .

لقد كانت نجاحات روما ، منذ نشأتها ، الأسطورية عام ٧٥٣ ق . م ، مصدر دهشة أعظم مؤرخي العصور القديمة ، الذين كتبوا عن هذه المدينة الصغيرة [التي استطاعت بعد أن نفضت عن كاهلها الوجود الأجنبي : وهم الملوك الاتروسكيون وكان آخرهم تاركوينيوس المتغطرس (Tarquinius Superbus) أن تضع أسس نظام جديد ، وهو النظام الجمهوري (Res Publica) ، وحتى عام ٣٠ ق . م ، عندما كسب أوغسطس (Augustus) آخر جولة من جولات الصراع على عرش الامبراطورية الرومانية فقضى على انطونيوس (Antonius) ووضع نهاية لطموحات آخر ملكة بطلمية في مصر وهي كليوباترا السابعة (Kleopatra) . كما كان هو نفسه مؤسس نظام دستوري جديد هو . حكم المواطن الأول (Princepatus)] .

وأهم هؤلاء جميعاً ، هو المؤرخ الواقعي ، المحايد ، پوليبيوس (Polybius) الذي كتب تاريخه ، معترفاً بأنه كان يهدف إلى كتابة تاريخ روما بوجه خاص : عندما قال :

« إن الهدف الأول . والموضوع الأوحد . لكل ما كتبت ، هو أن أوضح كيف ، ومتى ، ولماذا وقع كل العالم المعروف تحت سيطرة روما[1] » .

وكتب كل من كينيدي (Kennedy) ووايت (White) في تاريخهما لمشوار الحضارة الرومانية القديمة ، يقول :

" It is obvious That Rome's Success was due fundamentally to the Roman Character[2] " .

ولكنها ، تلك الشخصية الأولى ، التي نعرفها بين أسطر كتابات شاعر العصر الروماني فرچيل (Vergilius) ، ووصفها بالنشاط والإيمان القوي القديم .

كان الرومان شعباً عظيماً . لأنهم كانوا يعرفون ذلك وأدركوا أنهم بالفعل شعباً عظيماً ، ويصدق عليه بالقول :

" They were often defeated, but never lost the last battle[3] " .

لقد قامت روما على أكتاف الطبقة الارستقراطية القديمة ، وعلى قدرات وإمكانيات الأسر والعائلات الغنية ، التي تولت كل مشاريع روما الفتية ، منذ مطلع القرن الخامس ق . م . تلك العائلات التي كانت تمثل أصحاب المصلحة الحقيقية وراء كل نجاح أو فشل . إنهم هم الآباء (Patres) الذين يمثلون طبقة الـ (Patricii) – النبلاء والأشراف الأغنياء – في مقابل الغالبية العظمى من شعب مدينة روما الفقير (Plebs) والذي لم يكن له من مطمح سوى تحسين مستوى معيشته ، وليس له أية آمال في السياسة والحكم ،

(١) أنظر ، پوليبيوس : التواريخ ، الكتاب الثالث ، ١٠ .

(٢) Roman History , Life & Literature, London 1942, P. 5 .

(٣) المرجع نفسه .

وتوجيه دفة الأمور ، لأنه - ببساطة - مشغول طول الوقت بالبحث عن قوت يومه .

إنه جدير بالذكر [في تلك القرون الأولى من وضع أسس الحكم وإدارة روما القديمة ، وتحديد علاقاتها بجيرانها من معرفة العصبة اللاتينية وتطور تلك العلاقات من الند للند في ضوء المصالح التجارية المتبادلة . على أساس معاهدة ذكية - هي أقدم معاهدة بين روما وجيرانها وهي التي تُعْرف باسم (Foedus Cassianum) - تتمشى مع ظروف روما الناهضة ودبلوماسيتها الهادئة ، في وقت لم تكن قادرة - عسكرياً - على إملاء رغباتها التوسعية] أن روما كانت تحسن إستخدام الأساليب المتاحة أفضل إستغلال لتحقيق أهدافها البعيدة حتى ولو كان ذلك على مراحل عدة ، أي سياسة الخطوة خطوة التي عرفناها في عصرنا الحديث على يد السياسة الأمريكية . في أثناء عملية فض الإشتباك الأول والثاني بيننا وبين القوات الإسرائيلية ، عقب حرب ١٩٧٣ التاريخية . إنها هي سياسة الواقع والتعامل معه ، التي بدأتها روما منذ القرن الخامس قبل الميلاد وما بعده . إلى أن استطاعت هذه المدينة الصغيرة أن تصبح سيدة لكل مدن الإقليم الذي تعيش فيه (Latium) ثم سيدة على ايطاليا كلها .

إن الدرس المستفاد من رجالات روما العظام وساستها الأوائل الذين وضعوا نظام الحكم الجمهوري (Res Publica) [الذي لم يكن يعني نفس هذا النظام اليوم . بل قدَّم له وأعطى لنا أول صورة في التاريخ القديم فحسب ، دون مضمونه الكامل الذي نعرفه نحن في تاريخنا الحديث والمعاصر ، فقد كان يعني حكم الأثرياء الأقوياء والذين كانوا يجيئون إلى تلك الوظائف الشرفية (Cursus honorum) غير المدفوعة الأجر ، عبر

قنوات الاختبار الحر ، إلا أننا لم نكن نتوقع ، ولا يمكن لنا أن نتوقع . نزاهة ذلك الاختيار لمناصب الثقيلة أو لأعضاء الجمعية الدستورية . سواء أكانت مجلس السناتوس القديم (Senatus)[٤] أو الجمعيات الأخرى مثل جميعة الأحياء (Comitia Curiata) التي يمثل فيها أقوى وأغنى رجالات الأحياء السكنية في روما . ولهذا فإن تلك الطبقة الثرية . لا ينتظر منها ، أن تدافع عن مصالح عامة الشعب الروماني ، كما يمكن أن نفهم من مصطلح « Res Publica » أي الشيئ العام . إن الشيئ الذي أرادت تلك الطبقة أن تحافظ عليه وتضمن العمل من أجله على يدي كل مسئول يصل إلى وظيفة في الدولة الرومانية الناهضة . هي مصالحهم هم . أي مصلحة عامة الأغنياء . وحتى لا يستأثر أحدهم – دون الآخرين بتكييف الوظيفة وسلطاتها لتحقيق طموحاته هو وأهله ويدافع فقط ، عن مصالحه الخاصة.] هو **تلك المرونة السياسية الكبيرة ، أمام كل المواقف ، وفي كل الأوقات . ولكنها كانت المرونة العملية ، الواقعية ، التي لا تغيب عنها أهدافها الإستراتيجية الدائمة .**

إنهم كانوا ، على إستعداد دائم ، أن يغيروا . بالزيادة والنقصان عدد القناصلة (Consules) – قواد الجيوش – حسب الظروف التي يمرون بها . أو أن يضيفوا سلطات جديدة إلى أولئك القادة أو يحرمونهم من بعض لإمتيازات ، وفقاً لسلوكهم العام في كل ظرف على حده .

(٤) هذه الكلمة مشتقة من كلمة (Senex) التي تعني : عجوز شيخ . وبالتالي فإن كبر السن والخبرة والحكمة كانت أهم صفات العضو غالباً طيلة العصر الجمهوري .

ولكن ، هيهات أن تسير الأمور وفق هوى واضعي تلك السياسة إلى أبد الآبدين ، فإن التطور الطبيعي للمجتمعات البشرية وزيادة حاجات المجتمع الروماني ، وإدراك الطبقات الكادحة بالظلم الإجتماعي الواقع عليها ، سرعان ما ظهر في صورة ثورات وحركات إصلاح كان لابد لها لتحقيق نوع من التوازن بين الأغنياء والفقراء المعدمين ، وغالباً ما نجحت - إلى حد ما - في تحقيق إذابة وتقريب للفوارق الإجتماعية .

ولكنه سرعان ما قامت الحرب الأهلية ، في ايطاليا وفي الولايات الرومانية كذلك ، واستمرت أكثر من (٨٠) عاماً ، مع ما تخللها من فترات هدوء نسبي . كان ذلك نتيجة لعاملين اثنين .

الأول : تحكم روما وايطاليا في شئون العالم المتحضر آنذاك ، أي في القرنين الثالث والثاني ق . م .

الثاني : زيادة العداء والأحقاد بين الطبقات الإجتماعية ، سواء في روما نفسها أو في ايطاليا كلها وعدم عدالة الإدارة الرومانية في تعاملها مع سكان الولايات المختلفة .

ويصف رستو فتزف[٥] الوضع ، آنذاك ، قائلاً فيما يخص اليونان : « فالكفاح في المدن اليونانية اتخذ في مظهره شيئاً فشيئاً طابعاً يكاد يكون في جوهره نزاعاً إجتماعياً وإقتصادياً . ولم يكن القصد الرئيسي من ذلك الكفاح هو العمل على زيادة الإنتاج بتحسين أحوال الطبقة العاملة وتنظيم العلاقات بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال ، وإنما كان هدفه الرئيسي إعادة توزيع الثروة العقارية ، وهو أمر كان يتم في العادة باللجوء إلى أساليب

(٥) تاريخ الامبراطورية الرومانية الإجتماعي والإقتصادي ، الجزء الأول . القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٦٧ .

فيها العنف والثورة . وكانت صيحة الحرب هي الصيحة القديمة التي كانت تجـار منذ الأزل مطالبـة بإعـادة توزيع الأراضي وإلغـاء الديون [gés anadasmós kai khreón apokopé) وكانت هذه الصيحة تتجاوب أصداؤها على أفواه الناس منذ نهاية الحرب البلوبونيزيه ، أي نهاية القرن الخامس ق.م.

وكان الوضع في روما ، شبيهاً بذلك في الفترة التي شهدت بداية النظام الجمهوري ، منذ ٥١٠ ق.م. بعد نجاح أحد الأرستقراطيينوهو بروتوس (Brutus) في طرد آخر الملوك الأجانب الاتروسكيين من روما فنقرأ ما يلي :

« فالإتروريون وبعض الأسر من الطبقة الارستقراطية الرومانية كانوا يؤلفون الطبقة العليا من كبار ملاك الأراضي والتجار في روما . أما جمهور العامة من السكان الأصليين ، فقد أكرهوا على الكدح والنصب من أجل سادتهم الجدد . ولم تتغير الأحوال الإقتصادية السائدة عقب قضاء الطبقة الارستقراطية في روما على الأسرة الإترورية الحاكمة . وكان أهم ما يشغل بال روما هو إنشاء نظام حربي قوي والحرص على تقدمه وتطوره ، حتى تتمكن من الدفاع عن نفسها ضد أي هجوم قد يأتي من الشمال أو ينجم عن منافسة المدن اللاتينية الأخرى(٦) » .

ولذلك يمكن أن نخلص إلى حقيقة مفادها أن المجتمع الروماني كان مجتمعاً زراعياً يهيمن عليه السادة أصحاب الإقطاعيات الكبيرة الذين هم أسياد (domini) . ويعمل تحت إمرتهم ولصالحهم آلاف من العبيد (Servi) ومعهم عدد كبير من الأتباع (Clientes) وكان إقليم لا تيوم قد تخصص في زراعة الأرض وإنتاج القمح بوجه خاص .

---

(٦) رستوفتزف : المرجع السابق : ص ٣١ .

ومع أزدياد أملاك روما الخارجية ، أي خارج أقليم لاتيوم وإتمام سيادتها على إيطاليا زادت قوتها العسكرية الضاربة مما مكنها من الدخول في حرب طويلة ، مع أكبر قوة في العالم القديم آنذاك وهي قرطاجة (CARTHAGO) ، تلك المستعمرة الفينقية القديمة في تونس من الشمال الإفريقي ، أنها المصالح التجارية لكلتا الدولتين في موض البحر المتوسط ، والتي بدأت تتعارض وذلك بعد أن كثرت عمليات التدخل الروماني في السياسات الداخلية لدويلات المنطقة ومحاولة روما الدائمة لتدمير الأنظمة القوية في العالم المتحضر آنذاك .

هنا تصدق ملاحظة رستوفتزف الدقيقة لسياسة روما « أن تدخل روما في فترات متقطعة في شئون العالم المتحضر أثناء الحروب البونية (أي مع قرطاجة) وما بعدها ، لم ييسر الحال وإنما أدى في أحوال كثيرة إلى تعقيد الأمور ، إذ ساعد على نجاح القوى الهدامة . وإن الهدف الذي كانت ترمي إليه الجمهورية الرومانية الناهضة كانت غايته العمل على الحيلولة دون قيام أي نظام سياسي قوي في الشرق يُخْشى أن يكون خطراً على الدولة الرومانية(٧) » .

ولما عمّ السخط مقدونيا (Makedonia) وبلاد الأغريق (Hellas) : بسبب سوء معاملة روما لهما بعد أن أصبحتا ولايتين رومانيتين ، فحاول كل منهما أن يتخلص من نير الحكم الروماني ، فأعتبرت روما ذلك منهما عصياناً ، قاومته بمنتهى القسوة والوحشية فنزل هذا السلوك من الرومانيين كراهية شديدة في قلوب هذين الشعبين ضد روما ونظامها .

---

(٧) المرجع السابق .

ومما هو جدير بالذكر أن نتائج الحروب البونية مع روما والذي أسفر عن تدمير قرطاجة تماما عام ١٤٦ ق . م ، كانت غاية في الخطورة ، ليس فقط على الشرق ، بل حتى على روما وإيطاليا نفسها .

ويمكننا إيجاز أهم تلك النتائج فيما يلي :-

١ - زيادة قوة روما العسكرية ، وزيادة الأعتماد عليها في تأمين حدودها في الشرق والغرب وفي الولايات التابعة لها ، وبالتالي زيادة أعداد الجيشين وأحتراف القتال .

٢ - زيادة أموال الخزانة الرومانية وتدفقها باستمرار على روما .

٣ - زيادة أملاك روما الخارجية في الولايات (Provinciae) وتنوع تلك الأملاك ما بين أراضي زراعية ، ومراع وغابات ومصايد أسماك ، ومناجم للتعدين ، ومحاجر في إيطاليا وأملاك في قرطاجة .

٤ - زيادة أهمية المستعمرات الرومانية الشمالية ، ولا سيما بعد ساعدة الغال (Galli) للملك والقائد القرطاجي العظيم هانيبال (Hannibal) بجند أقوياء حارب بهم الرومان .

٥ - ظهور طبقة إجتماعية جديدة ، نافست الأرستقراطين النبلاء القدامى (Patricii) ، في الثراء ، وهي طبقة الفرسان (equites) ، الذين عاشوا في روما كأصحاب الأملاك ، ولممارسة الحقوق السياسية ، فألفوا بذلك طبقة حديثة الثراء حاقدة على السناتوس ودوره التقليدي الرائد منذ القدم .

٦ - تدفق البضائع مع الأجنبية ، على أختلاف أنواعها إلى الأسواق في روما والمدن الإيطالية الأخرى .

لقد كان تدمير روما لقرطاجة هدفاً استراتيجياً ثابتاً أمام كل ساسة روما على مر الأعوام ، وتحققت صيحة أعظم ساستهم آنذاك وهو كاتو الأكبر (Ca to Maior) ، في عام ١٤٩ ق . م ، عندما خطب في الشعب الروماني ملهباً حماسه بقوله :

« يجب أن تُدَمر قرطاجة Delenda est Carthago » وتم لهم ما أرادوا عام ١٤٦ ق . م ، بعد أن سوى الجيش الروماني في المعتدى كل مبانيها ومنازلها وأسوارها بالأرض ، فكانت القاضية ولم تقم لقرطاجة بعد ذلك قائمة ، وهكذا أسدل التاريخ أستاره على آخر فصل من فصول دراما التجار الفينقين على الساحل الشمالي الغربي من إفريقيا . وفي عام ٤٦ ق . م ، أمر يوليوس قيصر بإعادة بنائها شريطه أن تكون مدينة رومانية ، وأصبح أسم قرطاجة في عالم النسيان ، ودخل هذا المكان إلى حظيرة أملاك الأمبراطورية الرومانية تحت أسم « ولاية إفريقيا : Pravinicia Africana » . عندئذ أصبحت روما سيدة البحر المتوسط بلا منازع .

وفرضت المصالح التجارية لروما ، والتي أخذت في الأزدياد بشكل لم يسبق له مثيل ، أن تقضي على المراكز التجارية الأخرى في هذا الحوض نفسه ، فقامت بتدمير كورنثا اليونانية (Korinthos) في العام نفسه (أي ١٤٦ ق . م) ، كما أستولت على مملكة برجامون في آسيا الصغرى (Pergamos) ، وفي عام ١٣٣ ق . م ، وكان ضم آسيا الصغرى بداية مشوار جديد لحياتها ، عرفت فيها الظلم والأستغلال والدمار على أيدي القوات الرومانية المتصارعة فيما بينهما .

وإذا ما عرضنا ملخصاً سريعا لنتائج مشوار الحروب الخارجية التي خاضتها روما من أجل التوسع وزيادة النفوذ والسيطرة منتهجة سياسة « فرق تسد : Divide et impera » ومنذ عام ٢٦٤ وحتى ضم آسيا في عام ١٢٩ ق . م ، نجد ما يلي - كما أجاب الأستاذ الدكتور سيد الناصري على سؤال حول نتائج الحروب على المجتمع الروماني ، فأكد على النتائج التالية : -

أولاً : زيادة سلطة السناتوس (Senatus) كمؤسسة سياسية ، وكطبقة إجتماعية أرستقراطية متميزة .

ثانياً : إزدياد أعداد العبيد ورخص أجورهم ولجوء السادة (domini) إلى الراحة والمتعة بكل أساليبها .

ثالثاً : اعتماد روما على القمح المستورد والرخيص بدلاً من زراعته في إيطاليا ولجوء الزارعين الرومان إلى تربية الماشية والأغنام وزراعة الكروم وتصنيعه .

رابعاً : اللجوء إلى سياسة ضم المستعمرات الخارجية كأملاك رئيسية - أملاك روما والشعب الروماني بدلاً من الإكتفاء بدفع الضرائب ، ومن ثم كان حكمها لها مباشراً فنشأت طبقة عريضة من الموظفين الطموحين إلى الثراء السريع .

خامساً : إنهيار الآلهة القديمة وضعف الإيمان بوجودها ، مما أفسح المجال للدجل والسحر وأنتشار العبادات السرية ، واللجوء في بعض الأوقات إلى آلهة أجنبية ، مثل (Kybele) الفريجية ، وإيزيس (Isis) المصرية ، وأدونيس (Adonis) السوري ، وغيرها ، وعندما زاد وجود مثل هذه الآلهة الأجنبية في روما سمعنا أصواتا

تحذر من هذا التواجد الشرقي الغريب ، وجاء ذلك عى لسان كاتو الأكبر وجوفينال من بعده .

سادساً : إزدياد تأثير الحضارة الأغريقية على روما ، فغدت معظم مظاهر الحياة الرومانية ، من ملبس وبناء وثقافة ، مصبوغة بصفة يونانية ، وأصبحت الموضة هي تقليد الثقافة والممارسات اليونانية في كل شيء وكان الفصل الأول لهذا الغزو الحضاري على يد الأسرى الأغريق الأدباء والمؤرخين الذين عاشوا في روما وأثروا على الأدب اللاتيني والفلسفة وكل مناحي الحياة .

سابعا : ظهور الكبرياء الروماني والأحساس بالعظمة والتميز فظهرت الكتابات التاريخية المغرورة التي تدعى العظمة والتفرد وعقدت المقارنات بين الشعب الروماني واليوناني وكيف أن الروماني رجل قوي فعال "Vir Romanus est fortis et Strenus" وأن رسالته هي أن يصفح عن الضعفاء ويقمع الأقوياء : "Parcere superbos et debellere subjectos" وذهب الكثيرون منهم إلى كتابة الأساطير ونسخ الروايات حول مجد روما القديم وعظمتها وكيف أنها مشيئة القدر أن تحكم روما وتسيطر على العالم كله ويصبح البحر المتوسط « بحرنا mare mostrum » ولكن ليس كل ما يتمناه إلمرء - أو الأمم - يدركه إلي الأبد . أنها سنة الحياة ، ودورة التاريخ والقرون ، فكما أزدهرت روما وعاشت حياة العز والرفاهية وخبت ثمار انتصارتها مجداً ورفعة ، بدأت تنخر فيها بوادر الأنحلال والضعف ، فجاءت الحروب الأهلية الدامية التي شهدت قيام الدكتاتوريات العسكرية ، والتي تأله الفرد ، القائد المنتصر ، وظلت

روما راكعة تحت أقدام هؤلاء قرابة مائة عام (١٣٣ - ٣١ ق . م) إلى أن جاء أكتافيوس ليضع حداً لهذه الفوضى السياسية ويدخل بلاده في عهد جديد تماماً .

وكما هو معروف فقد أنشغل الرومان قبل تقدم أوكتافيوس إلى الحكم بصراعات عسكرية مريرة بين القادة الرومان خلال القرن الأول قبل الميلاد ، وكان من أهم هذه الصراعات ما حدث بين ماريوس (Marius) وسلا (Sulla) على القيادة العسكرية العليا ، مما أسفر عن حصار روما نفسها بقوات سولا في عام ٨٨ ق . م . كذلك الصراع الشهير بين پومپي (Pompeius) ويوليوس قيصر (Caesar) فقد كان پومپي ، حقيقة رجل الفرسان (equites) ولعبوا ، عندئذ دوراً بارزاً في الحياة الرومانية ، سياسية كانت أم أجتماعية ، فضلاً عن دورهم العسكري وقيام كاتيلينا (Catilina) بمؤامرة عام ٦٢ ق . م ، أثناء غياب پومپي في الشرق . وبدأ الصراع بين پومپي وقيصر بعد أن أستطاع قيصر انجاز المهمة الموكلة إلية في سبع سنوات (٥٨ - ٥١ ق . م) وأراد أن يعود إلى عاصمة بلاده ليقوم بدور في سياسة بلاده - فوجد المؤامرات ضده في صورة تحالف بين شيشيرون (Cicero) الفيلسوف المعروف وپومپي والسناتوس ، كلهم جميعاً ضده ، ولكنه لم يستمع إليهم . ودارت المعارك بين قوات الفريقين في أنحاء إيطاليا كلها وخارج إيطاليا كذلك أي في الولايات منذ عام ٤٩ إلى ٤٥ ق . م ، ولكن أعداءه لم يتركوه لينعم بإنجازاته ، ولا سيما بعد دخول كليوباترا المصرية حلبة الصراع وأثارت مشاعر الرومان ضد حليفها ، فاغتالوه في عام ٤٤ ق . م .

وبمجرد مقتل قيصر ، نشب صراع جديد على الزعامة السياسية بين السناتوس من جهة ، وبين أنطونيوس واكتافيوس الشاب الذي لم يكن عمره

يزيد – عن ١٩ عاماً وبعد هذا التحالف القصير ، أقتسما فيما بينهما (٤٢ – ٤٠ ق . م) ولايات الأمبراطورية ، فكان لأنطونيوس (Antonius) الولايات الشرقية ، وكان لأكتافيوس (Octavius) الولايات الغربية ، ولم يأت عام ٣٢ ق . م ، حتى كان الصراع بينهما قد بدأ[٨] .

وكلنا يعرف بقية القضية التي كان القدر بطلها عندما أوجد كليوباترا في طريق القائد الروماني أنطونيوس الذي لقى حتفه في الأسكندرية منتحراً عام ٣٠ ق . م ، وتبعته كليوباترا ، التي كانت السبب الرئيسي لتطور الأحداث بهذه السرعة بين قطبين رومانيين ، كانا صهرين ، فكان أن أستغل أكتافيوس هذا التطور لصالحه ، وأنهاه بنجاح لتحقيق أهدافه هو بدبلوماسية بارعة .

لقد كانت معركة أكتيوم (Aktion) هي بداية تاريخ عالمي جديد تمكن لأكتافيوس سلطته المطلقة كسيد أوحد لكل العالم اليوناني – الروماني ، كما كانت تعني سيادة « الغرب » وليس « الشرق » على مقدرات ذلك العالم لمدة طويلة ، بالضبط كما قال بذلك مايكل جرانت :

"It also meant that this empire would be dominated for a very long time to come, by the west, and not the east"[٩] .

ثانياً : الأوضاع فيما بعد عام ٣٠ ق . م :

يعتقد كثير من المؤرخين أن ضم مصر ، كولاية (Provincia) إلى أملاك الشعب الروماني – كما أعلن ذلك أكتافيان في آثر أنقره الذي تم الكشف عنه

---

(٨) Grant, M. , History of Rome, London 1978, p. 201 .

(٩) Ibidem , p. 202 .

في تركيا في منتصف القرن السادس عشر الميلادي - كان هو الفصل بين مرحلتين اثنتين في تاريخ روما القديمة ، وليس عام ٢٧ ق . م ، عندما تمت التسوية لصالح القائد الأوحد ، الذي يمسك بيده زمام كل الأمور في روما ، آنذاك ، وفي كل ولايات الشعب الروماني خارج إيطاليا ، أنه «أوغسطس» ذلك القائد العسكري المنتصر على أعدائه ، والذي أصبح - بعد موقعه إكتيون (Aktion) - هو الشخصية الوحيدة على مسرح الأحداث والتي غنمت كل شيء ، ولم تخسر شيئاً واحداً ، لأنه ببساطة شديدة هو الذي أستطاع أن يدير حلقات الصراع بينه وبين منافسيه - الرومان أو الأجانب - بأعلى درجة من الفطنة والذكاء ، على أن يظهر دائماً بمظهر المحافظ على الشرعية الدستورية أمام الرومان جميعاً ، مما أكسبه تفهمهم وأنضمامهم إلى صفه حرباً كان أم سلماً .

لقد كان ضم مصر (Aegyptus) واقعة لها أهميتها في تاريخ الفتوحات الرومانية الخارجية ولا سيما بعد ظهور كليوباترا (Kleopatra) على مسرح الأحداث وطموحاتها التي لا تعرف حداً ولا تتورع عن أتخاذ كافة الوسائل حتى اللاأخلاقية منها ، لتحقيق سلطانها وهيمنتها على كل الأمور من حولها ، حتى أنها أتخذت قادة الرومان أدوات لتحقيق أقصى ما كانت تحلم به وهو الكيد لروما التي أذلت أعناق وملوك أسرتها البطلمية وراحت تلعب بهم وتراهنهم على البقاء على عرش مصر أطول مدة ممكنة كلما دفعوا الثمن لزعماء روما .. كانت تحلم بذلك ، وهكذا صورها الأدباء والخطباء الرومان كأبغض ما تكون كملكة شرقية لاخلاق ولا شرف عندها فتحاملوا عليها جميعاً ، وماذا يمكن أن ننتظر من الأعداء !؟ ولا سيما أننا لم يصلنا - إلى يومنا هذا - أي دليل أثري يوضح موقف الملكة البطلمية المنتقمة - بوسائلها

المختلفة – من روما والرومان إننا حتى الآن لا نعرف دفاع كليوباترا إزاء كل هذه التهم التي كالوها إليها وتلك الصفات البذئية التي وصموها بها .

من ذلك ديو كاسيوس (Dio Cassius) – الذي كتب تاريخ روما (Tà Arkhaiká) في (٨٠) كتاباً ، وكان قنصلا للمرة الثانية عام ٢٢٩م – يعود بذاكرته ومن واقع السجلات الرومانية ومن وحي خياله كذلك ، كتب عن فتح روما لمصر على يد أوغسطس ، عام ٣٠ ق . م ، يقول :

« هكذا خضعت مصر[١٠] ، لأن كل من كان يقاوم ، لبعض الوقت قد قبض عليه ، ذلك لأن الطالع[١١] قد أظهر لهم ذلك بكل الوضوح : إذ أمطرت السماء ، على غير عادتها – دماءً ، وكانت صور الأسلحة ، تبدو من السحب ، وفي أماكن أخرى كانت دقات الطبول وأصوات الناي ، وهدير الأبواق تُسمع ، كما ظهرت فجأة حية كبرى[١٢] ذات حجم ضخم – كما قيل – وأصدرت فحيحاً مخيفاً ، كلما زحفت على الأرض وفي نفس الوقت كانت الشهب تُرى وظهرت العفاريت (أرواح الموتى) ، وتصدعت التماثيل وراح أبيس (Apis) يذرف الدموع في حسرة وألم[١٣] .

بهذا الأسلوب ، وبهذه العقلية ، نظر الرومان إلى واقعة ضم مصر إلى أملاك روما كولاية خارجية .

إن كتابات ديون كاسيوس ، في مطلع القرن الثالث الميلادي توضح بجلاء مدى إدراك الرومان لمكانة مصر وخطورة قوتها ، وكيف أنهم ، كانوا –

(١٠) يذكر النص كلمة « Edouléthé » بمعنى : « إستعبدت » .

(١١) وردت في النص اليوناني كلمة « To daimonion » وتعني : « الفال » .

(١٢) وهي ترجمة لكلمة « dragon » اليونانية .

(١٣) Dion Cassios, Historiae, L1, 17:4-5 .

بعد مرور أكثر من قرنين ونصف من الزمان - مازالوا حاقدين ناقمين على تلك الملكة البطلمية التي تحدتهم يوماً وسببت لهم إزعاجاً شديداً ، لهذا نسمع كاسيوس يقول :

- « إنها لم تكن تكتفي بأن يسامحها المصريون ويجعلونها ملكة عليهم ، بل تطمع في أن تكون ملكة على أمبراطورية الرومان كذلك[١٤] » .

وحينما يتحدث عن أسلوب أوغسطس الفاتح الجديد لمصر والذي لم تفلح معه أساليب كليوباترا كلها ، قال :

- « لقد كان يهددها ويعدها في آن واحد[١٥] » .

وحول موقفها النهائي من الأزمة وقرارها الأخير بالإنتحار ، كتب كاسيوس يقول : -

- « لقد فضلت أن تموت ، كملكة ، وفي عظمة السلطان ، على أن تعيش وحيدة منسية[١٦] » .

صورة الأوضاع في بداية العهد الإمبراطوري : -

يذكر رستوفتزف واصفاً الأوضاع في روما وإيطاليا في القرن الأول ق . م ، قائلاً[١٧] :

« إذا نقبنا عن اصطلاح عام يصلح للتعبير عن الأوضاع السياسية والأقتصادية والإجتماعية السائدة في الدولة الرومانية في القرن الأول ق . م ،

(14) Ibidem, LI, 9:6 .
(15) Ibidem, LI, 8:5 .
(16) Ibidem, LI, 11:2 .

(١٧) تاريخ الأمبراطورية الإجتماعي والإقتصادي ، الجزء الأول ، ص ٦٦ .

فمن الصعب أن نُوَفّق إلى صيغة تكون موجزة ومفهومة وواضحة » . فالدولة الرومانية كانت :

من وجهة النظر السياسية : -

كان النظام السائد الإمبراطوري والذي يتحكم في مصير وجميع مؤسساته من الناحية القانونية ، جمهرة من المواطنين الأحرار ذوي أعلى وأرقى مستوى أجتماعي في البلاد ، وكانوا يمثلون الهيئة الحاكمة ، ويمسكون مقدرات الأمور بأيديهم ، ألا وهم طبقة كبار أعيان وأشراف الرومان ، ممن كانوا يسمون بطبقة السناتوس (Senatus) ، وكانت الولايات الخارجية التي تتبع روما ، بمثابة ضياع وأقطاعيات لهذه الفئة الحاكمة الأرستقراطية ، المحافظة ، ذات التقاليد العريقة .

ومن وجهة النظر الإجتماعية : -

كان المجتمع الروماني ، آنذاك ، يتكون من عدة طبقات تمثل هرماً ، ذا درجات ، متفاوتة الأرتفاعات ، بالتسلسل التالي :

أولا : الطبقة الحاكمة (السناتوس) : -

وهي طبقة صغيرة نسبيا ، أي قليلة العدد ، تحكم الإمبراطورية من العاصمة روما (ROMA) ، وغالبية أفرادها من كبار ملاك الأراضي ، وأصحاب الأقطاعيات الواسعة[١٨] سواء ما كان منها في إيطاليا نفسها أو في الولايات الخارجية .

(١٨) هم أشبه عندنا بأصحاب العزب والوسايا في مصر قبل ثورة ١٩٥٢ .

ثانيا : طبقة رجال الأعمال :-

وكانت طبقة كثيرة العدد ، ضمت كذلك بعض ملاك الأراضي وتمتع أفرادها بالجاه والنفوذ ، وكانوا يؤلفون أرقى الطبقات ثراء - بعد السناتوس - في العاصمة روما أو في بقية مدن إيطاليا وجدير بالذكر أن هذه الطبقة ، ذاتها ، لم تكن جميعها على نفس القدر من الثراء والغنى و تبعاً لنشاط كل تاجر ونوعية السلع التي يتاجر فيها ، شأن هذه الطبقة في كل زمان ومكان .

ثالثا : الطبقة العاملة : -

وكانت تتألف من تجار التجزئة وذوى الحرف في المدن ومن العبيد في دواوين وحوانيت الطبقة الوسطى من البورجوازية ومن ملاك الأراضي الفلاحين الأحرار ، في الريف ، ومن جمع غفير مطرد الزيادة ، يشمل العبيد والمستأجرين المستقرين بالضياع التي في حوزة أصحاب الأراضي .

أما في الولايات الخارجية ، فكان هذا التوزيع نفسه ، لطبقات المجتمع ، والهيئات والجماعات يتكرر ويُراعي تطبيقه بين جموع المواطنين الأحرار من الرومان .

ومن وجهة النظر الأقتصادية : -

فإننا نكاد نجد نفس النظام الرأسمالي الذي كان سائداً في بلاد الشرق الهيللينستي ، حيث كان تداول السلع والبضائع ، يجري في يسر وحرية في داخل نطاق الدولة الرومانية ومع جيرانها .

ولم تكن أهم السلع التجارية ، الأكثر أنتشاراً ، هي الكماليات ، التي كانت البيوتات الأرستقراطية ، تتهافت عليها بل كانت السلع الضرورية جداً من غلال وأسماك وزيوت ونبيذ وكتان وصوف والأخشاب والمعادن ، أو المأكولات والمواد الخام فإنها كانت تأتي إلى روما وإيطاليا من أماكن نائية بعيدة ، أي من الولايات الرومانية - خارج إيطاليا .

الزيت والنبيذ : يأتي من اليونان ،

أما النقد ومعاملاته وأعمال المصارف[١٩] ، فكانت امتيازاً خاصاً يكاد يكون مقصوراً على إيطاليا ، وبصفة خاصة على روما ، ذلك لأن معظم العملة المسكوكة كانت بأيدي الرأسماليين من الرومان .

كما كان المصنع الصغير هو وحدة الإنتاج الأساسية ، التي كانت تنتج باستمرار لسد حاجة الأسواق الداخلية والخارجية ، وأشتهرت بعض المدن بصناعات معينة ، مثل :

- مدينة كابوا (Copua) وكاليس (Cales) لأنتاج السلع المعدنية والفخار .
- مدينة تارنتوم (Tarentum) لإنتاج المنسوجات الصوفية والأواني المعدنية المطلية بطبقة فضية .
- ومدينة أريتيوم (Arretium) ، والتي أشتهرت بإنتاج نوع خاص الفخار اللامع (glazed) ذو لون قاني .

---

(١٩) يذكر رستوفتزف (الجزء الثاني - الطبعة الثانية - ترجمة زكي علي وسليم سالم : مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ص ٣٢٤ - ٣٢٥ ، مراجع أجنبية كثيرة خاصة بالصناعة والتجارة في العالم القديم في القرن الأول ق . م وكذلك عن مشاركة الأيدي العاملة والخبرة والإنتفاع بها في إدارة المنشآت العامة وتطوير نظام المصارف عند الرومان طبقاً للنماذج الهيللينستية الشرقية وبصفة خاصة في أثينا ورودس وديلوس .

الفصل الثاني

بداية عهد جديد

الإمبراطور أوغسطس* : Augustus

إنه بمجرد أن عاد أكتافيانوس (أوغسطس) إلى روما عام ٢٩ ق . م ، من الشرق ، وبعد أن عاد تنظيم شئون تلك الولايات هناك ، أحس رجالات روما والشعب الروماني - لأول مرة منذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، بالأمان والإطمئنان إحساساً حقيقياً[1] .

لقد تغيرت الأوضاع تماما ، في النصف الأخير من القرن الأول ق . م ، وها نحن نوجز الأحوال ، قبيل اعتلاء أوغسطس حرس الإمبراطورية وقيام نظام دستوري جديد في روما يجلس هو على عرشه ويمارس من خلاله سلطات الحاكم الفرد (الدكتاتور Dictator) والذي أسماه هو نظام : برنكباتوس : Princepatus ، حيث كانت الصورة كالتالي : -

السناتوس : منطوي على نفسه ، ولا يشارك في الحياة السياسية ، بعد أن أمسك رجال الجيش العسكريين ولا سيما قادة الجيوش الرومانية في الشرق والغرب ، زمام الأمور كلها ولم يعد يستمعوا إلى آرائه وقراراته .

الفرسان (equites) : كانوا في وضع متميز في كل شيء ، على أثر الأعتماد الكلي عليهم في كل الحروب الخارجية .

(*) فضلنا صياغة المعادل العربي للفظة اللاتينية لهذا الإسم كما ذكرنا آنفا وليس كما تنطق ، في الأصل ، كالتالي : أوجوستوس ، وذلك لسهولة الأولى على اللسان العربي ، وحيث أصبحت هذه أكثر استخداماً منذ زمن طويل .

(1) White, G. W. & Kennedy, E. C. , Roman History, Life & Literature, Lond. 1942, p. ١١1.

ومع حاجة الجيوش الرومانية المتزايدة إلى قوات ، وظهرت إلى الوجود طبقة فرسان جديدة ، تحت رعاية الدولة ، بالتطوع من بين صفوف طبقة المواطنين الأحرار المتوسطي الحال ، وكانت بالرغم من الامتيازات المادية العديدة ، إلا أنهم كانوايشعرون – في قرارة أنفسهم – بأنهم دخلاء على المجتمع الأرستقراطي العريق ، وبأنهم – فعلاً – محدثو نعمة[٢] .

وتجدر الإشارة إلى أن هاتين الطبقتين كانتا تحتقران وتزدريان أعيان ووجهاء الريف والبلديات (Municipia) وذلك لخشونة طباعهم وسلوكهم ، والطريف – في الأمر – أن هؤلاء الأعيان ، أغنياء الريف ، كانوا « ينظرون شذراً إلى أغنياء المحررين وغيرهم[٣] » .

الطبقات الدُنيا : –

وهم جموع الفلاحين الأحرار ، وأحرار المزراعين والعمال الكادحين ، وكذلك أصحاب الحرف ، وكما عرفنا من قبل فإن ساكني المدن من أبناء هذه الطبقة ، أو غيرها ، عادة ما يحتقرون أبناء الريف ، والقرويين (Rustici) ، كما لا ننسى وجود العبيد (servi) في جموع هائلة وضخمة ، سواء في مزارع النبلاء السادة (domini) أو في المدن – كخدم – هذا فضلا عن أعداد كبيرة أخرى من فقراء وأحرار الرومان وهم الموالي (clientes) .

وعندما يواجه الدارس بسؤال : **ماذا كان موقف الحاكم الجديد لروما إزاء كل هذه الطبقات ، وماذا قدم لبلاده ؟** يجب أن يعرف

(٢) رستوفتزف في تاريخ الأمبراطورية الرومانية الإجتماعي والإقتصادي ، الجزء الأول ، ص ٨٢ .

(٣) المرجع نفسه .

بعض الأمور الهامة التي بدونها لا يمكن أن تستقيم إجابته وتكتمل .

إن اكتافيوس عندما قرر عمل شيء ، إزاء الأوضاع الراهنة أمامه ، فإنه « لم يُحْدِث أي تغير في هذه الأوضاع وإنما قَبِلها على أنها قضية مُسلَّم بها[4] » .

وفي رأي البعض الآخر فإن اكتافيوس لم يفعل سوى أن وفق بين مصالح تلك الفئات والطبقات السالفة الذكر ، حتي أن عهده يمكن تسميته بإنه عصر الوفاق الأوغسطي :

« The Augustan Compromise» لقد كان هدف أوغسطس الأسمي هو إصلاح روما والولايات بالشكل الذي يراه ملائماً لتحقيق نهضة كبرى من أجل خير ورفاعية الشعب الروماني ، ولكن أساليبه تباينت وأختلفت ، مما كان سبباً في أختلاف المؤرخين والدارسين لشخصه ولعصره .

إن أوغسطس ، بالرغم من أنه لم يكن عبقرية فذة ، لا كجندي ولا كسياسي ، كان يتمتع بمجموعة من الخصائص الشخصية التي تمثل أهم ملامح الشخصية الرومانية وأسلوب الساسة الرومان الأوائل في حربهم مع قرطاجة ، لقد اتَّبع اكتافيوس مع أنطونيوس غريمه أثناء حربه معه ومع كيلوباترا - فعل أساليب روما مع أعدائها ، والتي كانت تتمثل في : -

أ) الإصرار والتمسك بالهدف .

ب) الحذر والصبر .

جـ) أستغلال أخطاء الأعداء والمنافسين أفضل أستغلال والتعلم من أخطائه هو .

---

(4) White & Kennedy, op. cit. , pp. 111 - 122 .

(5) Rostovtzeff, op. cit., p. 23 .

وحتى عند تحقيق النصر فإن أوغسطس لم يكن يتخلى عن هذا الأسلوب في معالجة المشاكل التي يواجهها[٦] .

لقد أقدم اكتافيوس على أتخاذ العديد من الإجراءات التي تتصف بأنها طويلة الأمد وتدريجية وهادئة ، وذلك من أجل تدعيم أركان نظامه الجديد في الحكم والذي يعتمد أساساً على شخصه بأعتباره « الرجل الأول في الدولة : « Princeps » ومكنّه من أن يسيطر هو ، سيطرة كاملة مطلقة ، على كافة أمور الدولة[٧] .

ويذكر التاريخ لأوغسطس أنه في عام ٣٦ ق . م ، كان قد وعد بإصلاح النظام الجمهوري الذي كان قائماً حتى ذاك الوقت ، وبعدما أصبح هو الحاكم الأعلى ، صاحب السلطة الأعلى «Maius Imperium» فإنه أوفى بوعده ولكن على طريقته الخاصة وتحقيقا لأهدافه ورؤيته هو للأمور .

ففي عام ٢٨ ق . م ، أمر أوغسطس ، ومعه أجريبا ، أخر أصدقائه ذراعه الأيمن في كل الأمور ، بعمل تعداد (Census) وذلك بهدف تسجيل الناس وممتلكاتهم تيسيراً لعملية تقدير الضرائب اللازمة على المواطنين الرومان.

ذكر أوغسطس في نقش أنقرة (Momementum Ancyranum) المعروف باسم : الأعمال العظيمة للإله أوغسطس "Res Gestae divi Augusti" أنه نقل سلطته إلى السناتوس ليدير مصالح الشعب الروماني[٨] وكانت هذه مناورة محسوبة من الأمبراطور الذكي .

(6) White & Kennedy, opcit., p. 111.

(7) Grant, M., History of Rome, Faber edition, london Boston 1970, pp. 202-203.

(8) " Rem publicam ex mea potestate in senatus populique Romani arbitrium transtuli, ..."

وقراءة سريعة عند ديون كاسيوس[٩] ، يستطيع الدارس أن يتعرف على ملابسات قرار أوغسطس بالتنحي عن منصبه العسكري كقائد أعلى ، إذ أن هذا المؤرخ استنطق أحد مستشاريه وهو أجريبا (Agrippa) فجعله يوجه نظر الامبراطور إزاء تخليه عن منصبه العسكري كقائد أعلى للجيش (Imperator) وكحاكم أوحد (Movápxns) ، حيث يوضح بجلاء مخاوف أوغسطس من مؤامرات قيادات الجيش وحقد الزملاء ، ولعل أطلاعنا على ترجمة لفقرة قصيرة من هذا الحوار بين أوغسطس وأجريبا ، نجد الأخير يتلو للإمبراطور :

« أيها القيصر ، لا تتعجب إذا ما حاولت أن أصرف نظرك ، وأثنيك عن نظام حكم الفرد ، بالرغم مما فيه من امتيازات وما يمكن أن يعود على صاحبه من منافع حتى لو كنت أنت الذي في هذا المنصب . ذلك لأنه إذا كان – من ناحية – سيعود عليك بالنفع وقد درست ذلك كله لأنه لا تشابه فيما بين ما يحصل عليه الحاكم الفرد ، وبين ما يحصل عليه أصدقاؤه من ميزات فإنه – كما يقولون – من ناحية أخرى ، تحوطه مشاعر الحقد والأخطار من كل نوع ، وذلك يقدر رغبات معظم الحكام في مزيد من المكسب ، ولكنهم – غالباً – ما يحصدون الأحقاد والأخطار . إن هذا الشئ نفسه لا يحدث بالنسبة لي ، كما لا يحدث بالنسبة لآخرين ، ولكنني وجدت ذلك اتجاهاً سليماً لمصلحتك أنت ، ولمصلحة الدولة[١٠] » .

---

(9) Book L11, 1-2.

(١٠) ديون كاسيوس : التاريخ الروماني ، الكتاب الثاني والخمسين ، فقرة ١ – ٢ .

لقد حرص اكتافيانوس على ضرورة التأييد الشعبي المستمر لكل خطواته ومن هنا كان حرصه الدائم على إخبار الشعب الروماني بما يريده هو : ولم يقع في أخطاء يوليوس قيصر الذي اعتمد اعتماداً كلياً على قوة جيشه وتجاهل الرأي العام . إنه عندما أتى بالسلام إلى ربوع الامبراطورية الرومانية ووطد دعائمه وقلل من عدد فرق الجيوش الرومانية وأوجد الوظائف للمحاربين القدماء وأجزل لهم العطاء عند الخروج من الخدمة العسكرية ، فإنه بذلك قد ضمن التأييد الشعبي الذي كان يبغيه بكل السبل[١١] واستطاع بنجاح تام أن يحافظ على ذلك ، فلم يعلن صراحة أنه سيدهم : dominus » ومثل عليهم دور خادمهم المطيع المتواضع[١٢] .

إن النظام الدستوري الذي وضع أوغسطس لبناته ودعمه بأساليبه المدروسة جيداً - كما رأينا في موضوع تخليه عن سلطته العسكرية - كان نظام الحاكم الأوحد (autocracy)[١٣] ، فعلاً ، ولكن كان نظاماً جمهورياً شكلاً .

هنا حدد أوغسطس - بعد حصوله على هذا اللقب عام ٢٧ ق . م - وظائف كل الطبقات الأجتماعية في المجتمع الروماني وشجع الجميع على القيام بدوره في حدود اختصاصه ، وأوضح للرومان جميعاً أنهم إن أرادوا أن يكونوا ساده العالم ، فعليهم بالعمل والقيام بالأعباء ، وبالتالي فإنه حدد لهم أدوارهم لتدعيم حكم الامبراطورية الواسعة ، المترامية الأطراف شرقاً وغرباً ، وهكذا فإننا نجد تلك الوظائف موزعة على حسب قدرات كل طبقة وتطلعاتها الاجتماعية : -

(11) Tacitus, Annals, I.2. : cunctos dulcedine atii pellexit.
(12) White & Kennedy, op. cit., p. 113 .

(١٣) الاصطلاح هذا ذو أصل يوناني هو "Autokpatopia" وتعني « حكم الفرد » الذي يُسمى ، عندئذ "Autokpatwp" أي إمبراطور .

(أ) طبقة السناتوس : -

كان عليها أن تقدم للدولة أعضاء المجلس الأول في الامبراطورية ، وموظفي مدينة روما ، العاصمة ، وقادة الجيوش والضباط ، فضلاً عن حكام الولايات الخارجية ، وبهذه الطريقة أرضى هذه الطبقة العريقة ، وحافظ على شكل الحكومة الدستورية ، كالنظام الجمهوري السابق ولكن مع مشاركته التامة في جلسات السناتوس ومعرفته لكل صغيرة وكبيرة من أموره ، وأحتفاظه هو بالقرار النهائي .

(ب) طبقة الفرسان : -

كان عليها - في ظل النظام الأوغسطي الجديد - أن تقدم للدولة رجالات القضاء لشغل وظائف قضاة المحاكم الرومانية الذين يعرفون باسم (praetores) ، وكذلك يجب عليها أن تمد الدولة بقيادات عسكرية للقيام بوظائف ضباط القوات المساعدة ، التي تُعرف باسم (auxilia) .

(جـ) طبقة الموظفين المدنيين : -

وكانوا من أبناء الطبقة الوسطى في المجتمع الروماني وطبقة الفرسان الجديدة ، التي أثرت في ظل الحروب والفتوحات الخارجية ، وحدد لها أوغسطس هذا السلك الوظيفي في إدارات وهيئات الحكومة الرومانية ، فضلاً عن العمل في قصور الأباطرة ومكاتبها ، أي القيام على خدمة الأباطرة شخصياً .

(د) طبقة عبيد وموالي الأمبراطور

وكانت فئة كبيرة العدد ، مختاره للعمل في الأدارات والدواوين الملحقة بالسكن الامبراطوري – أي داخل القصر الإمبراطوري ، ولكن في وظائف أدنى من تلك التي يتولاها أبناء الطبقة السابقة ، طبقة الموظفين المدنيين ولما كان للسكن الامبراطوري أفرع منتشرة في أنحاء الامبراطورية احتاجت إدارات هذه القصور إلى أعداد كبيرة من أفراد هذه الطبقة المحرومة .

(هـ) طبقة العُتقاء : –

وقد حدد لهم أوغسطس القيام بأعباء العمل كبحارة ونوتيه[١٤] في الأسطول الحربي أو إدارة مطافئ العاصمة .

واتباعاً لنفس سياسة روما القديمة تجاه المدن الإيطالية الأخرى فإن أوغسطس قد حدد لها دوراً يتمثل في ضرورة قيام هذه المدن بإمداد وتزويد الدولة بالجند المدربين ، وذلك للعمل في الحرس الإمبراطوري ، أو الفرق الأساسية لجيش (Legiones) إو كضباط للقوات المساعدة .

وجدير بالذكر ، أن المعيار الذي كان على أساسه تتم عملية تحديد الطبقات الاجتماعية في المجتمع الروماني القديم ، وحتى في عهد أوغسطس ، كان مقدار ما يملك الفرد الروماني من ثروات عينية أو نقدية ، وبالتالي كل مظاهر الثراء والرفاهية المادية وكانت هذه وظيفة التعداد (Census) ، الذي حرص أوغسطس على إجرائه لتسهل عليه عملية تحديد الطبقات الغنية وتحديد مدى مسئوليتها في دفع الضرائب ، وبالتالي زيادة مقدرة الدولة على القيام بالأعباء المنوطة بها .

---

(١٤) كلمة « نوتية » = بحارة ، ذات أصل يوناني (Nautai) ، ودخلت [illegible] ية .

نعم ، لقد كانت المادة والثروة هي أساس تقدير الفرد ومدى مشاركته ، واحترامه من قبل الشعب ، في أمور الحياة العامة فإنها المادة التي كانت توضع فى كفة والأفراد في كفة أخرى : سواء في العهد الملكي أو الجمهوري أو حتى فى ظل النظام الجديد الذي لم يملك أن ينسلخ عن ماضية وتراثه وهكذا ، فإنه لالوم على أوربا اليوم عندما تزن الأمور والأخلاق والدين بمعيار المادة ، وسارت على نهج أسلافهم في روما وأثينا القديمتين ، وحتي لا نكون فعاليين في موقفنا هذا ، فربما نجد العذر للمجتمع الأوربي بصفة عامة ، والمجتمعات القديمة فيها ، بصفة خاصة عند اليونان والرومان ، إذا كان على الفرد مواجهة مصاعب الحياة والطبيعة ولابد من العمل والأنتاج ، وإلا فإنه لن يجد من يخدمه أو يسد رمقه أو يكسيه ، نظراً لفقر البلاد ، ولهذا كان من يملك أكثر يسود أطول ويعيش أفضل ، ولهذا ، أيضاً ، نشأوا على احترام العمل - أي عمل - ليس عن حب وإيمان بضرورة العمل ، بل بدافع الحاجة في ظل مجتمع لا يعرف للرحمة مكاناً ولا يعلو صوت فيه على رنين النقود ، مهما كانت ثقافة المالك ضحلة أو منعدمة ، فكيفي الشاب أن يكون مالكاً لأموال أو عقارات أو أنه ينحدر من أسرة كذا المعروفة بثرائها ، دونما اعتبار لأي قدر من الثقافة أو التعليم ، لقد كان الشرط الوحيد لشباب الارستقراطيين في روما والمدن الإيطالية الأخرى ، هو التمتع بقسط معين من التربية البدنية والتدريب العسكري ، ثم الولاء الضروري للإمبراطور كرخصة للترقي من منصب إلي أخر .

فلسفة السلام الروماني وسياسة أوغسطس الإقتصادية

لا يمكن ، بداية ، أن نتخيل أي تقدم اقتصادي في أي بلد من البلدان في التاريخ القديم أو الحديث ، دونما استقرار دائم لأحوال هذا البلد أو ذاك ، وعلى وجه التحديد ، استقرار في السياسة الخارجية ، التي هي مفتاح كل تحسن في الأوضاع الأقتصادية الداخلية .

لقد كان أستاذنا الفاضل د. سيد الناصري على حق عندما أكد على أهمية السياسة العامة للدولة كضمان لأي تقدم وازدهار ، فتاريخ الدولة هو سياستها أولاً ، ونتيجة لهذه السياسة – داخلية كانت أم خارجية – تتوقف درجة التقدم الأقتصادي لهذه الدولة أو تلك(١٥) .

ولكي نستطيع أن نقدر ما فعله أوغسطس إزاء سياسة الامبراطورية الخاصة والوضع في الولايات الرومانية ، بعد استعراضنا للأوضاع الداخلية في روما (في الصفحات السابقة) ، نقدم هنا عرضاً موجزاً للصورة التي كانت عليها الأحوال قبل تولي أوغسطس أمور البلاد بقليل ، وذلك من أجل تحديد دور أوغسطس في هذا المجال .

لقد كانت صورة الأوضاع الخارجية كما يلي : –

(١) انتصارات للرومان ، غير حاسمة ، في الشرق والشمال .

(٢) ضرورة انقاذ سمعة روما وجيشها في هذا المناطق بعد هزائم كراسوس (Crassus) على يد البارثيين .

(٣) تهديد كليوباتر (Kleopatra) لروما ، وطموحاتها غير المحدودة ، ولا

---

(١٥) تاريخ الامبراطورية ، دار النهضة العربية الطبعة الثانية ١٩٨٥ ص ١٠ .

سيما أنها اتخذت أعظم القادة الرومان وسيلة لتحقيق أهدافها : مما يعتبر ضربة لروما داخلها وتقويض لأركانها بأيدي أبنائها .

(٤) إنقسام القيادات العسكرية للقوات الرومانية إزاء ما يجب عمله .

والحقيقة أنه بمجرد أن أنفرد اكتافيانوس بعرش الامبراطورية الرومانية حتى بدأ يعالج كل هذه الأمور بحسم وهدوء مستخدماً كل السبل المتاحة ، لدرجة أنه ابتدع أخطر وسيلة دعائية في التاريخ القديم ، وهو اصدار جريدة يومية لإخبار الشعب بما يريده هو ، وهو الأمر الذي حرص عليه دائما ، ألا وهو التأييد الشعبي لكل خطواته .

هنا لابد لنا أن نعترف بنجاح اكتاڤيانوس في إدخال الامبراطورية الرومانية في عهد جديد حقاً ، ولكن هذا النجاح لم يأت من فراغ . ذلك لأن اكتاڤيانوس (Octavianus) كان قد أختار الطريق الصعب ، ولم يعرف الراحة أو السكينة إلا بعد أن :

(أ) بذل جهوداً جريئة وكبيرة ومكثفة ، أنهت المشكلة الشرقية ودور القراصنة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وكذلك أنهى - إلى الأبد - طموحات الملكة الشرقية (اليونانية المقدونية كليوباترا) ، وكذلك بعد أن قضى قضاءً نهائياً على مستقبل أنطونيوس (Antonius) غريمة السياسي والعسكري، وهكذا استراح الحاكم الجديد إلى حدود الامبراطورية الشرقية وذلك بالاعتماد الكلي علي فرقه العسكرية الكثيرة العدد ، فاستقرت الأوضاع وتحسنت سمعة روما وزادت رهبتها .

(ب) التف القادة العسكريون خلف أوغسطس ووجدوا فيه ضالتهم المنشودة كزعيم قوي ، يعرف ويدافع عن مطالبهم ويُحسن قيادتهم ، هذا

بالرغم ن أن أوغسطس لم يحالفه الحظ في إنهاء المشكلة الألمانية لضمها نهائيا إلي أملاك الشعب الروماني ، ذلك لأن أوغسطس كان مهتماً بدرجة اكبر بالحدود القريبة المباشرة مع إيطاليا ، فاهتم بالحدود الشمالية والشمالية الشرقية ودخلت القوات الرومانية في حروب مضنية مع البانونيين (Panonians) والدالماتيين (Dalmatians) .

وفي هذا المقام لابد أن ننوه إلي حقيقة تاريخية خرجنا بها من دراستنا لتاريخ روما القديم وعلاقاتها بالشرق ، وهي أن سياسة روما في الشرق كانت تقوم على دعامتين : -

الأولى هي : الدبلوماسية : كما حدث مع مصر منذ بطليموس الثاني فيلادلفوس (Filadelfos) ، أي منذ ٢٧٣ ق . م ، إلى أن وقعت مصر ، رسميا وبشكل سافر ، تحت الاحتال الروماني ، على أيدي أوغسطس عام ٣٠ ق . م .

الثانية وهي : التجارة : كما حدث مع تجارة الشرق العربي والبحر الأحمر . مما هو جدير بالذكر في هذا المجال أن سياسة الرومان اعتمدت على قوات حربية عظيمة - أي فرض السيادة التجارية بالقوة المسلحة بالرغم من أن حملة أحد قادتهم وهو Aelius Gallus عل بلاد العرب فشلت حربياً ، إلا أنها حققت للرومان بعض المكاسب التجارية من تجارة الشرق .

ونتيجة لهذا كله استقرت الأوضاع ، شرقا وغربا على حدود الامبراطورية الرومانية وازدهرت التجارة وشاع السلام ، بفضل مجهودات أوغسطس ، حتي عُرِفَ هذا السلام بأنه «السلام الأوغسط» : Pax Augusta ، وأقام الرومان تمثالاً حياً معبراً عن هذا السلام في ساحة الإله مارس ، تعبيراً عن تلك الروح الجديدة التي سادت روما والولايات كذلك .

وكما ذكرنا ، آنفاً ، إن ازدهار اقتصاد بلد من البلدان لا يمكن أن يتم في غير الاستقرار وهدوء الأوضاع وعدم تقلب السياستين الداخلية والخارجية على السواء ، وإن كنا نؤكد أكثر على أهمية السياسة الخارجية لدول العالم القديم ، لأنه في ذاك الزمان ، لم تكن دولة ، وحدها ، قادرة على حفظ استقلالها الذاتي وضمان حدودها إلا بعقد المحالفات الخارجية مع دول أقوى ، وبالتالي فإن أي تغيير في ميزان القوة على الصعيد الخارجي سيكون له إنعكاس سيئ أو طيب على الدول المتحالفة مع بعضها وهكذا فإن السياسة الخارجية هي التي كانت الفيصل لما كانت عليه أحوال أي بلد في داخله ، وقد رأينا بالفعل ، كيف أن روما لم تحقق الاستقرار المنشود إلا بعد أن حلت مشاكل حدودها الخارجية في الشرق والغرب مع الولايات المتاخمة على اقاصي حدود امبراطوريتها .

وقبل الدخول في سياسة أوغسطس الاقتصادية والإجراءات التي قام بها وأتخذها في هذا السبيل ، كنا نود أن نعرف ما هية فلسفة السلام الروماني الذي جاء نتيجة تلك المجهودات الضخمة للقوات الرومانية في ساحات الحروب .

إن الحقيقة التاريخية التي يجب علينا نحن الدارسين للتاريخ القديم بصفة عامة والتاريخ الروماني بصفة خاصة ، هي أنه من الضروري ألا ننخدع - اليوم ونحن نقرأ ذاك التاريخ - بالمسميات وننساق - مثلاً - وراء كلمة « السلام » لما لها من تأثير سحري على الأمم الضعيفة التي تأمل في شئ من هذا القبيل ، لأنها لا تقوى على غير ذلك ، من ناحية ، ولأن مطلب « السلام » - في عالم اليوم ليس إلا مطلب الضعفاء . ولا ترفع هذا الشعار إلا الأمم التي لا حول لها ولا قوة أمام القوى الكبرى ، إن الرومان - قديماً -

لم يعملوا على نشر السلام بين ربوع امبراطوريتهم ايماناً منهم بالسلام كوسيلة ، للعيش والتعايش الايجابي بين الأمم ، ولم ينادوا به ، كما يمكن أن يفهم من مصطلح « السلام الروماني » ولكن الحقيقة المرة ، المؤلمة ، « هي أن الرومان فرضوا سلاماً معينا ، في فترة معينة لأسباب معينة » .

لقد كان السلام الروماني هو سلام القوة والأقوياء ، لا سلام المستضعفين والضعفاء ، والسلام القائم على قوة السلاح ، لا السلام العازل ، والذي تنادي به اليوم - مثلا - دول منطقة الشرق الأوسط وتستجدي به القوتين العظمتين في أن يتفقا على أيجاد نوع من التسوية وأن يكونا ضامنين لهذا السلام . لقد كان السلام الروماني نتيجة طبيعية لسلسلة الحروب المتواصلة التي فرضت على روما تبعاً لطموحاتها العظيمة واستراتيجية التوسع التي انتجتها منذ مطلع القرن الخامس ق . م ، إنه ثمرة كفاح دام حوالي خمسة قرون من الزمان ، دفعت روما ثمنه غالياً من أبنائها ورجالاتها وقادتها العسكريين الأفذاذ .

إن نظرة فاحصة لتمثال السلام (STATUA PACIS) لتؤكد تلك الروح الجديدة في عهد أوغسطس ، وذلك لأن إقامة مثل هذا التمثال في ميدان إله الحرب له دلالة واضحة وكيف أن السلام هو الذي يكسب في آخر المطاف ، ولكنه لا يدوم إلا في ظل القوة المسلحة ، إن موضوع التمثال يزيدنا إيماناً بأن الزعامة الرومانية هي التي مولت وانفقت الأموال على إقامة هذا التمثال الذي عكس فكر وفلسفة السلام لدي القيادة الرومانية وماهية ذلك السلام في نظرها ، لقد صور الفنان الروماني مدينة روما كإلهة تجلس فوق أكمة من الأسلحة المتنوعة ، وتتكئ بذراعها اليسري على درع ، بينما تستند بيدها

اليمني على عمود به درع آخر مستدير ، هو الدرع الذي أهداه السناتوس باسم الشعب الروماني إلى الامبراطور أوغسطس ليزين به منزل على تل البلاتين[١٦] ثم رمز الفنان ، نحات هذا التمثال ، إلى سيادة روما العالمية ، على الشرق والغرب ، فقام بنحت كرة أرضية (Terrarum Orbis) ووضعها أمام الإلهة روما ، وأضاف عنصر آخر له دلالته العظيمة ، بعد أن أوضح سيادة السلام القوي الذي يعم العالم أجمع ،، وهو أن نحت مذبحا صغيراً مستقلاً ، أمام التمثال ووضع عليه إناء تقديم القرابين المقدس (Cornucopiae) والذي كانت توضع فيه كل الخيرات الطبيعية ، وذلك تقرباً إلى الآلهة .

هكذا تمثلت أمامنا كل معالم السلام الروماني وفلسفته إنه السلام . **القوي .. العالمي . الخير أي الذي سيفي وسيعود على الامبراطورية بالخير العميم .**

والجدير بالملاحظة أن هذا السلام المعين ، استطاع الرومان أن يفرضوه على العالم ، في الوقت الذي كان يناسبهم ويتفق مع ظروفهم . هنا يقول رستوفتزف :

« إنهم كانوا (أي القادة) في مسيس الحاجة إلى السلام ولكن على أن يكون السلام للدولة الرومانية[١٧] .

نعم ، لقد كان القادة الرومان وجنودهم قد وصلوا إلى درجة من الارهاق الشديد في الشرق والغرب ، ولم يعد هناك من أسباب الفتح الخارجي

(١٦) حول هذا الدرع الأخير نسج الشعب الروماني أساطير منها أن إلهة النصر هي التي جاءت به ووضعته في يد الإلهة روما ، بعد أن حلقت به في السماء .

(١٧) المرجع السابق ، ص ٧٠ .

ما يقتنع به الشعب الروماني قد يجعله يساند عملية استمرار بقاء كل تلك الجيوش في الخارج وما يستدعى ذلك من زيادة في أعباء الدولة الرومانية واستمرار عملية النزيف للشباب الروماني وأخذ وتجنيد الفلاحين مما أصبح معه القمح الروماني – من إيطاليا نفسها – أغلى بكثير في تكلفة إنتاجه ، مما يستورد من الخارج حقيقة الآن أن الأوان أن يستريح الجميع قادة وجنوداً ليجنوا ثمار سنوات الحرب والقتال والتوسع ، إن هؤلاء كانوا هم أول المستفدين من السلام الروماني ، سواء من استمر منهم عاملاً في الجيش الروماني ، أم من خرج بعد إنهاء خدمته فيه ، لأن أوغسطس أجزل لهم العطاء في الحالتين .

سياسة أوغسطس الإقتصادية :–

إنه بالرغم من الأزدهار الاقتصادي الناتج عن الاستقرار العام في جميع أرجاء الامبراطوية ، إلا أننا يجب أن نقرر حقيقة تاريخية وهي أن أوغسطس لم تكن له سياسة إقتصادية واضحة ولكن أسلوب ادارته في هذا المجال كان يقوم على تدعيم ما هو كائن أصلاً ويراه صحيحاً سليماً وإعادة تنظيم لما يراه غيركافي أو لا يحقق أهداف ومصالح الشعب . وهي سياسة قوامها : التوفيق بين الأوضاع القائمة » والابقاء على الملائم منها ، ولهذا كان أوغسطس يتقبل الأوضاع الراهنة القائمة ، ويحاول جاهداً أن يُدخل بعض التغيرات الطفيفة ، كلما اقتضت الضرورة ذلك ، مدفوعاً ، ربما بأسباب سياسية أو أخلاقية ، مثلما الحال في القوانين التي أصدرها لحماية صغار الملاك من بطش الطبقة الأرستقراطية (الاقطاعيين) ، كما عرفنا ذلك من أشعار هوراتيوس (HORATIUS) في قصائده (Odes) وكذلك عندما أصدر قوانين الحد من البذخ والإسراف : (Leges Sumptuariae) .

وخلاصة القول أن سياسة أوغسطس الإقتصادية يمكن اعتبارها سياسة « دع الأمور تجري في أعنتها » - وهو المثل المقابل للمذهب القائل : Laissez passer, laissez faire!! الإقتصادي ، ولكن إيطاليا - وهذا أمر طبيعي - أصبحت هي المركز الأساسي لكل أنواع النشاط التجاري مما عاد بالفائدة العميمة العظيمة على إيطاليا وسكانها ، بالدرجة الأولى ، وأصبحت مظاهر الثراء والبذخ واضحة ، مما حدا أوغسطس لأن يخاطب ويرجو الشعب بعدم الإسراف .

وعموماً ، فإننا نفضل أن نعرض صورة للوضع الذي كانت عليه الحياة الاقتصادية آنذاك ، حتى ولو بإيجاز شديد .

أولا : الزراعة :-

لم تؤثر الحروب الأهلية في إيطاليا القديمة على مجريات الحياة الزراعية ، لأنها من الأنشطة التي لا تتطور بسهولة أو تتقدم بسرعة ، ولكن التأثير الحقيقي - كما قلنا آنفاً - كان على إنتاجية الأرض وما تُغله من محاصيل وجدير بالذكر في هذا المجال أن السياسة العقاريةلم يطرأ عليها أي تغيير جوهري :

فكانت الضياع الكبيرة (latifundia) ، تزداد مساحة ، وذلك على حساب صغار الملاك ، كما ظهرت الملكيات المتوسطة وزادت أهميتها الإنتاجية بعد استخدام الأسس العلمية في زراعتها ، وكان أصحابها في الغالب من المحاربين القدماء الذين أخذوا هذه الأرض كنوع من الهبات الحكومية - بعد تسريحهم من الجيش - منذ عهد سولا (Sulla) وبومبي (Pompeus) وقيصر (J. Caesar) وأوغسطس (Augustus) .

إن أفضل صورة لإحدى الضياع والهبات هي التي جاءت عند شاعر العصر الأوغسطي هوراتيوس (Horatius) والذي كان مايكيناس (Maecenas)[١٨] قد أعطاه إياها ليعيش من ريعهما وجاء وصفها كالتالي تنقسم المزرعة إلى قسمين :

القسم الأول : مزرعة نموذجية يديرها المالك ، وهو هنا الشاعر هوراتيوس ، الذي لم يكن يقيم في مزرعته بل في العاصمة روما ، ويدير له هذه المزرعة ثمانية عبيد ، يفلحون الأرض ويزرعونها ويحصدون غلتها .

القسم الثاني : وكان موزعاً إلى خمسة مساحات ، كانت كل مساحة منها تؤجر إلى عائلة من المزارعين (Vilici) الأجراء الذين ربما كانوا - يوماً ما - أصحاب تلك الأرض الأصليين ، فيزرعونها عندئذ لحساب المالك الجديد ، هوراتيوس .

أما عن المحاصيل والنباتات التي تزرع في هذه المزرعة فإننا نجد الفواكة والخضروات ، التي تزرع في جزء من المزرعة النموذجية ، أما الجزء الأكبر فكان للغلال ، قمحاً كان أم شعيراً ، وحيث توجد الغابات والحشائش ، كانت الأغنام والماعز والثيران والخنازير ترعي عليها .

كان هذا النوع من الضياع الواسعة موجوداً في وسط إيطاليا ، وهناك أشباه لها في مناطق ستابياي (Stabiae) ، وبومبيوم (Ppmpeum) وكذلك هركولانيوم (Herculaneum) التي كان بها أماكن للسكني مريحة ، ما يعرف في اللغة اللاتينية باسم ڤيلا (villa) ، وهي المنزل الريفي .. ولكن أصحابها هنا - بخلاف الآخرين كانوا يسكنون في نفس مناطق مزارعهم ، ولا يديرونها من روما ، من خلال عبيد ، كما كانت تفعل الطبقة الارستقراطية من

(١٨) كان الرجل الثالث في عهد أوغسطس - بعد أجريبا - وزوج إبنة الإمبراطور الكبرى .

رجالات السناتوس أو طبقة الفرسان .

وجدير بالذكر أن نضيف مزراع إقليم كمبانيا (Compania) وڤيلاتها ، حيث كانت الضياع فيها تشبه ضيعة هوراتيوس في كثرة المخازن وانتشار المراعي .

إن أهم إضافة إلى أوضاع الزراعة والمزارعين في عهد أوغسطس هي قراره بفرض ضريبة عقارية على التركات بنسبة ٥ ٪ ، وكان النبيذ وزيت الزيتون من أهم المنتجات الزراعية ، وكان مسموح بتداولهما وبيعهما في السوق الحرة .

وفي ضوء الدليل الأثري المتوافر لدينا - حتى الآن - نستطيع أن نصور حياة المزرعة الرومانية في عدة نقاط : -

(أ) وجود آلاف العبيد (Servi) والثيران (Vacae) والمحاريث الزراعية (aratra) .

(ب) وجود منازل كثيرة لإقامة هؤلاء العمال المأجورين (vilici) ، فكانت هذه المنازل القروية أشبه « بالعزبة » - في مصرنا الحديثة - حيث الدور الحقيرة ، ذات الطابق الواحد ، والمبنية من الطوب اللبن ، مع وجود منزل كبير على مستوى راقي - على نظام الڤيلا (Villa) لصاحب العزبة أو المزرعة .

(جـ) وفي ضوء الدليل الأدبي ، نجد أسفاً كبيراً على ماضي إيطاليا القديمة ، إذ هاجر المزراعون إلى كنف ملاك الأراضي ، وتزايدت أعداد العبيد والموالي ، وتحول المزارعين إلى مستوطنين (Coloni) ، واختفائهم الذي أصبح موضوعاً يومياً على ألسنة الملاك كما نقرأ ذلك عند هوراتيوس (Horatius) .

(د) لم يحدث أن تدخل أوغسطس في قوانين الأراضي والعقارات - إلا ما ذكرنا آننا - كما كان ذلك ظاهرة متكررة من ظواهر الحرب الأهلية ولم تكن القيادة السياسية على يد أوغسطس على استعداد أن تعيد إلى الأذهان فترات الأضطراب والقلق وعدم الاستقرار .

ثانيا : التجارة :-

للتجارة ميدانان ، أحدهما في داخل البلاد ، والآخر خارج البلاد ، أي هناك تجارة خارجية بين الامبراطورية وبلدان أخري وتجارة داخلية بين ولايات الامبراطورية بعضها ببعض وبينها وبين روما .

[١] التجارة الخارجية :-

التجارة الخارجية ، حياة مستمرة وحركة دائبة ، لابد لها من مقومات نجاح ، أولها وعلى رأسها جميعاً ، الإستقرار - كما مكنا سابقاً - ونعني به استقرار الأوضاع السياسية خارجيا وبالتالي داخليا ، فيستقر المواطن ويطمئن إلى قيادته ويثق في إجراءاتها مما يجعله ينشط ولا يدخر وسعاً طالما أن ذلك سيعود عليه بالفائدة المباشرة ، وهكذا يضمن يومه وغده فعم السلام ، وبدأت حركة العمران والتبادل التجاري .

كانت الامبراطورية الرومانية في عهد أوغسطس قد مهدت لانجاح النشاط التجاري في أحسن صورة للأسباب الآتية : -

١ - هيمنة الإدارة المركزية - في روما - على أحوال الامبراطوية في الداخل والخارج ، فكان الجيش الروماني بمثابة صمام الأمن والأمان في كل مكان .

٢ - استخدام الطرق الحربية في الإتصال والمواصلات مما ساعد على

نشاط حركة التبادل التجاري .

٣ - فتح أسواق جديدة في شمال إيطاليا ، في الولايات الجديدة مثل الغال واسبانيا وأفريقية .

٤ - تأمين الملاحة البحرية في كل حوض البحر المتوسط ، شرقه وغربه ، بفضل قوة الأسطول الروماني .

٥ - إعطاء الفرصة للمدن اليونانية ، مثل كورنثا (Korinthos) وقرطاجة ، لممارسة نشاطها التجاري من جديد .

وإليك قائمة بأهم البضائع التي كانت ضمن سلع التبادل التجاري مع الأمبراطورية الرومانية ، وسنذكر كذلك مصادر إنتاجها .

(أ) الصفيح من أسبانيا .

(ب) الكهرمان وبعض الفراء والعبيد من المانيا .

(جـ) القمح من جنوب روسيا إلى اليونان .

(د) البلح من بدو الصحراء الكبرى وشراء العبيد الزنوج والتوابل .

(هـ) العاج والأخشاب الثمينة والذهب والمواد العطرية ، وكلها سلع تمثل تجارة مصر مع إفريقية وبلاد العرب حيث حصلت روما على التوابل والعطور والجمال والأحجار الكريمة .

ويجب الا ننسى أن معظم الأثمان للسلع المباعة في أسواق الشمال كانت سلع أخرى قادمة من الشمال ، أي أن التبادل التجاري كان يتم عن طريق المقايضة - في أغلب الأحيان - وبصفة خاصة تجارة الزيوت والنبيذ والسلع المصنعة ، ولكن أثمان البضائع الشرقية فكان بعضها نقداً ، بعملات

ذهبية أو فضية ، كما يذكر ذلك بلينيوس ، وكما كان يحدث مع البضائع الشمالية في الغالب ، فإن الثمن ، هنا كذلك ، كان عيناً من بضائع تم إنتاجها في مدن الإمبراطورية ، مثل الاسكندرية ، وللأسف لم تكن التجارة الخارجية هذه - كما عرفنا - مزدهرة إلا في بضائع الترف وبالتالي لم تكن ذات أهمية حقيقية بالنسبة للحياة الإقتصادية في بلدان وولايات الإمبراطورية الرومانية .

[٢] التجارة الداخلية :-

ويفهم منها - كما أوضحنا سابقاً - أنها عمليات التبادل التي تتم بين ولايات الامبراطورية بعضها البعض ، سواء تلك التي تخضع للسناتوس أو للامبراطور .

ويلاحظ أن أهم السلع التي كانت تتبادلها الولايات فيما بينها كانت النبيذ وفخار أريتيوم (Arretium) من إقليم إثروريا (Etruria) بوسط إيطاليا ، والذي انتشرت شهرته في القرن الأول ق . م ، كأفضل أنواع الفخار الملون لدرجة أنه تم العثور عليه - أي على بعض نماذجه في أفريقية . أما الفخار السيجيلاتي (Terra Sigillata) فكان ذا لون أحمر لامع ومصقول : ويقلد الأنماط المعدنية سواء الملونة أو غير الملونة .

ولا شك أن قصة تريمالخيو (Trimalchio) تؤكد بوضوح مدى الثراء الهائل من جراء تجارة النبيذ[١٩] .

---

(١٩) صور لنا بترونيوس (أحد رفاق الامبراطور نيرون Nero) في عمله .. الذي وصل إلينا باسم مائدة تريمالخيو (cena Trimalchionis) .

وكيف أنه بدأ حياته عبداً عزيزاً على سيده وضحك له الحظ فورث سيده واستثمر أمواله في تجارة النبيذ وكون ثروة طائلة .

الفصل الثالث

تقييم عام لدور أوغسطس

قبل الحديث عن مجالات إنجاز تلك الشخصية الفريدة في التاريخ القديم ، يجدر بنا أن نعرض لما كتبه كبار المؤرخين حول دور تلك العبقرية في ذاك الزمان الذي تنفس الصعداء بمجرد أن بدأ ظهور أوغسطس علي الساحة العالمية ، ووضع الأمور في نصابها في الشرق وعقب موقعة أكتيون(AKtiov) عام ٣١ ق . م ، « ذلك لأن العالم ، بحلول عام ٣١ ق . م » .

« كان قد مضى عليه ١١٨ عاماً ، عاني خلالها الآلام والويلات ، حتى بدا كما لو أن المجتمع الإنساني يوشك أن يلتقط أنفاسه الأخيرة ، وفي تلك اللحظة ظهر سلام أوغسطس ، علي حين بغتة ، فمنح الحضارة الهيلينية فرصة أخرى للحياة[1] » .

إن أرنولد توينبي يؤكد دائما على دور أوغسطس الهام في عملية إحياء التراث الهيليني وفي قيام « تعايش سلمي » حقيقي بين الامبراطوريات الثلاث المحبة للهيلينية في ذلك الوقت ، وكانت هي : الامبراطورية الرومانية ، وهي أقواها وأخطرها تأثيراً على السياسة العالمية ، ثم الامبراطورية البارثية في العراق وإيران وآخرها إمبراطورية كوشان في الهند[2] .

وفي معرض حديثه عن شخصية أوغسطس مقارناً إياه بسلفيه قيصر وپومپي قال توينبي :

« ومما يذكر أن أوغسطس لم يكن كفؤا لوالده المتبني له ، في مضمار العبقرية ، ولكنه كان يمتاز عن كل من قيصر وپومپي في أنه كان يحظي بتلك

---

(١) أرنولد توينبي : تاريخ الحضارة الهيلينية ، الألف كتاب (٤٥٨) ، ١٩٦٣ ، ص ٢١٣ .

(٢) عن علاقات الإمبرطوريات الثلاثة : أنظر توينبي ، المرجع السابق ، ص ص ٢١٤ – ٢١٦ .

المواهب ذاتها التي كان ينشدها العصر في المخلص المنتظر للمجتمع الإنساني لقد كان پومپي ممن تعوزهم الحنكة السياسية أما قيصر ، فكان كريماً مع أعدائه المغلوبين ، ضائقاً ، متبرماً في الوقت ذاته ، بتلك النظم السياسية ، التي كانت تحظى بالاحترام والتقديس ، رغم مجافاتها لروح العصر ، وكان هذا الخلط الذي لا تحمد عقباه ، بين خصال متنافرة ، خليقاً بأن يكلف قيصر حياته ، أما أوغسطس فكان يعلم كيف « يسرع ولكن في تريُّث » وكيف يتراجع دون أن يريق ماء وجهه » ومن ثم فقد توفي وهو طريح الفراش وخلف وراءه نظاما جديداً ، بقي بعد وفاته عام ١٤م ، ٢٢١ سنة أخرى[٣] » .

إننا بالنظر إلى قائمة سلطات أكتافيانوس ، بعد اتفاقية ١٣ يناير عام ٢٧ ق . م ، - والتي كانت بمثابة « صفقة ترضية » بين الحاكم الأوحد ، الذي تنازل عن سلطاته الاستثنائية السابقة في مقابل صلاحيات دستورية جديدة .. وعلى رأسها انفراده بالسلطة العسكرية وقصرها عليه فقط - نستطيع أن ندرك مقومات تلك الشخصية وأهدافها الدقيقة المرسومة بعناية ، والتي جاءت خطوة خطوة ، وتنم عن رجل لا يقل براعة وحنكة سياسية عن قدرته كقائد عسكري كبير .

لقد ذهب سالمون (Salmon)[٤] إلى أبعد من هذا ووصف أوغسطس بأنه كان انتهازياً بطبعه ولديه مخطط طويل المدى للإستيلاء الهادئ والتدريجي على الدولة .

---

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

(4) Salmon, E.T, The Evolution of Augustus, princi-pate, Historia, vi (1956), pp. 456-459, 470-478.

ويري جونز (Jones) أن جماهير أوغسطس التي اعتمد عليها في ثو، ته ، كانت الطبقة المتوسطة ، ذات العواطف والمشاعر الجمهورية القديمة ، ولهذا سلح نفسه بالسلطة التريبيونية (Tribunicia) من أجل حماية ورعاية تلك الطبقة ، وذلك كقوة جديدة ، كبيرة العدد يمكن أن تكون قوة ضغط وإنذار للطبقة الارستقراطية (Patricii) .

ويضيف جونز بأن أوغسطس ، قام بتمثيلية كبرى(٥) ، عام ٢٣ ق . م ، لكي يحصل على السلطة التريبيونية هذه عندما تظاهر بالانسحاب من الحكم في وقت عصيب ، وهو يعلم مدى حاجة السناتوس إليه . وفي رأي جونز ، فإن أوغسطس قام بهذه التمثيلية السياسية لسببين : الأول هو أن يتخلص من الأتهام بأنه يهدف إلى السيطرة الكاملة على السلطة ، مما قد يؤدي إلى تدبير المؤامرات للتخلص منه ، كما حدث من قبل مع يوليوس قيصر والده الذي تبناه ، والثاني ، لكي يعود أقوى مما كان ، كفرصة مناورة جديدة ، يستغلها لصالحه أفضل استغلال ويضيف معها سلطات جديدة إلى نفوذه .

لقد حرص أوغسطس أن يسجل فخره بأنه « نودي بي قائدا أعلى (إمبراطوراً) منتصراً : » (Appellatus sum vicins) واحداً وعشرون مرة وذلك منذ عام ٤٣ ق . م ، وأتخذ هذا المنصب (Imperator) كصفة دائمة ، وكأول اسم من أركان اسمه الثلاثي ، أي في مكانة praenomen منذ عام ٣٨

---

(٥) قدم الأستاذ الدكتور /سيد الناصري عرضاً طيباً لآراء الكثيرين الدارسين المتخصصين في هذا الموضوع مع ببليوجرافية كافية . أنظر كتابه :

تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري ، القاهرة ١٩٨٥ (الطبعة الثانية) ص ص ٢٦ - ٢٧ .

ق . م ، واعتبر أوغسطس هذا اللقب حقاً مكتسب له بصفته قائداً أعلى ، يمسك في يديه أعلى سلطة في البــلاد هي سلطة Imperium وغدت لفظه "Imperator"(٦) ، ومدى تمسك اكتافيانوس بها حتى نهاية حياته ، هي دليل حــرص هذا القــائد العــسكري على أن يمسك بزمــام الأمــور كلهــا في الامبراطورية ، ويتضح هذا الحرص الشديد في تمييز هذه السلطة بإضافة صفة maius أي « الأعلى » إلى كلمــة "Imperium" حتي يمكن التفريق بينها وبين سلطات القناصلة وحكام الولايات ، الذين كــانوا يحــملون سلطة الإمبريوم ، وفقاً للدستور الجمهوري القديم .

ويعلق الأستاذ الدكتور / سيد الناصري على حرص أوغسطس الشديد في ألا تنتقل هذه السلطة الخطيرة إلى أي شخصية أخرى غيره ، فيقول :

وقد حرص أوغسطس على ألا يسلم هذه السلطة على الإطلاق فعندما كادت مدة سريانهــا أن تنفذ في عــام ١٨ق . م ، جـددهـا لمدة خمس سنين أخرى في عام ١٢ ق . م ، ثم أصبح يجدد مدتها كل عشر سنوات إلى أن مات(٧) » .

أولا : لما كــان السناتوس (Senatus) ، ورجــالاته هـو مـركــز الإدراة السياسيـة وهـم أصـحـاب النفوذ الرئيسي في تسيير دفـة الأمور الداخلية والخارجية زمن الجمهورية ، فإن أوغسطس حرص كل الحرص على ألا يدخل في صدام معها ، بل لابد له من أيجاد السبيل إلى ترضيتها بالشكل الذي لا

(٦) هذه الكلمة مشتقه من الفعل Imperare : أمر ، أصدر أمراً ، وبالتالي فإنها مرتبطة بالقيادة العسكرية بينما المقابل اليوناني هو كلمة : Autakpatwp أي الحاكم بأمره (حرفيا : الماسك زمام الأمور بنفسه) .

(٧) المرجع السابق ، ص ٣١ .

لا يتعارض مع طموحاته السياسية التي يخطط لها بعد أن وصل إلى قمة الانتصار العسكري والفتوحات الخارجية بضم مصر إلي أملاك الشعب الروماني .

أوغسطس والسناتوس :-

إننا لن نكون مبالغين إذا قلنا ، بادئ ذي بدي ، أن الامبراطور كان غاية في الحذر والدقة عندما بدأ يخطط لدخوله عالم السياسة ، فكان لا يعلن ، صراحة ، عن نواياه منذ اللحظة الأولي ولكنه كان كيِّساً ومثابراً وسار على سياسة الخطوة - خطوة لتحقيق وجود قوي ومؤثر في الساحة السياسية لصنع القرار داخل روما .

ولهذا تستطيع أن تلاحظ ، أيها الدارس ، إن أوغسطس ، مثلاً ، لم يعلن عن نيته في ضم مصر إلى أملاكه الخاصة ، إلا بعد أن عاد إلى روما قادماً من الشرق ، وبعد أن تم عقد صفقة الترضية بينه وبين السناتوس ، الذي أتى به ، مرة ثانية ، إلى الأضواء وأعطاه حقوقه التقليدية القديمة ، ولكن في حدود ممارسات معينة تحت سمع وبصر الامبراطور المنتصر ، الأوحد والذي لا منافس له آنذاك وهكذا كان أوغسطس تقليدياً في حرصه على الشكل الدستوري والأطار القانوني لكل اجراء يقدم عليه ولكنه بمجرد أن اتفق مع السناتوس على ترضية عام ٢٧ ق . م ، عندئذ أعلن عن رغبته الخاصة في ضم مصر إلى أملاكه هو ، ولا تتبع أملاك السناتوس من الولايات (provinciae) الخارجية إنه هو تلك الشخصية الطموحة القادرة ، والعاقلة في نفس الوقت التي كانت تتخذ من أعظم شخصيات الماضي نموذجا لها تحتذيه إنه هو الذي قال يوماً : « لقد جئت لأري الملك ، لا لأري

صفاً من الجثث[٨] » ، وذلك عندما حرص في عام ٣٠ ق . م ، أن يري تابوت الإسكندر الأكبر ، في مقبرته ، التي كان قد نقل إليها من ممفيس (Memphis) بعد فترة وجوده فيها ، عقب وصول رفاته من بابل ، وحرق جثمانه هناك أنظر صفحة (   ) هامش .....) .

إنه ، أي أوغسطس ، هو الذي قرأ ، عام ٢٩ ق . م ، - كما يقال - ما كتبه فرجيل (Virgilius) - في آخر القصيدة الأولي من رعوياته الشهيرة من دعاء له حتى توفقه الآلهة لإنقاذ العالم من مصائبه .

« يا آلهة الأسلاف ، ويا أيتها الآلهة المحلية رومولوس وأمنا الإلهة فستا ، أنتم يا من تحرسون نهر لتيبر وتل البلاتين في روما ، لا تحرموا هذا الرجل الشاب ، على الأقل ، من أن ينقذ عالماً ، انقلبت فيه الأمور رأساً على عقب[٩] » .

إنه ليس ببعيد ، أن تكون هذه الصرخة الواقعية من شاعر كبير مثل فرجيل ، والتي تعترف بسوء الأوضاع في العالم الروماني والتي يدعو معها الآلهة ، ألا تحرم اكتافيانوس من أن ينقذ هذا العالم مما هو فيه ، أن تكون قد فعلت فعل السحر في نفسية طموحة ، كنفس هذا القائد المنتصر ، بلا منافس ، وجعلته يفكر جدياً في أن يكون ذلك المنقذ والمخلص لهذا العالم مما هو فيه

فماذا فعل هذا الرجل وكيف كسب ثقة كل الأطراف دونما الدخول في مواجهة مع أي فئة من فئات المجتمع الروماني القديم ؟ .

(8) Dudley, D., Raman society, (Penguin Books), 1970, p. 141 .
(9) Ibidem .

هنا أستعير كلمات العالم الإنجليزي دونالد دادلي D. Dudley الذي أدرك سر عظمة تلك الشخصية ، التي قلما يجود التاريخ بمثلها لما جمعت بين العقلية العسكرية والمهارة السياسية ، وهما نقيضان في تعاملهما مع الواقع .

كتب دادلي يقول : -

" In the jungle of roman power- politics survival depended on personal qualities the political gifts of Octavian were of a very high order ..... He was a good judge of men .

Above all, he had what Caesar lacked, an acute sense of the emotive power of words titles and slogans . It was this that made him such a master of propaganda. This same quality was to be used in a subtler form in the constitutional sittlement he devised for Rome[10] .

(10) Op. cit., p. 143 .

الباب الخامس

خلفاء أوغسطس

الفصل الأول

تيبريوس (Tiberius)

(١٤ - ٣٧م)

قبل الدخول في السير الذاتية لمجموعة من الأباطرة الذين شاءت الظروف أن يكونوا في طريق القدر الملكي فحملهم إلى عرشه ، دون أن يكونوا قد حلموا بذلك ولو للحظة ، لأنه « حتى ولا في المنام » ، كان يمكن أن يخطر على بال أحدهم أن يصبح يوماً امبراطوراً على مائة مليون مواطن في مملكة مترامية الأطراف شرقاً وغربا] نجد لزاماً علينا أن نقدم للدارس قائمة بهم وبمدد حكمهم للامبراطورية وبمدي علاقتهم بالمؤسس الأول للنظام الجديد « حكم المواطن الأول » :

« برنكپاتوس : Principatus » ، مع حرصنا على عدم الدخول – في هذا العرض الموجز لتاريخ الإمبراطورية في تفاصيل علاقات أشخاص تلك الفترة بعضهم ببعض ذلك لأننا لا نؤمن بأن التاريخ القديم هو تاريخ سير وحياوات أشخاص ، بل هو دراسة لعلاقات الأحداث وللقوانين التي تحكم وقوعها والآثار المترتبة على ذلك سلباً كان أم إيجاباً ، ثم إعطاء صورة تقريبية لما كان عليه الوضع في مكان ما وزمن ما لسبب ما وبكيفية ما (أنظر صفحات ١٣ – ١٤)

ولهذا فإننا لن نتناول خلفاء أوغسطس كما تعود البعض تحت المسميات « الأسرة اليوليوكلاودية » أو « الأسرة الفلاڤية » ، طالما سنقدم فقط قائمة بأسمائهم وعلاقتهم وكفى ، وللأسباب التي قدمناها آنفاً .

قائمة بأسماء خلفاء أوغسطس (القرن الأول الميلادي)

إسم الإمبراطور	مدة الحكم	علاقته العائلية
الأسرة اليوليوكلاودية :		
تيبريوس Tiberius	١٤ – ٣٧	– تبنّاه الإمبراطور أوغسطس
كاليجولا Caligula	٣٧ – ٤١	– ابن جرما نيكوس ، الإبن الأكبر لدروسوس ، الأخ الأصغر للإمبراطور تيبريوس
كلاوديوس Claudius	٤١ – ٥٤	– الأخ الأصغر لجرمانيكوس
نيرون Nero .	٥٤ – ٦٨	– تبناه كلاوديوس كان ابن أجريبينا ، بنت جرمانيكوس .
عام الإضطراب :		
جالبا Glba .	٦٨ – ٦٩	– حاكم إسبانيا (Hisponia) .
أتو Otho .	٦٩م	– حاكم لوريتانيا (lusitania) ومرشحاً لقيادة الحرس البرايتوري .
فتيليوس Vitellius .	٦٩م	– حاكم ألمانيا السفلي .
الاسرة الفلافية :		
فسباسيانوس Vespasianus .	٦٩ – ٧٩	– قائد جيش روماني في مملكة يودايا (Judaea) في فلسطين .
تيتوس Titus .	٧٩ – ٨١	– الأبن الاكبر لفسباسيانوس .
دوميتيانوس Domitianus .	٨١ – ٩٦	– الإبن الأصغر للأمبراطور فسباسيانوس .

الإمبراطور تيبريوس : –

لم يشأ أوغسطس أن يسمي ويعلن نائبه على عرش الإمبراطورية الرومانية ، ولكن المواقف أكدت أن تيبريوس كان هو ذلك النمط من الرجال

والحكام الذي كانت الإمبراطورية تحتاجه في ذلك الزمان ، بالرغم مما قيل عن شخصه وذكرته تواريخ السير .

قال سوتيونيوس أن أوغسطس - عندما كان على سرير المرض ، ولم يكن مقتنعاً تماما بشخصية خليفته ، قال - بمجرد خروج تيبريوس من حجره نومه ، آسفاً « مسكين هذا الشعب الروماني ، الذي سوف تطحنه ببطئ شديد[١] » .

وعن شخصية تيبريوس ، فإنه لم يكن رجلاً محبوباً[٢] .

ولكنه كان رجلاً يتمتع بإحساس قوي جداً بالواجب واستطاع خلال السنوات الأولى من حكمه أن يدعم أركان الامبراطورية تدعيما قويا في الناحية الاقتصادية والإدارية ، التي كان أوغسطس قد وضع قواعدها .

ولما كانت أعمال تيبريوس لاتدسل إلى درجات المجد والعظمة لأنه سار على نهج أوغسطس وكفي ، ولا يرتفع في إنجازاته قدر علو انجازات

---

(1) Suetonius, Twelve Caesars, Tiberius, 21: "miserum populum Romanum, qui subtum. Lentis maxillis erit. ".

(٢) حول هذا الجانب من شخصية تيبريوس - ولا سيما بعد أن أصبح امبراطوراً ، كتب أرنست ماسون : الإمبراطور الرهيب تيبريوس ، تعريب جمال السيد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ ، مادة سرد لحياة هذا الامبراطور كما جاءت عند بعض معارضيه من معاصريه أمثال سوتيونيوس وتاكيتوس اللذان تحاملا عليه كثيراً ، ومن هذا الإدانات ، والاتهامات ما كتبه المؤلف إذ يقول (ص ص ٥ - ٦) : « كان طاغية منحرفاً سفاكاً للدماء ، وكان يعذب خصومه عذابا رهيباً .... وكان جشعاً للمال ... كان قصره يعج بالجواري والسبايا والغلمان وكان شاذا في علاقته بهم ... وقد قضي أعوامه الأربعة عشرة الأخيرة في جزيرة كابري ، مستمتعاً بالجنس والعذاب وسفك الدماء ولكنه ترك امبراطورية مستقرة وموطدة الأركان ، حتى لقد قال عنه المؤرخ موستيفن إنه كان أقدر حاكم للإمبراطورية الرومانية على وجه الإطلاق » .

أوغسطس (أبو الوطن : Pater Patriae) ، فإننا لا نسمع عنه كثيراً ، وحتى عندما تظاهر بضرورة عودة جرمانيكوس - ابن أخ الإمبراطور تيبريوس - من ألمانيا عام ١٦م إعتبرت الأوساط الرومانية السياسية هذا العمل بأنه ليس إلا غيرة شديدة من الإمبراطور على ابن أخيه وعلى أنتصاراته وشعبيته .

لقد أساءت السلطات الرومانية كثيراً إلى سمعة تيبريوس ، بوجه خاص ، كما لم تفعل مع أي إمبراطور روماني آخر فنجد سوتيونيوس ، مثلا ، في تاريخه المعروف[٣] قد ذكر عن حياته أشياء كثيرة سيئة للغاية[٤] ، بينما تاكيتوس بالرغم من أنه كان أكثر دقة في عرضه للحقائق ، إلا أنه ، هو كذلك ، قد أضر كثيراً بسمعه تيبريوس عندما حاول تفسير تلك الحقائق ، وليس السبب في هذا الحقد على الإمبراطور ببعيد عن الفهم أو صعب على الإدراك ، إن تيبريوس في محاولته اقتفاء أثر أوغسطس والسير على نهجه ، كانت تعوزه الوسائل لتحقيق ذلك ، ولا سيما في علاقته برجال السناتوس ، وكان هذان المؤرخان من نفس ذات طبقة الإرستقراطيين التي ينتمي اليها أعضاء السناتوس ، أعداء الإمبراطور ، الذي حاول تدعيم النظام الأوغسطي (principatus) ، وذلك النظام الذي كان في نظر رجالات السناتوس ، ليس الإ شكلاً من أشكال النظام الديكتاتوري ، في ممارساته الفعلية .

حاول تيبريوس جاهداً أن يُهدِّئ وأن يُرضي مشاعر المحافظين من فئات الشعب الروماني ، ولذلك إقترب الإمبراطور من السناتوس ، حاول أخذ رأيه واستشاررته في أمور هامة كثيرة ، بما في ذلك الشئون العسكرية ، وإن كان القرار - من وجهة النظر الدستورية وفقاً لنظام المواطن الأول الذي

(٣) انظر : Suetonius, Twelve Caesars, s.v. Tiberius

(٤) راجع الصفحة السابقة (ص ٧٧) هامش (٢) .

وضعه أوغسطس في يد الإمبراطور نفسه ، هذا من ناحية ، إلا أن تصرفه وسلوكه ، من ناحية أخرى - كان عكس هذا الإتجاه ، فقد أقام وسكن في مقر السناتوس نفسه ، مما زاد شك أعضائه في نوايا الإمبراطور فجاء التناقض والتضارب واضحاً جلياً ، مما أوغر صدر السناتوس ضده[٥] .

ويُعقب بعض متخصصي التاريخ الروماني بقوله : -

" He would have been for wiser to have dealt with important problems himself, as Augustus had done, and left to the senate only those questions which were trivial enough to demand his presence during the debate[٦]. "

أي أنه كان يجب على تيبريوس أن يكون أكثر حكمة في تعاملة مع السناتوس ، فيحتفظ لنفسه بالمشاكل الهامة ، يضع لها هو الحلول بنفسه ، بينما يترك الأمور المعقدة لكل سناتوس ، حتى يتطلب الموقف وجوده بينهم أثناء المناقشات ، وبالتالي يعطيه الفرصة على استمرار التواجد بين أعضاء السناتوس لمعرفة اتجاهاتهم وآرائهم في كل موضوع .

إنه من الواضح تماماً أن المؤرخين المعاصرين ، ومنهما سوتيونيوس وتاكيتوس ، قد تأثراً بالفعل ، وربما قاماً بإيعاز من السناتوس ، بتشويه صورة الإمبراطور تيبريوس عن عمد ، وإشاعة المبررات السيئة وراء كل تصرف لهذا الرجل لدرجة أنهما وصفا امتعاضه عندما تسلم مقاليد الأمور في النظام الأوغسطي، بأنه كان مجرد نفاق وتملق لهذا النظام ، أي أن تيبريوس لم يكن مقتنعاً به[٧] .

---

(5) Tacitus, Annals, 1. 46: "Tiberium sedere in senatu, verba patrum cavillantem.".
(6) White-Kennedy, Roman Historys life & literature, london 1942, p. 124.
(7) Suetonius, de vita Tiberii, 24: "Quasi coactus et querens miseram et onerosam iniungi sibi servitutem recepit imperium".

ولكن الواقع - في الغالب - كان غير ذلك ، فقد قبل تيبريوس هذه المسئولية ، وهو جزء من هذا العبئ الكبير ، لإدارة إمبراطورية من داخل مكتب رئاسي أو قصر فخم ، في الوقت الذي كان يريد أن يبعد هو نفسه عن كل شئ تاركاً كل مناصبه ، وذهب بالفعل الى جزيرة رودس (Rhodus) للإستجمام[٨] .

ولما كان تيبريوس شكاكاً بطبعه ، فإنه أعطى كل ثقته لأحد المقربين إليه وهو رئيس الحرس البرايتوري ، سيانوس (Sejanus) ، الذي كان سبباً في تسميم علاقة الإمبراطور ، ليس فقط مع السناتوس ، بل إيضاً مع أسرة الإمبراطور نفسها .

وحول مصرع القائد الروماني الشاب جرمانيكوس ، ابن أخي الإمبراطور تيبريوس ، فإنا لا نملك دليلاً قاطعاً على إدانة الإمبراطور كما أدعت زوجته أجربينا (Agrippina)[٩] ، التي أشاعت أن جرمانيكوس ، زوجها ، قتل مسموماً في إحدى الولايات الشرقية بايعاز من الإمبراطور ، تيبريوس نفسه .

وعندما مات الوريث الشرعي لعرش لإمبراطورية ، وهو دروسوس (Drusus) الأصغر ، بن تيبريوس قبل الامبراطور أن يتبني أولاد جرمانيكوس ، مما أوغر صدر صديقه الماكر سيانوس ، الذي حاول تشويه سمعه أمهما أجربينا ، وأتهمها بالفعل بأنها تآمرت لقتل الأمبراطور واستطاع - تبعاً لذلك - أن يقنع الإمبراطور الذي عاقبها هي وأبنتها

(٨) ماسون ، الإمبراطور الرهيب « تيبريوس » تعريب جمال السيد ، القاهرة ١٩٨٥، ص ٥٧ .

(٩) أجربينا : هي بنت أجريّبا (Agrippa) ، أقرب المقربين إلى أوغسطس والذي كان قد تزوج من يوليا (Iulia) ، بنت أوغسطس .

الذين كانا يستعدان لخلافة العرش) في عام ٢٩م بأن نفاها خارج البلاد ، هكذا خبي سيانوس ممن خداعه ومنحه الإمبراطور سلطة الامبريوم البروقنصليه ، وكان طموحه كبيراً جداً ، وهو أن يصبح يوماً ما وريث العرش .

ولم تمضي سوي سنتان إثنتان على هذا النحو ، حتى فتح تيبريوس عينيه على ما يجري حوله وبالذات مخططات سيانوس صديقه الذي يثق فيه ثقة عمياء ولجأ الإمبراطور - لأول مرة - إلى أمانه واخلاص حرسه البرايتوري ، دون علم سيانوس ، وأرسل خطاباً إلى السناتوس أعلنه فيه قراره النهائي بعزل سيانوس ومحاكمته ، والتي أنتهي فيها السناتوس إلى قرار حاسم بإعدام سيانوس ، ولكن سيانوس قد سبق تنفيذ الحكم وانتحر من شدة الضغوط النفسية والعداء الشعبي .

بعد ذلك ، لم يثق تيبريوس في أحد وزاد ، بالطبع ، شكه في كل من حوله ، وازدادت أنشطة الوشاة المخبرين الذين كانوا يطمعون في مكافأة الإعلان عن المؤامرات ضد العرش[١٠] وهكذا امتلأت روما بالرعب والخوف من عقاب التآمر وكانت جريمة الخيانة (Maestas) ، وعقوبتها الإعدام ، تحوم حول كل من تصل عنه وشاية مهما كانت بساطتها .

حاول تيبريوس أن يكفر عن خطاياه ضد أسرة جرمانيكوس فنقل إلى قصره في جزيرة كابري ، الابن الثالث لذلك القائد ، وكان هو الولد الوحيد الذي بقي من أجريبينا ، والتي ماتت جوعاً هي وأولادها الاثنان في سجون تيبريوس ، بسبب وشاية سيانوس ، كما عرفنا من قبل . كان هذا الابن هو

---

(١٠) كانت المكافأة التي حددها الإمبراطور ربع تركه المتآمر ضد الإمبراطورية .

جايوس كاليجولا (Gaius Calligula)[١١] .

وفى أواخر سنوات حياته ، انتشرت الشائعات حول أخلاقيات القصر الإمبراطوري في كابري (Capri) وكثر الهمس واللمز في أوساط الطبقة الأرستقراطية في روما حول التجاوزات اللاأخلاقية والتناقضات في شخصية تيبريوس نفسه .

ويقول د. سيد الناصري[١٢] عن « عقدة الحنق المكبوت » في شخصية تيبريوس وطفولته البائسة ونفسه المجروحة : « لقد كان يعرف أن وصوله إلى الحكم لم يكن إلا صدقة ، ونتيجة لتدخل القدر ، لأنه كان آخر من فكر فيهم زوج أمه أوغسطس خاصة عندما أستمع إلى الفقرة التي جاءت في وصية أوغسطس والتي تقول : »« مادام الحظ العاثر قد نزع مني ولداي جايوس ولوكيوس ، فليصبح تيبريوس قيصر خليفة لي[١٣] » .

إن قراءة أخرى ، عند مؤرخين آخرين للتاريخ الروماني ، تظهر لنا عكس ما عرفنا عن هذا الإمبراطور عند سوتيونيوس وتاكيوس إنه - عند بلينيوس الأكبر[١٤] (PliniusMaior) ، كان حقاً « أتعس الناس : Tristissinus haminun » ، وفي هذا الوصف لتيبريوس ، تحس روح الأديب وحساسيته الإنسانية المشاعر ، بينما نحس عند سوتيونيوس وتاكيتوس بنفوس حاقدة عملية ، لها أهدافها الواضحة في تدبير شخصية الإمبراطور وسط شعبه .

---

(١١) هو اسم شهره لهذا الغلام الصغير ، وكان جنود جرمانيكوس هم الذين أطلقوه عليه ويعني « الحذاء الصغير » ، لأنه كان يلبس الزي العسكري طفلاً .

(١٢) تاريخ الإمبراطورية الرومانية . دار النهضة العربية ، الطبعة الثانية ١٩٨٥ ، ص ١٣٢ .

(13) Suetonius, Augustus, 106; Tiberius, 23.1.

(14) Pliny the elder, letters, 79 .

وإذا كان لنا ، أحقاقاً للحق وإنصافاً لهذا الإمبراطور أن نرد على إتهام غلاة المسيحية في العصور الوسطي له ولحكمه بأنه قصر في حق المسيح الذي ظهر في عصره ، ولم يفعل تيبريوس شيئاً إزاء إنقاذه من براثن اليهود في يهودية (Judaea) فإننا لا يمكننا أن نحمل الإمبراطور هذا الوزر ، لانه – في الغالب – لم يعرف شيئاً مؤكداً عن حقيقة المسيح ، وعلى أكثر تقدير ، فإنه إن عرف شيئاً فمن المؤكد كان ذلك مشوها على أن المسيح عدو للديانة الرومانية وبالتالي كان رد الفعل التجاهل التام من قبل روما ، ولكن الحقيقة الثابتة – حتى الآن – هو أننا لا نملك أي دليل من أي نوع لاتهام الإمبراطور شخصياً بالقصور أو حتى لتبرأته من المساهمة في عمل ما ضد المسيح وإخفاء مثل هذا الدليل عن عمد وقصد .

وننتقل إلى نقطة أخيرة حول ما أثير ضد تيبريوس وهو بخله الشديد وأنه كان مقتراً في الإنفاق العام ، مما جعله مكروها لدي غالبية سكان روما ، عندئذ نقول أن تيبريوس كان – من ناحية أخرى – محبوباً من سكان الولايات ، لأنه حاول كثيراً أن يخفف عنهم عبئ الضرائب .

وخلاصة القول ، أن تيبريوس ، بسبب ما أصابه في سنوات حكمه الأخيرة من شك دائم وزيادة نشاط المخبرين (delatores) إعمالاً لقانون « الخيانة العظمى » (lex de Maiestate) ، وإجبار السناتوس على أن يشارك في هذه اللعبة القذرة للحكم في محاكمات الخيانة ، خلق جواً من الفساد والخوف والذعر بين الناس جميعاً ، حتى أنهم تنفسوا الصعداء عندما سمعوا خبر وفاته في ١٦ مارس سنة ٣٧م ، ولم يستطيعوا إخفاء مشاعرهم . إن تيبريوس ، برغم بعض نواياه الحسنة ، لم يكن من الأباطرة الناجحين[١٥] .

(15) Sinnigen, w. & Book, A., A History of Rome, 6th edition New York. london, 1977, p. 287.

ثانيا : كاليجولا : -

Gaius Caligula (٤١ - ٣٧)

للمرة الثانية يلعب الحظ لعبته ويصير القدر على موقفه ويأتي إلى العرش الإمبراطوري بشخص كان يعيش دائما في خوف مستمر على حياته من أن يذهب - هو الآخر بعد أمه وأخويه الإثنين - ضحية مغالاة الإمبراطور تيبريوس في شكه فيمن حوله .. ولكن الآن ، وقد مات تيبريوس ، فربما أحس الفتي بعض الراحة والإطمئنان .. لعل هذا لمكسب - في حد ذاته - هو أغلى وأفضل هدية منحها له القدر ، على حد تقديره طبعاً .. ولكن ما بالنا بتطورات لأمور .

تشاء ظروف المحيطين بالقصر ورجالات روما أن يفضلوا ذلك الخائف ، المذعور ، ابن أجريبينا الثالث من جرمانيكوس ، على ابن الإمبراطور تيبريوس نفسه جيميلوس (Gemellus) ويعضد هذا الأختيار رئيس الحرس الإمبراطوري ماكرو (Macrro) ، وذلك لإغلاق الباب على كل ما كان قد أثير حول أسرة تيبريوس كلها من لا أخلاقيات مزعومة .

لقد تأكد الآن ولأول مرة أن قيادات الحرس البرايتوري هم صناع الأباطرة على عرش روما .

ولكن هيهات لهؤلاء القادة العسكريين أن يبقوا على هذا الحال مع شاب لا مبادئ عنده ولا خبرة وذي نفس محطمة ، ومضطرب عقلياً[١٦] إنه في عام ٣٩م ، تم تحول هام في سياسة كاليجولا الذي كون قوة ، باعتباره امبراطوراً ، معارضة لكل سياسات السناتوس . وما أكثر المفاجآت بعد ذلك ،

---

(16) White & Kennedy, op. cit., p. 128.

، د ثبت للإمبراطور قيام أحد الذين يثق فيهم - وهو حاكم ألمانيا العليا بعمل مؤامرة ضد العرش ، وتوالت المؤامرات مما أجبر الإمبراطور كاليجولا على القيام باعتقالات واسعة وإعدام الكثيرين وتعذيب أعداد كبيرة من الشخصيات الهامة من المجتمع الروماني في روما(١٧) .

وعندما تحول عن بعض مشروعات حملات ضد الإلمان والإنجليز في الولايات الشمالية رجع إلى روما عام ٤٠م ، وعبر صراحة عن تغيير نظام الحكم الأوغسطي الذي ورثه ، وكان يبغي قيام نظام أوتوكراتي (autocratic) ، على غرار نظام حكم الفرد المطلق في اليونان ، وكذلك وجد في أنتظار سفارتين للسكندريين واليهود في أنتظار ردة حول اتهام كل منهما للآخر بسبب الفتنة التي وقعت بينهما منذ عام ٣٨م وقيام الوالي الروماني على مصر، أنذاك ويدعي فلاكوس (Flaccus) بمحاباه السكندريين ضد اليهود .

هنا جدير بالذكر أن نعرف أن هذا الإمبراطور المخبول تحامل هو الآخر على اليهود ، لأنهم رفضوا أن يألهوه ، وكان أن وصفهم بأنهم : « **قوم كفرة لا يؤمنون بالوهيته التي آمن بها غيرهم من الناس** » ، ثم راح يتحداهم ويسألهم عن سبب رفضهم لأكل لحم الخنزير ، مما أربك اليهود وأسكتهم وصرفهم قائلاً :

« يَبْدو لي أن مَن تَبلُغ بِهم الغَبَاوة حَداً لا يُؤمنون مَعَه بالوهيتي ، هم أَجْدَر بالرثاءِ مِنْه بالعقاب(١٨) » .

---

(17) Grant, M., Op. cit., p. 227 .

(١٨) عبد اللطيف أحمد على : مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية ، دار النهضة العربية ١٩٦٥ ، ص ١٠٠ .

وفي عام ٤١م ، ازدادت المؤامـرات من حـول شـخص الإمبـراطور وقـام بأغلبها ضباط من الحرس البرايتوري الذين اعتبروا تأييدهم السابق له كان مخـاطرة سيئـة ، وقررت مجـموعة منهم ، على رأسـهـا أحد حـراسـه ويدعي كاسيوس خايريا ، فتله ، وظلوا يطعنوه حتى فارق الحياة .

ولما كـان كـاليـجولا قـد أنهمك في ملذاته ورفـقـاء السـوء من أصـدقـائه اليونانيين والعتقاء الذين أحلوا له الرذيلة وحتي الزواج من شقيقته دروسيللا (Drusilla) ، التي رفعها إلى مصاف الآلهة بعد وفاتها ، كل ذلك جلب عليه نقمة غالبية الناس ، فضلاً عن الخراب الذي حل بالأغنياء الموسرين عقب تأميم أملاكهم ووشاية المخبرين عنهم .

إن كـاليـجـولا لم يتـرك أية بصـمـة إصـلاح فى إدارة الإمـبـراطـورية الرومـانيـة سـواء في رومـا أو في الولايات ، إلا أمـره بتـحـويل قـيادة الفـرقـة الأفـريقـيـة من رتبـة بروقنصل إلى رتبة جنرال (legatus) ، يكون مـسـئـولاً مباشرة أمام الإمبراطور[١٩] .

لقد كان كاليجولا وما قام به من مـهازل ، وصـمـة عار في جبين رومـا وتاريخـها المجيـد ، ولذلك كـان قـرار من نصبوه امبراطوراً بأن يضـعوا حـداً لهذه المهزلة ، فطعنوه وقتلوه هو وزوجته وإبنته الصغرى[٢٠] .

ثالثا : كلاوديوس (٤١ - ٥٤م)

للمرة الثـالثة - في مسلسل سخرية القدر من تاريخ روما المجيد - يأتي إلى عـرش الإمـبـراطـورية الرومـانيـة في رومـا ، رجل أبله ، وغـبي ، وجـاوز

(19) White-Kennedy, op. cit., p. 128 .
(20) M. Grant, op. cit., p. 227 .

.. مسين (٥٠) من عمره ، ولكنه لم يكن يخلو من الحكمة ، وذوا إحساس ذكي بالذوق العام وذو خيال واسع لم يتمتع به لا أوغسطس ولا تيبريوس[٢١] .

كان كلاوديوس ، عم الإمبراطور الراحل ، مضحكة القصر وموضع احتقار كاليجولا ، وقد أمسك به أحد حراس القصر من خلف الستائر داخل غرفة الجريمة عند مقتل الإمبراطور السابق ... وليتخيل القارئ لحظة الإمساك به وقد أخذ يُتهته خوفاً على حياته كما رأي بعيني رأسه المشهد التراجيدي المريع . ومرت لحظات ، تبادلت مجموعة الحرس البرايتوري فيها النظرات وفاجأ أحدهم الجميع وتوجه إلى كلاوديوس حاملاً إياه على أكتافه وهاتفاً بحياته إمبراطوراً جديداً خلفاً لكاليجولا : فماذا يمكن أن تكون مشاعر هذا الرجل ، الصامت ، العجوز ، المعوق ، الذي أثارت قصة حياته ومماته خيال الأدباء في كل العصور وراحوا يتخذون من قصته الروايات والسير المسلية دراميا[٢٢] .

وفي وصف دقيق لأخلاقيات المجتمع الروماني في هذه الفترة الحرجة من تاريخ روما [والذي بدأ في الأفول ، بعد موت المؤسس الأول للإمبراطورية ، أوغسطس ، المؤله] جاء في تعقيب الناشر لقصة كلاوديوس والتي كتبها R. Grave (أنظر هامش (٢٣)) ، ما يلي :

---

(21) White-Kennedy, op. cit., p. 129.

(٢٢) كتب العلامة Rabert Graves قصة كلاوديوس وأسماها "Claudius the God" ونشرها لأول مرة عام ١٩٣٤ ، وأعيد طبعها ما يقرب من (٣٠) مرة حتى سنة ١٩٧٩ ، والجدير بالذكر أن التليفزيون البريطاني BBC TV أخرج هذا العمل الدرامي الممتاز الذي أعتمد على كل المصادر التاريخية في كتابته لكل تفاصيل هذه القصة التراجيدية . إنها من أفضل الأعمال الأدبية في القرن العشرين التي أعادت صياغة التاريخ القديم .

The action is strange, tragic, and Ludicrous for Rome knows herself under a long-standing curse-the curse of the gods with whom she broke foith when she destroyed carthage-and has lost all moral self-control. Poison, blasphemy, treachery, incest, black magic, and unnatural vice flourish. Insane cruelties are committed. And through it all moves the strange, lovable figure of Claudius himself, despised, neglected, and apparently ineffective, but destined in the end to become Empror against his will" (٢٣)

ويذكر الأستاذ الدكتور سيد الناصري كثيراً من أوصافه وكثيراً من المراجع حول شخصيته وحياة هذا الإمبراطور ، ويقول(٢٤) :

« كما تمتع كلاوديوس بموهبة عجيبة في كسب عطف الناس ، فلقد بالغ سينيكا وتاكيتوس(٢٥) في وصفة بالغباء ولكن اعتقد أنه كان يتغابي ولم يكن غبياً ، وذلك لأنه ظهر في كثير من المشكلات دبلوماسياً ماهراً ، ولكن طيبة قلبة هي التي جعلته يتساهل في بعض الجوانب خاصة مع زوجاته وأصدقائه وموظيفيه وعتقائه » .

(أ) السياسة الداخلية :-

وقع كلاوديوس ، للأسف ، ضحية جبهتي تأثير على شخصيته الطيبة ، وكانتا هاتان الجبهتان متعارضيتن أو بالأحرى متناقضتي التأثير ، قفت زوجات الإمبراطور في ناحية وهن مسالينا (Messalina) وأجربينا الصغرى

---

(23) Robert Graves, Claudius the God, Penguin Books, edition 1979, p. 447.

(٢٤) تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، دار النهضة العربية ١٩٨٥ (الطبعة الثانية) ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٢٥) أنظر كتاب الأستاذ الدكتور إسحق عبيد ، معرفة الماضي من هيرودوت إلى توينبي › دار المعارف ، الطبعة الأولى ١٩٨١ ، ص ص ١٥ - ١٦ ، لتقييم كتابات تاكيتوس التي يشك فيها كثير من النقاد « ..... لكنه لم يكن مؤرخاً بأية حال من الأحوال ..... وافقة ضيق للغاية وهو منحاز صراحة لحزب المعارضة في مجلس السناتو ..... والخطورة في كتابات تاكيتوس أنها تشوه التاريخ .... »

(Agrippina)[٢٦] وكانتا امرأتين لاخلاق لهما وأزعجتا الإمبراطور كثيراً واستغلتا ضعفه أمامهما ، ثم الجبهة الأخرى المكونة من ثلاثة موظفين عتقاء يديرون شئون القصر وهم :

- للمراسلات : Narcissus → ab epistolis

- وكان قائما : Callistus → a Libeellis

على حفظ الشكاوي والالتماسات الموجهة إلى الإمبراطور من الأفراد العاديين ، ثم :

- وكان قائماً : Pallas → a rationibus

على حسابات القصر والإمبراطور .

وكانت نتيجة الصراع في صالح الجبهة الثانية من الرجال الذين استطاعوا إقناع الإمبراطور بإتخاذ إجراء ضد مساليتا فأمر بقتلها بعد أن شاع في روما سيطرة نساء القصر على كلاوديوس[٢٧] وعن مسالينا ودورها في القصر الإمبراطوري ودسائسها ضد رجالات القصر والمجتمع الروماني ، كتب تاكيتوس فصلاً كاملاً عنها[٢٨] لتقرأ هذا الجزء الخاص بوصول خبر مقتل زوجة الإمبراطور إليه :

"Claudius was still at table when news came that Messalina had died; whether by her own hand or anathers wos unspecified Claudius did not inquire. He called for more wine, and went on with his party as usual" [٢٩]

---

(٢٦) بنت أجريبينا الكبري زوجة جرمانيكوس ، القائد الشاب المعروف .

(27) Dio Cassius, 1x,2 : "eautokratéthe te kai cgynaihokatéthe".

(28) Grant, M.: Tacitus, The Annals of Imperial Rome, penguin Classics, (revised ed) 1971, pp. 231-251.

(29) Ibidem, p. 248. ونأسف لعدم الحصول علي النص نفسه

كان ذلك في سنة ٤٨م ، وقرر السناتوس بعد ذلك إبعاد كل تماثيل هذه المرأة من الأماكن العامة وكان له ما أراد وكسبت جبهة تاركيسوس الجولة ، وكانوا دائما ينصحونه بأفكار ماكرة ونصائح سديدة[٣٠] .

أظهر كلاوديوس احتراماً شديداً لسياسة أوغسطس واتخذ لقبه قسماً غليظاً لديه ، كما أظهر تبجيله للسناتوس ولكن القيادات الارستقراطية ساءها كثيراً اعتماد الامبراطور على العبيد والعتقاء في إدارة شئون الامبراطورية واتصاله بهم مباشرة ، ولا سيما بعد أن تعارضت ، أكثر من مرة ، مصالح هؤلاء المحرومين وتلك الطبقة المعدومة بتطلعاتها المادية مع مصالح الطبقة الأرستقراطية ورجالات السناتوس كان كلاوديوس يخطط لوضع نواة لجهاز تنفيذي جديد للإدارة المركزية في روما على أساس فكرة الدواوين والوزارات ، تقوم على أكتاف طبقة العبيد والعتقاء ، كما عرفنا من قبل بخصوص وظائف الثلاثة مستشارين من الرجال (أنظر صفحة ٩٤) .

وكان الإمبراطور كلاوديوس ، كذلك ، قد وجه ضربة قاسية للطبقة الغنية الأرستقراطية ، في عام ٤٧م ، عندما أعاد إلى الوجود وظيفة الكنسور (Censor) – الرقيب – ووضعها في يده هو ، وفعلاً استطاع أن يوقف بعدها مهازل طبقة السناتوس وتعدياتها على حساب المصلحة العامة ، كما أوقف العمل بقانون الخيانة العظمى (lex de maiestate) الذي أرهب الجميع .

كما أهتم الامبراطور شخصياً بالشئون القضائية إهتماماً خاصاً ، وسيطر معه أمناء ومديروا الشئون المالية على السلطة الفعلية في البلاد .

---

(30) White-Kennedy, Op. Cit., p. 130.

هذا بالأضافة إلى أهتمام خاص بحركة الإنشاء والتعمير فاكمل الامبراطور بناء جسور المياة العلوية والمجاري LACUS FUCINUS وافتتح طريق Via Claudia Augusta وبني ميناء أوستيا Ostia ، وأشرف على أنشاء الطرق والمرافق العامة – كما ذكرنا – كما قام الامبراطور بتسهيل أجراءات تفريغ ودخول البضائع إلى روما ، وشجع أصحاب السفن وأعطاهم أمتيازات عدة لتوصيل الغلال إلى العاصمة من الميناء ، وحرص الإمبراطور ، كذلك على تسهيل توزيع القمح الرخيص على عامة الشعب الروماني : وكان ذلك يتم تحت إشراف الإمبراطور شخصياً .

(ب) : السياسة الخارجية :-

لم يكن كلاوديوس تقليدياً في إدارته للإمبراطورية الرومانية وعمل ما كان من شأنه تغيير صورة أباطرة الرومان السابقين عليه والذين فقدوا الثقة في تيبريوس وكاليجولا ، وكان عليه عبئ ثقيل ، مما جعله يعود بسياسته إلى سيرة أوغسطس الأولي ، بل وسياسة التوسع الخارجية في عهد يوليوس قيصر الطموحة التوسعية .

لقد نجح كلاوديوس في ضم كل من بريطانيا (Britannia) عام ٤٣م ، وكذلك موريتانيا (Mauretania) عام ٤٤م ، وفي عام ٤٦م أبقي على وضع الولايات الصديقة ، مثل ولاية ثراكي (thrake) في شمال اليونان ، وجعلها ولاية رومانية بعد موت ملكها . وكان كلاوديوس في عام ٤٤م قد اعتبر ملكة يوديا (Iudaea) [يهودا] شبه ولاية رومانية ووضع عليها مسئول روماني بدرجة "Procurator"

كما حرص كلاوديوس على قيام علاقات وثيقة مع ممالك البحر

الأسود ، وقام بتطهيره من القراصنة (piratae) ، بهدف تحقيق أكبر قدر من الطمأنينة والأمان لقوافل التجارة البحرية ، في منطقة القمح الأوكراني الشهير .

ولم يفرق كلاوديوس بين روماني روما وبين سكان الولايات فقد منحهم الجنسية الرومانية ، وخاصة شعوب الغال ، وقد عين بعض زعمائهم بالفعل في مجلس الشيوخ كأعضاء وعاملين ، لهم نفس حقوق المواطنين الرومان في العاصمة .

والمفاجأة كانت في رد كلاوديوس على طلب السكندريين بعودة مجلس الشورى إليهم ، وفي رده كذلك على اليهود الذين أثاروا الفتن والاضطراب في الاسكندرية مرة ثانية ، حيث نجد دليلا لا يقبل الشك ، على دبلوماسية هذا الامبراطور ومدى حرصه على مصالح امبراطوريته وعاصمته على وجه الخصوص ويكفي أن نقرأ بعض الفقرات الخاصة بتلك الرسالة والرد الذي كتبه إليهم باليونانية : -

« .... وحيث أن هذا مقترح جديد يثار الآن لأول مرة ولا يتضح إذا ما كان سيعود بالفائدة على المدينة وحكومتي ، فقد كتبت إلى أيميليوس ركتوس (الوالي) ليبحث الموضوع ، ويخبرني عما إذا كان من الضروري إنشاؤه أصلاً ، وكيف ستكون طريقة إنشائه إذا تبين أنه ضروري » .

وفي رده على اليهود ، كان قوياً ، عالماً بكل تفاصيل الصراع ، منذ البداية ، وهو - في الحقيقة - يحاول ألا يغلق الباب تماماً - كما فعل في الموضوع الأول - بل يهدأ الخلاف ولكن يتوعد البادئ بالعدوان ، وينهي رسالته قائلاً « ولئن لم يمتثلوا لأنتقمن منهم بكل الوسائل بوصفهم قوماً

. شرون الوباء الشامل في إنحاء المعمورة . فإن كف كل منكما عن هذه الاعمال ، ورضي أن يعيش في تسامح وود مع الآخر فسوف أولي من جانبي أهتماما للمدينة التي تربطها بنا صداقة تقليدية قديمة[٣١] » .

وهنا لن أجد غضاضة في نقل تعليق أستاذي الكبير عبد اللطيف أحمد على هذا الرد ، حيث يقول :

« هذه الرسالة المتزنة التي تنم عن فطنة ولباقة دبلوماسية ، والتي أنصفت كلوديوس من المؤرخين وغيرت رأيهم فيه ، لم ترض اليهود لأنها قضت على أملهم في الحصول على مزيد من الامتيازات ، ولم ترض كذلك الاسكندريين لأنها أقرت لليهود حقوقهم وامتيازاتهم القديمة ، وأدهي من ذلك أنها أرجات البت في طلب أنشاء مجلس الشوري وهو إرجاء لم يقصد به سوي التخلص من الحرج والتهرب من مطلب لم يكن يتفق ومصلحة الامبرطور[٣٢] » .

وتجد هذه الشخصية الخيرة نهايتها على يد زوجته الأخرى (أجريبينا الصغري) ، القاسية ، التي دست له السم في طعامه حتي تضمن لابنها نيرون (Nero) العرش - وإبعاد ابن زوجها الإمبراطور الطيب ، وكان ذلك في عام ٥٤م .

---

(٣١) عبد اللطيف أحمد علي : المرجع السابق ، ص ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٣٢) المرجع نفسه ، ص ١٠٩ .

رابعا : نيرون (٥٤ - ٦٨م)[٢٣]

في أسلوب أدبي جميل ، ملئ بالصور البلاغية ظهر في الأسواق مؤخراً - نوفمبر سنة ١٩٨٦ - كتاب للأستاذ الدكتور محمود متولي جمع فيه مجموعة من طغاة التاريخ القديم والحديث على السواء ، وبدأ مادته العلمية بطاغية الرومان « نيرون » وهاكم بعض فقراته :

« وتعتبر دراسة « نيرون » دراسة لشريحة معينة من الطغيان .. لا تتكرر كثيراً في التاريخ لما تحمله من شكل القسوة والجمود .. لقد كانت أيام حكمه عذاباً لا ينسي ولحظات سلطانه ذكريات لا تمحي إلى درجة يمكن القول معها أن التاريخ خجل مما فعله ، وأن الشيطان إحتقر نفسه لأنه رأي أستاذاً له بين البشر[٢٤] » .

ولكن هذا شئ ودراستنا لهذه الشخصية وغيرها شئ آخر ... إن دراستنا للتاريخ ، بصفة عامة ، وللتاريخ الروماني بصفة خاصة هي كما إوضحناها عند پوليبيوس ، في مقدمة هذه المادة العلمية المتواضعة (أنظر صفحات ١٢ - ١٤) ، أو هي كما يقول هيجل بأن التاريخ هو تاريخ فكر وليس تاريخ أحداث ووقائع وتواريخ لكل صغيرة وكبيرة ، وبالتالي فإن التاريخ ليس سيرة ذاتية للأفراد ، مهما كانت مناصبهم ولكنه سلسلة من العلاقات والتفاعلات بين الأحداث ، في وقت ما ، وفي مكان

---

(٢٣) نيرون (هكذا باللغة العربية في صيغة الفاعل . لا يقابل الأصل اللاتيني الذي ليس به حرف « ن » = Nero ولكن بقية الصيغ الأخرى المفعول والمضاف إليه الخ بها هذا الحرف فالكلمة قاموسياً : كالتالي (.Nero, Neronis (M ، كان لقباً لاتينياً وليس قاصراً على هذا الإمبراطور ولهذا فإننا سنظل نكتب الصيغة العربية المألوفة .

(٢٤) محمود متولي ، طغاة التاريخ ، كتاب مصر اليوم (١) ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ١١ .

ما ، وبطريقة ما ، ولا يمكن لكل أولئك أن يتكرر في أي لحظة تالية للأحداث أي أن التاريخ لا يعيد نفسه أبداً .

« فمثلاً لمحاولة كتابة تاريخ الصراع السياسي بين الأباطرة الرومان والمعارضة في مجلس الشيوخ في القرن الأول ، يحتاج المؤرخ الى التغلغل وراء الأحداث ليستشف الأفكار السياسية التي كانت يعتمل في عقل الحزبين المتصارعين ، كما كانت قائمة بالفعل فليس المهم أن نعرف ما قام به الرومان من أفعال ، وإنما الأهم هو أن ندرك ما كانوا يفكرون فيه حتى أقدموا على هذه الأفعال بالذات[٣٥] » .

عندئذ ، يجب علينا [تطبيقاً لمفهوم هيجل لمعرفتنا بالتاريخ وكيف أنها معرفة قبلية أو أولية (A PRIORI) أو هي معرفة حتمية لتطورات لازمة الحدوث[٣٦]] أن نجمع المادة التاريخية من الوثائق أن نستشف ما وراء هذه الوقائع التاريخية الوثائقية من أفكار معينة ربطت بين تفاصيلها[٣٧] .

إن هذا هو ما فعله ونحاول أن نطبقة على موضوعات التاريخ الروماني الذي ندرسه الآن ، وبالتالي ليس المهم هو تفاصيل الأحداث السياسية وحياة الأباطرة ، إلا بالقدر الذي يوضح ما وراء الأحداث من أفكار ومبادئ ، في كل الميادين ، إجتماعية أو ثقافية[٣٨] ، ولهذا سوف نتبع هذه الدراسة الموجزة لسياسات الأباطرة ، بعرض كافي للحياة الاجتماعية والثقافية وعلى وجه التحديد في القرنين الأول والثاني الميلادي ، وذلك حتى تكتمل الصورة وتتضح أبعاد الفترة التاريخية .

---

(٣٥) إسحق عبيد ، معرفة الماضي ، دار المعارف ، ، الطبعة الأولى ١٩٨١ ، ص ٨١ .

(٣٦) إسحق عبيد ، المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(٣٧) المرجع نفسه ، ص ٨٣ .

(٣٨) هنا نختلف مع هيجل الذي قصر الدراسة التاريخية على النظم السياسية .

وصل نيرون إلى العرش الامبراطوري في هدوء وذلك بمساعدة مربيه الكاتب الكبير والفليسوف سينيكا (Seneca) وكذلك رئيس الحرس البرايتوري بورروس (Burrus) .

هكذا وللمرة الثالثة ، يلعب الحرس البرايتوري لعبة صنّاع الأباطرة - التي ظهرت بعد أوغسطس ، ومازالت حتى الآن (٥٤م) - وهكذا ، أيضا ، للمرة الثانية ، تزداد ضراوة السلوكيات اللاأخلاقية والتكالب على العرش والسلطة والنفوذ بأي السبل ، ووصلنا في ذلك إلى أن قتلت الزوجة زوجها .

شاب ، بل غلام ، مدلل ، ربته امرأة ، ذو ستة عشر عام ، يحكم امبراطورية ، هي أقوى وأكبر كيان في ذاك الزمان ، من أب نبيل عرف بأنه أغلظ الناس قلباً وأقساهم طباعاً[٢٩] وقام على تثقيفة فيلسوف عصره ، سينيكا وهيأه بالفعل - خلال خمس سنوات متصلة منذ عام ٤٩م - للقيام ، قدر الستطاع ، بأعباء الإمبراطورية داخلياً على الأقل . هذا كله بالأضافة إلى أم متسلطة تريد أن تجمع كل الخيوط في أيديها هي ، ولم تضع ابنها على العرش إلا صورة وغطاء يخفي ممارساتها الفعلية ، فماذا يمكن أن نتوقع من كل هذا التضارب في التأثير على شخصية غلام لم يكتمل نضوجة وليس لديه خبرة ؟!

لقد استطاعت الأم اجريبينا (AGRIPPINA) أن تسيطر على زمام الأمور بيدها لمدة قصيرة ، ولكن سرعان ما نهض الأبن نيرون بأعباء الحكم الامبراطوري ، وحاول القيام ببعض الإصلاحات انطلاقاً من بعض الأفكار الليبرالية فيما يخص تعديلات ضرائبية ومنع ألعاب ومنافسات المبارزة الانتحارية (Gladiatores) ، التي كان يفضلها كلاوديوس .

---

(٢٩) سيد الناصري ، المرجع السابق ، ص ١٥٩ .

وعندما ثبت عدم إمكانية تحقيق وتنفيذ تلك الأفكار ، فقد نيرون الرغبة لإصلاح – واندمج في إهتمامات أخري تتفق وسنه ، مثل سباق العربات والموسيقي والمسرح وسهرات المجون والعبث ، مما أطلق يد سينيكا وبوروس لتسيير دفة الأمور في الإمبراطورية ، ومن خلفها مساندة رجالات السناتوس الأقوياء .

هنا نشأ صراع بين جبهتين ، جبهة الأم وجبهة مستشاري الامبراطور الصغير الذي بدأ يحس بمضايقات الأم في كل تصرفاته ، وأراد أن يتخلص منها نهائياً فأمر بقتلها ، وتمت المؤامرة باغراقها ، عام ٥٩م ، وكانت هذه هي ثاني جريمة يقدم عليها هذا الصبي ليتخلص ممن حوله ويحاولون التأثير عليه أو تحديد تصرفاته ، الجريمة الأولي كانت عام ٥٥م ، أي بعد عام واحد من توليه العرش ، عندما خطط لقتل بريتانيكوس (Britannicus) بن كلاوديوس الإمبراطور السابق ، ونفي كذلك ابنة الامبراطور نفسه ، أوكتافيا (Octavia) حتى لا يبقي أي أثر لوراثة العرش الشرعية .

وعندما مات بوروس عام ٦٢م ، وتقاعس سينيكا عن مساعدة الامبراطور ، بعدما فقد مساعدة الأول ، وأدرك استحالة الاستمرار مع نيرون ، انزاحت من أمام نيرون كل المعوقات وبدأ يتصرف وفق هواه .

أصبح تيجللينوس (Tigellinus) مستشاراً جديداً للامبراطور ، وكان رجلاً وصولياً خطيراً عينه نيرون كذلك رئيساً للحرس البرايتوري ولا يحالف للامبراطور رغبة حتي أفلست الخزانة العامة من كثرة المصروفات والبذخ الخرافي ، مما ألجأه إلي مصادرة الأموال وتعين مسئول من الحرس على

الخزانة العامة ، بدلا من السناتوس ، فضلاً عن إرجاع قانون الخيانة العظمي إلى الوجود فعاد الوضع السيئ إلى سابق عهده إبان حكم كاليجولا ، وراح ضحية ذلك العديد من نبلاء المجتمع الروماني بحجة الخوف من المؤامرات ضد العرش .

وفي عام ٦٣م أنجب من عشيقته بوبياسابينا (Poppaea Sabina) ، ابنة لم تعش طويلا ، وكان قد تزوج بهذه العشيقة بعد طلاقة لزوجته الشرعية (أوكتافيا ، بنت كلاوديوس) وقتلها بفظاعة شديدة[٤٠] .

وفي عام ٦٤م ، كانت روما قد تعرضت لحريق كبير عاقبت الحكومة عليه الفئة المسيحية القليلة المتواجدة في روما وكانت هناك شكوك حول اشتراك الامبراطور في اشعال هذه النيران بالمدينة ، ولكن هذه الشكوك زادت ووصلت إلي درجة اليقين[٤١] ، عندما أدرك الشعب الروماني أن الامبراطور أمر ببناء قصر منيف له[٤٢] ، وتم بالفعل ، على نفس الأراضي التي احترقت وفي هذا الخصوص ، يوكد د. سيد الناصري أنه « **لا يوجد دليل مادي واحد على صحة هذا الأتهام وأختلف المؤرخون القدماء في ذلك**[٤٣] .

---

(٤٠) يذكر تاكيتوس (Penguin classics, op. cit., p. 343) أن رجال نيرون ربطوا أوكتافيا وقطعوا كل أوردتها الدموية ، التي أجل الخوف والرعب نزيف دمها ، فوضعوها في حمام بخار ساخن للغاية وخنقوها ، ثم ما هو أفظع فإنهم قاموا بقطع رأسها وأخذت إلى روما حتى تراها بوبيا العشيقة .

(41) Grant, M., Op. Cit., p. 230.

(٤٢) لقد بلغ البذخ حداً بعيداً لبناء هذا القصر الذهبي (Domus aurea) لما فيه من تماثيل ضخمة وحدائق كثيرة وبحيرات صناعية .

(٤٣) المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

وفي عام ٦٥م ، تزعم أحد رجالات السناتوس مؤامرة ضد الامبراطور ... ب ، وكان هو السناتور بيزو (Piso) ، ولكن انكشف أمره هو وأعوانه وكان مصيرهم الإعدام مثل كثيرين آخرين لاعتراضهم على الإرهاب الامبراطوري . عندئذ تدهورت سمعة الامبراطور تدهوراً واضحاً في روما ولا سيما عندما ظهر على السرح ، أمام النظارة ، ليقدم أولى أعماله الفنية في نفس العام ، وكانت هذه الفضيحة لامبراطور روما (والتي صُعق لهولها رجالات السناتوس المحافظين) هي الحرك الأول للمؤامرة السابقة الذكر .

والأكثر غرابة أن نيرون أجبر كوربولو (Corbulo) [والذي كان قد أصبح بطلاً قومياً بفضل إنتصاراته العسكرية في أرمينيا] على الانتحار وكذلك فعل نفس الشئ مع شخصيات أخرى مرموقة ، سواء قادة عسكرين أو رجال فكر ، مثلما فعل مع سينيكا ، إنه كان يخاف أولئك جميعاً ، مما جعل الجميع ، على أختلاف مواقعهم ، يؤمن بأن دوام الحال من المحال ، وبالتالي فكروا جميعاً في التخلص منه ، وأن يتغدوا به قبل أن يتعشي بهم .

هكذا كانت سياسة نيرون الداخلية ، إن جاز لنا أن نستخدم هذا المصطلح على هذا الخصم من الصراعات الدموية وعمليات الاعدام المستمرة لشخصيات رومانية كبيرة وكفاه هو حب الظهور والاهتمام بالثقافة اليونانية بما فيها ألعابها[٤٤] .

وحدث في عام ٦٨م ، أن قامت ثورة بقيادة قائد يدعي (فندكس) Vindex حاكم جاليا الوسطى ، ولكن جاليا (Galba) حاكم أسبانيا [الذي لم

---

(٤٤) ذهب نيرون إلى اليونان وشارك في الألعاب الأولمبية ، حيث تملقوه وفاز في معظمها ، عام ٦٧م ، ولذلك أعطي اليونان حريتها واستثناهم من دفع الضريبة .

يكن علي علاقة طيبة مع نيرون] كان قد اتصل بڤندكس سراً ، ولحق به أوتو (Otho) [زوج پوبيا السابق ، عشيقة نيرون وزوجته الآن] ، ونادى به جنوده إمبراطوراً ، وقد أكد السناتوس ذلك في روما ، وأعلن الحرس الپرايتوري تضامنه مع جالبا ، عندئذ أدرك نيرون سوء موقفه ، فهرب ومعه بعض رجاله المخلصين ، وفقد عقله وراح يصرخ قائلاً : واحسرتاه علي ، أنا الفنان ، ألقي حتفي ! Qualis artifex pereo! (٤٥) .

ودفع بخنجره إلى عنقه ومات منتحراً ، في يونيو عام ٦٨م .

هنا تنتهي أخر صفحات الأسرة اليوليوكلاودية أو – كما سميناهم نحن – خلفاء أوغسطس الأول .

---

(٤٥) وعن أخر أغنية غناها (٢١) نيرون قبل انتحاره . انظر : Suetonius, Nero, 471. 15.

الفصل الثاني

« عام الأباطرة الأربعة »

أو عام الثورات (٦٨ - ٦٩م)

عاش أباطرة الأسرة اليوليوكلاودية حياة كلها ترف ولهو وعبث ، ينعمون بالسلام والإستقرار الذي وضع أوجستوس (Augustus) دعائمه ، واستمر حوالي مائة عام تقريباً (من عام ٣٠ ق. م. وحتى عام ٦٨ م) .

ولكن لا يمكن للأمور أن تسير إلى الأبد على هذا النحو ، لأن الإستقرار سواء الداخلي أو الخارجي لا يكون إلا ثمرة قوة قبضة الأداة الحكومية إدارياً وعسكرياً ، ومن ثم فإن الأباطرة الذين خلفوا أوجستوس ، ولما كانوا لا يمكن مقارنتهم بعظمته وإنجازاته التي فرضت وخلفت ما عرف بإسم « السلام الروماني » الذي عم كل أنحاء الأمبراطورية ، وراح الجميع يوغلون في خيراته التي عمت كل فئات شعب مدينة روما ، تناسى الجميع ، كذلك ، واجبتهم في الحفاظ على هذه المكاسب الضخمة .

نعم ، لقد كان أوجستوس على حق عندما أشفق على الشعب الروماني من بطئ خليفته ، تبيريوس ، فما بالنا بالآخرين الذين جاءوا من بعد هذا الامبراطور العظيم ، أوجستوس ، مؤسس ذلك النظام الدستوري الجديد ، الذي فصله تفصيلاً لحسابه الخاص .

لقد كان خلفاء أوغسطس (أو أوجستوس . يحسب النطق الصحيح للكلمة اللاتينية ، كما ذكرنا ذلك من قبل) أباطرة ضعاف ، لكل منهم نقيضه أو عيب خطير في شخصيته ، وكانوا صنيعة قيادات الحرس البرايتوري داخل القصر الامبراطوري ، وحقاً ، كانوا أباطرة الصدفة ، وكان الحراس هم صناع أباطرة تلك الفترة في تاريخ روما القديم .

وفي عام ٦٨ م ، وبإنتحار نيرون ، تصارع على السلطة قيادات الجيوش الرومانية ، وصل إلى عرش روما الامبراطوري ، أيهم أقوى وأكثر سنداً من غيره ، وذلك بفضل قادة الجيوش الأخرى .

إنه ، بعد أوجستوس ، إزداد ضعف الأباطرة لأنهم لم يكونوا على مستوى المسئولية الخطيرة لمن يجلس على العرش الإمبراطوري ، فظهروا أقزاماً أمام قيادات الجيش ، وفاض الكيل بهم واستبد بهم القلق على مصير الامبراطورية كما زادت طموحاتهم فليسوا هم بأقل قدرة أو مكانة من أولئك الصبية الذين يتناوبون عرش روما ، وكلهم نقائص ، يلعبون بالمؤسسات المتعارف عليها . وأهمها السناتوس ، ويكيلون الضربات للطبقة الارستقراطية النبيلة (Patricii) . التي كانت يوماً ما هى المسئولة عن مقدرات الشعب الروماني السياسية ، فكان منهم زعماء السناتوس ، وكذلك العسكرية إذ كان منهم أعظم قادة جيوش روما قبل ذلك .

آن الأوان ، إذن ، بعد مرور حوالي (١٠٠) عام على نظام « المواطن الأول « Principatus » الذي لم يجرؤ قائد واحد على أن يقف أمامه . ولكن الآن ، عام ٦٨م وبعد صور الفشل المتكرر والمهازل والفضائح الدائمة لأباطرة روما ورجالات القصر الامبراطوري ، كان لابد من تدخل العسكريين لإنقاذ الموقف .

أولاً : جالبا (Galba)

جاء جالبا ، وقد بلغ من العمر (٧١) عاماً ، إلى عرش روما ، وكان أول حاكم ، من خارج الأسرة الامبراطورية ، يجلس على عرش البلاد . كما قال بذلك جرانت : "and the Fact he was the first ruler to come from outside that imperial house is his principal signifi cance[1] ."

كان جالبا قد وصل بقواته ، في هدوء ، إلى روما في أكتوبر ٦٨م ، بمجرد انتحار نيرون ، ولكنه لتشدده ، وتطرفه ، أقدم على قتل عدد من البحارة كانوا قد جاؤا لمقابلته مما ترك أثرا سيئا في بدايه حكمه ، فضلا عن وضاعته أمام المال وسوء أختياره لمستشاريه ، كل ذلك ساعدفي الإسراع بإبعاده عن السلطة وإحساسه بعدم الأمان ، وانتشرت الأنباء السيئة عنه وفي أوئل العام الجديد، عام ٦٩ م ، تحرك جيش ألمانيا العليا ودمر تماثيل جالبا ، وطالب السناتوس والشعب الروماني باختيار خليفة جديد ، ولكن قوات ألمانيا السفلى في اليوم التالي كانت قد نادت بامبراطور جديد ، لحسابها الخاص ، كما هو معروف ، وهو (ڤيتلليوس) Vitellius وقبلت قوات ألمانيا العليا هذا الترشيح الجديد وأيدته .

لقد صدق وصف تاكيتوس (Tacitus) لجالبا عندما قال « كان أفضل الشخصيات ، ولكنه يا ليته لم يحكم » .

ولكن جالبا ، لم يكن سهلا عليه أن يسلم الأمور بمثل هذه البساطة ففكر لأول مرة في تاريخ الأمبراطورية الرمانية ، وسيصبح ذلك تقليدافيما بعد كما سنري في تبني آخر ، كآخر أمل - لا سيما أنه ليس لديه أبناء - في الخطوة أحزنت كثيرا صديقه ومسانده الأول القائد أوتو (Otho) - حاكم

(1) Grant, Op. Cit., p. 231 .

لوزيتانيا Lusitanis (البرتغال حاليا) ، مما زاد في حنقه عليه ، ودبر مقتل جالبا بنفسه ، ليصبح أول أمبراطور روماني يرتب عملية التخلص من سلفه ، وكذلك أتم القضاء على كل مستشاريه وبالطبع أعدم خليفته المزمع تبنيه على أيدي جالبا[٢] ، كل ذلك في يوم ١٥ يناير عام ٦٩م هكذا كانت بداية حكم أوتو درامية إلى أبعد درجة .

ثانيا : أوتو : Otho

بعد الإنتهاء من عمليات القضاء على أذناب جالبا وما تبع ذلك من إجراءات مرعبة ، هدأت الأحوال ، وبدأ أوتو حكمه بإظهار الإعتدال .

نال أوتو تأييد وموافقة القوات الرومانية المرابطة في كل من مصر وشمال أفريقيا وفرق الدانوب والفرات ، وبالرغم من ذلك كان عليه أن يواجه تأييد الفرق الرومانية في ألمانيا لشخصية أخرى هي فيتليوس ، والذي نادت به امبراطورا ، بل كان عليه أن يتصرف ازاء تحرك تلك القوات في إتجاه الجنوب صوب روما .

تسرع أوتو في مواجهة قوات فيتليوس القادمة عند نهر بو (Po) ولم ينتظر المساعدة من قوات الدانوب ، وكان أن هزم هزيمة نكراء في بلدة كريمونا (Cremona) ، مما اضطره إلى الإنتحار في ١٦ ابريل من نفس العام (٦٩م) ، وكان أن سهل ، بذلك المهمة أمام قوات القادم الجديد من الشمال الألماني ، فدخلوا روما ، وجلس فيتليوس ، على عرش روما ، وسارع السناتوس بالإعتراف به امبراطورا جديدا .

---

(2) Ibid., p. 232 .

ثالثا : فيتيليوس Vitellius

أنه بالرغم من أن ڤيتليوس كان رجلا ذا قدرات عادية ، إلا أنه رفض أن يقلد سابقيه في تقلد ألقاب « قيصر » و« أوجستوس » – كما فعل كل من جالبا وأتو .

حرص هذا الأمبراطور الجديد – عقب صراع مسلح مع غريمة أتو ، ضاربا النموذج والمثل الثاني لصراع القادة العسكريين الدموي (لأول مرة في تاريخ الأمبراطورية الرومانية بعد الحروب الأهلية فيما قبل الميلاد) – على أن يؤكد سيادة السلطة القنصلية ، ودوامها ، كأساس لحكمه ، وأعتمد على قدرته في تكوين أسرة سياسية جديدة ، عكس سلفه ، ولا سيما أنه كان لديه ابن أكبر ، يورثه العرش .

ولهذا نراه يبعد الحرس البرايتوري الذي كان على عهد أوتو ، ويغيره بقواد من فرقه الخاصة ، ولكنه بمجرد أن وصل إلى العاصمة روما ، أحزنه ما علم أن الفرق العسكرية الرومانية في الشرق قد غيرت ولاءها وحولته إلى قائد آخر وهو فسباسيانوس (Vespasianus) حاكم يُودايا (Judaea) المملكة اليهودية التي ثارت في وجه الحكم الروماني .

وحملت الأيام كذلك أخبارا أسوأ ، فقد فعلت فرق الدانوب نفس الشئ وهكذا فقد فرضت الأوضاع الجديدة ، بهذه الصورة على القائدين ، على أعتاب حرب أهلية رومانية جديدة ، في سبيل الوصول إلى عرش روما ، حرب للمرة الثالثة لا محالة .

ويشاء القدر أن فيتيليوس يعطي نفس الدرس الذي أعطاه لسلفه أوتو فتأتي هزيمته على أيدي أحد قواد ڤسپاميانوس، يدعي بريموس (Primus)

في نفس المكان ، كـريمونا (Cremona) ، والذي كان فيتيليوس قد هزم فيه أوتو ، ويهرب فيتيليوس ويتم القبض عليه بواسطة الجيش الغازي لروما من قوات روما الخارجية في الولايات الشمالية (ويالها من سخرية) ، وما أشبه الليلة بالبارحة ، عندما دخل يوليوس قيصر روما بالقوة رغما عن أنف السناتوس) !!!!!!! روما تهزم على أيدي قوات رومانية !!!!!!!! .

لقد استطاعت قوات موكيانوس (Mucianus) أخلص رجال فسباسيانوس له ، أن يحد من طموحات بريموس ، ويحكم روما بأسم الأمبراطور الجديد لمدة حوالي (١٠) شهور إلى أن استقرت الأوضاع ودخل الأمبراطور الجديد (القادم من الشرق ، وهازم اليهود ومدمر ثورتهم) روما منتصرا .

رابعا : فسباسيانوس Vespasianus
(٧٠ - ٧٩م)[٣]

إننا إذا أردنا أن نصف فسپاسيانوس في إيجاز شديد ، ولو في جملة واحدة ، يمكننا القول بأنه كان صورة مصغرة من أوجسطوس (Auguatus) مؤسس الأمبراطورية الرومانية .

ولكن قبل الدخول في سيرته الذاتية وأعماله ، يجب أن نسلط الضوء على ما يخص دور مصر ، في صراع الأباطرة ، فإنها وقفت إلى جانب فسباسيانوس ، وهو موقف أغفله تاكيتوس ، ربما عن عمد ، ولكن القدر أعطاها حقها عندما تم كشف النقاب عن قصاصة بردية ، تحكي كيف أن الأسكندرية رحبت ترحيبا كبيرا بتمرد فسباسيانوس ومناداة جنده له ليصبح

(٣) يذكر أستاذي الدكتور / عبد اللطيف أحمد علي (مصر والإمبراطورية الرومانية ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٣٩ ، أن فسپاسيانوس حكم عشر (١٠) سنوات من ٦٩ إلى ٧٩ م .

امبراطورا على روما بدلا من فيتلليوس وكانت الأسكندرية (كما يقول بذلك الدكتور العالم ، أستاذي الفاضل ، عبد اللطيف أحمد علي[٤]) . « تحمل ضغنا لروما منذ أيام أكتيوم ، فلما سنحت لها الفرصة شفت غليلها وتزعمت حركة التمرد على غريمتها » .

وهاكم بعض ما جاء في سطور بعض أجزائها[٥] .

يقول الوالي الروماني على مصر موجها حديثه إلى الأمبراطور صحة طيبة ومقدما سعيدا مولاي قيصر !! وترد الجماهير هاتفة .

« أيها المنقذ الأوحد والمصلح فسپاسيان ، أي مولانا الجليل الخير سرابيس ، وابن آمون ، فلتبق لنا الوالي سنوات طويلة » .

لقد شاركت مصر بصورة إيجابية في تنصيب الأبمراطور الأخير من عام الأباطرة وهو فسباسيانوس ، الذي خطط جيدا لتلك الزيارة لكسب مزيد من التأييد ، وصل إلى حد تأليهه[٦] ، وربما أيضا لتهديد فيتلليوس ، عريمه على عرش روما بقدرته على قطع امدادات القمح المصري إلى روما[٧] .

ومن الطريف أن تذكر المصادر التاريخية معلومات أخرى ، هي تطور لموقف السكندريين واليونانيين الآخريين في ريف مصر . وكيف أنهم انقلبوا ضد الأمبراطور بعد ذلك - بعد أن تيقنوا من أنه كغيره من أباطرة روما لا يهمه سوى الجزية السنوية التي يجب أن يدفعونها إلى خزانة روما ، وبعد أن خيب ظنهم وفرض عليهم ضرائب جديدة واخضعهم لضريبة الرأس كذلك امتهانا لهم . وهكذا ذهب تعلق اليونانيين أدراج الرياح ، ولم يغير ترحيبهم

(٤) مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ١٤١ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ١٤٣ .

(٦) لم يكن لقب « إله » (Theós) يخلع على الأباطرة - في الوثائق وهم أحياء .

(7) Grant, Op. Cit., p. 233 .

في الأسكندرية من مواقف المرشح الجديد ، لعرش روما ، ولهذا سلطوا عليه ألسنتهم وراحوا يصفونه بأقذع الألقاب ، مثل تاجر الأسماك المملحة [٨] ، وأنه لا يعترف كيف يتصرف تصرف القياصرة[٩] .

١ - سيرته الذاتية : -

كان شخصية حازمة من أصل غير مرموق كأسلافه ، ينحدر من طبقة الفرسان ، وكانت له ميول وإهتمامات واضحة يفخر بها .

يقول عنه جرانت "He was a man who, although in basic matters autocratic enough, was easy to get on with and accessible. Yet he worked without stopping, and he decided methods, which made him things by prosaic, common-sense, ens of the most effective of all the emperors[10] ".

إنه لم يكن قبيل الصدفة أن يعيش أسلافه لمدة شهور قلائل لكل منهم ولكنه هو الذي استمر يحكم لمدة (١٠) سنوات ومات ميتة طبيعية في نهايتها .

« لقد كان أفضل من أسلافه الثلاثة بكثير » .

كان امبراطورا ، أرسلته العناية الآلهية لإنقاذ روما فكان الرجل المناسب في الوقت المناسب ، بعد أن عمّ روما الخراب والدمار وساد التدهور أرجاء الإمبراطورية .

كان فسباسيانوس ، بحق ، قدوة صالحة لكل الناس ، فكان رمزا للبناء والتشيد ، وكان يحمل التراب والرماد بنفسه ويساعد العمال ولم يهدأ أبدا ، وكان اداريا ناجحا ، دقيقا ، حازما ، بخيلاً في الترف ومقترا في

(٨) عبد اللطيف أحمد علي : المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(٩) المرجع نفسه .

(10) Grant, M., op. cit., p. 230.

الإسراف ، الذي عرف عن السابقين ، عمليا إلى أقصى درجات الواقعية ، غير مهتم بالمظاهر . ولكنه أنفق على مشاريع العمران وترميم المباني العامة وأعاد بناء الكابيتول ، وأهتم بدية جباية الظرائب ، حتى على المراحيض في داخل روما .

كما أعاد منصب الرقيب (٧٣ - ٧٤ م) حتى يستطيع أن يطهر السناتوس من أعدائه وادخال العناصر المؤيدة له .

ونهاية المطاف ، أشرك ابنه كخليفة له ، وحمله مسئولية إخماد ثورة اليهود نهائيا في أورشليم ، وفعلا تم له ما أرد .

هكذا عرضنا لأهم مراحل تطور التاريخ الروماني بإيجاز شديد ومن منظور دراسي مصري ، يهمه - في المقام الأول ح الخطوط العريضة التي جعلت من هذا التاريخ (لهذه المدينة الصغيرة التي لم تكن شيئاً مذكورا وفي عدة قرون قليلة استطاعت أن تفرض سيادتها على كل إيطاليا ، وتمد سلطانها على كل الأقاليم الواقعة حول البحر المتوسط ، وعندئذ حق لها أن تسميه « بحرنا » (Mare nostrtum) حلقة لا غني عنها للباحث الذي يريد أن يلم بالحلقات الكاملة لتطور تاريخ المنطقة التي نعيش فيها ، وكان لحضارتنا القديمة على أرض مصرنا الحبيبة ، يوما ما ، دور بارز في تحديد مجريات الأمور والتويهات السياسية البارزة على خريطة العالم القديم .

تم بحمد الله

ANCIENT SOURCES

1 LATIN HISTORICAL WRITERS

AMMIANUS MARCELLINUS, c. AD 330–95; born at Antioch in Syria (Antakya in S.E. Turkey). History (*Rerum Gestarum libri*) of years AD 96–378 (Books 14–31 about AD 353–78 survive).

CAESAR, Gaius Julius, 100–44 BC. Dictator, seven books of *Commentaries* on Gallic War (eighth is by Aulus Hirtius), three on *Civil War* (the concluding books on African, Alexandrian and Spanish wars are by other authors).

CASSIODORUS, c. AD 490–583; born at Scylacium (Squillace) in S. Italy. Extant examples of his numerous works include the *Chronica*, a brief summary of Roman history to AD 519. See also JORDANES.

EUTROPIUS, fourth century AD. Survey (*Breviarium*) of Roman history from beginning to AD 364.

FLORUS, ANNAEUS (?), second century AD; born in North Africa. *Epitome* of Roman history to wars of Augustus.

HISTORIA AUGUSTA, ostensibly the work of six authors (probably pseudonyms); apparently of the later 4th century AD. Partly fictitious 'biographies' of Roman emperors, Caesars and usurpers from AD 117 to 284 (gap for 244–59).

ISIDORE, bishop of Hispalis (Seville), AD 602–36. Numerous works included history to his own times (*Chronica Majora*) and a history of the Goths.

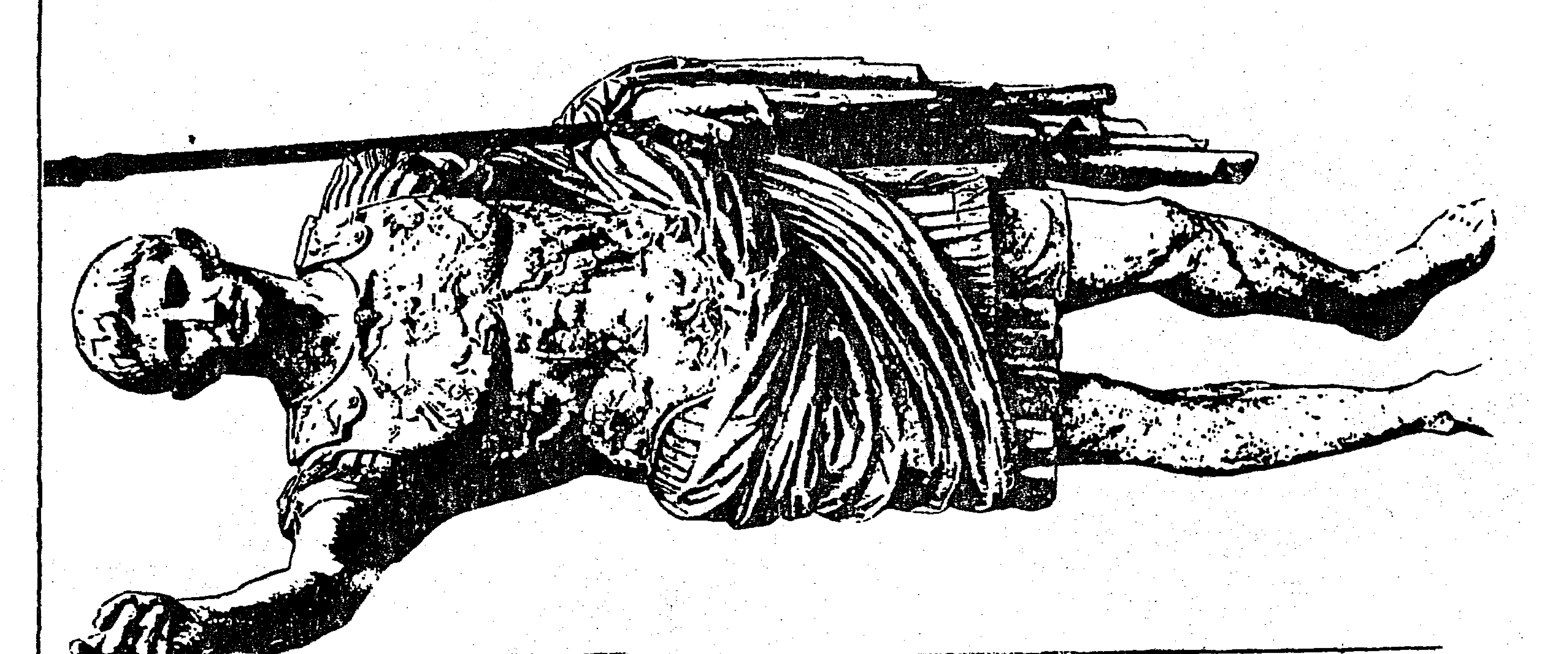
JEROME, SAINT (Eusebius Hieronymus), c. AD 348–420; born at Stridon in Dalmatia. His historical works include a *Chronicle* of ancient events and short biographies of Christian writers (*De Viris Illustribus*).

JORDANES, mid-6th century AD; probably a Goth from the lower Danube. Summaries of Gothic and Roman History, former summarizing the *Gothic Histories* of Cassiodorus (q.v.).

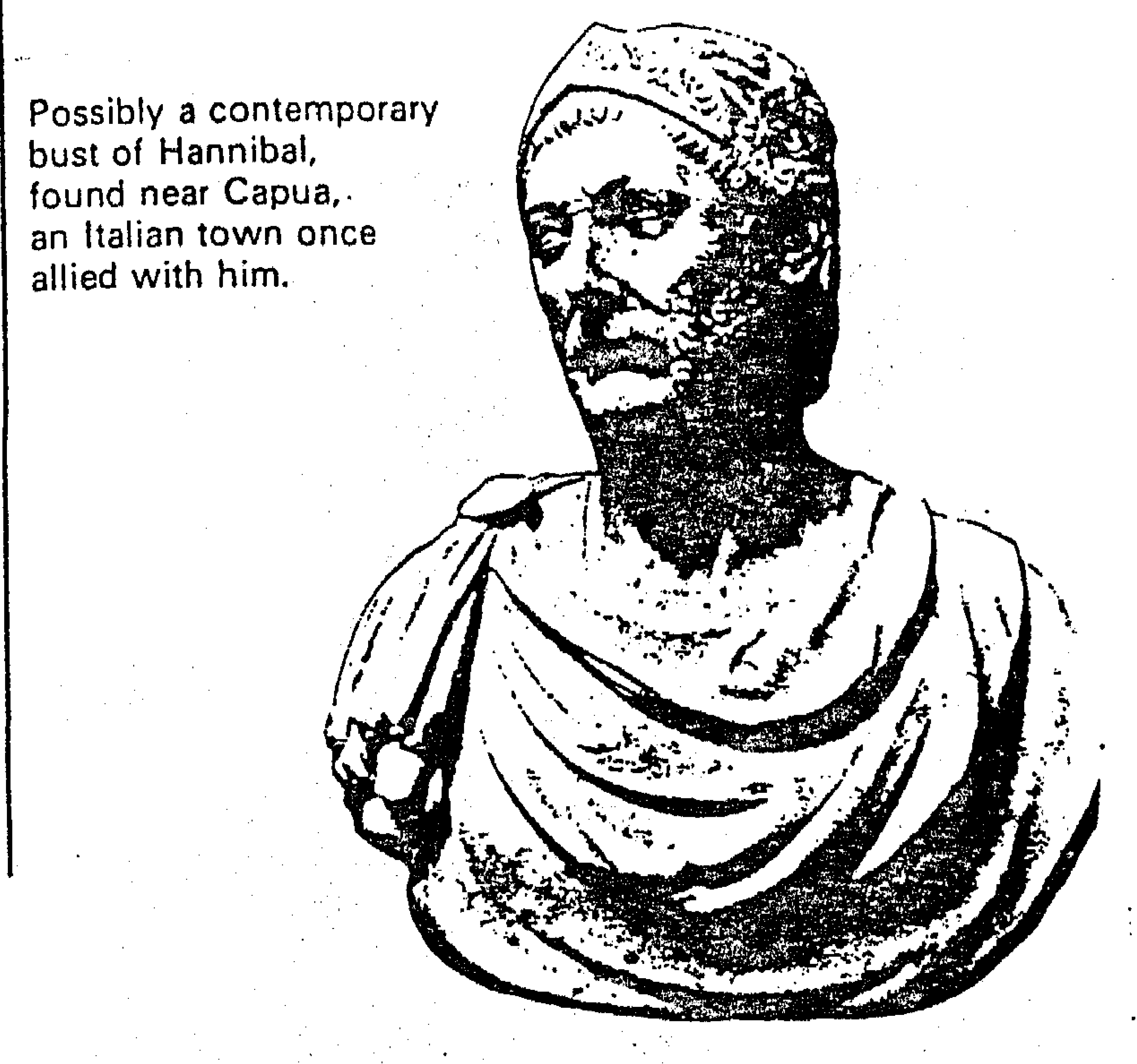
LIVY (Titus Livius), 59 BC–AD 17 or 64 BC–AD 12; born at Patavium (Padua in N. Italy). History of Rome (*Ab Urbe Condita*, to 9 BC) in 142 books, of which 35 are extant, covering the periods 753–243 and 219–167 BC. From the lost books we have fragments and excerpts, and there are two sets of abridgements.

NEPOS, Cornelius, c. 99–24 BC; born in North Italy. Out of various works 24 short biographies survive.

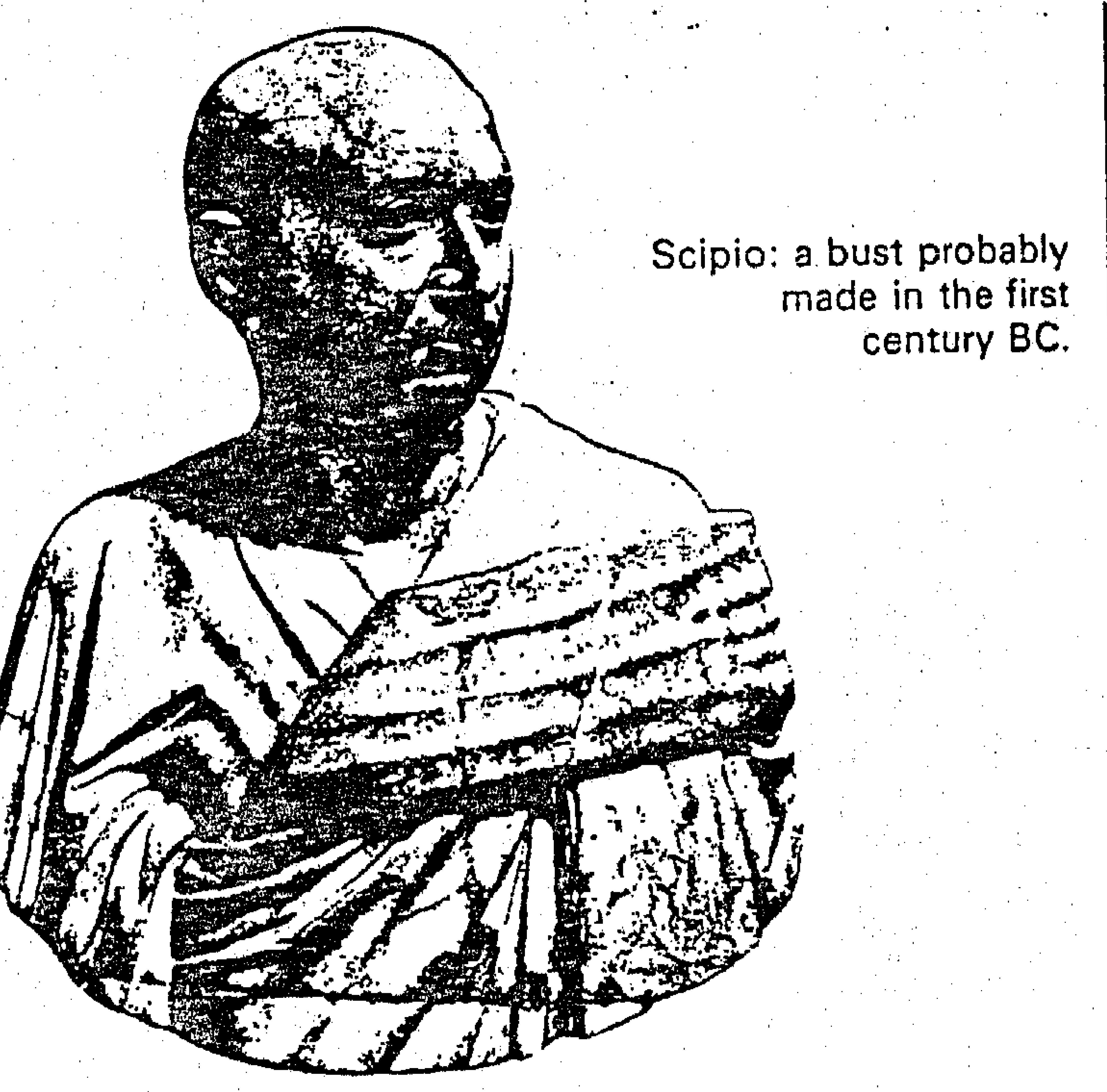
OROSIUS, Paulus, early 5th century AD; probably born at Bracara Augusta



A memorial statue to AUGUSTUS, showing him in full imperial dignity.



Possibly a contemporary bust of Hannibal, found near Capua, an Italian town once allied with him.

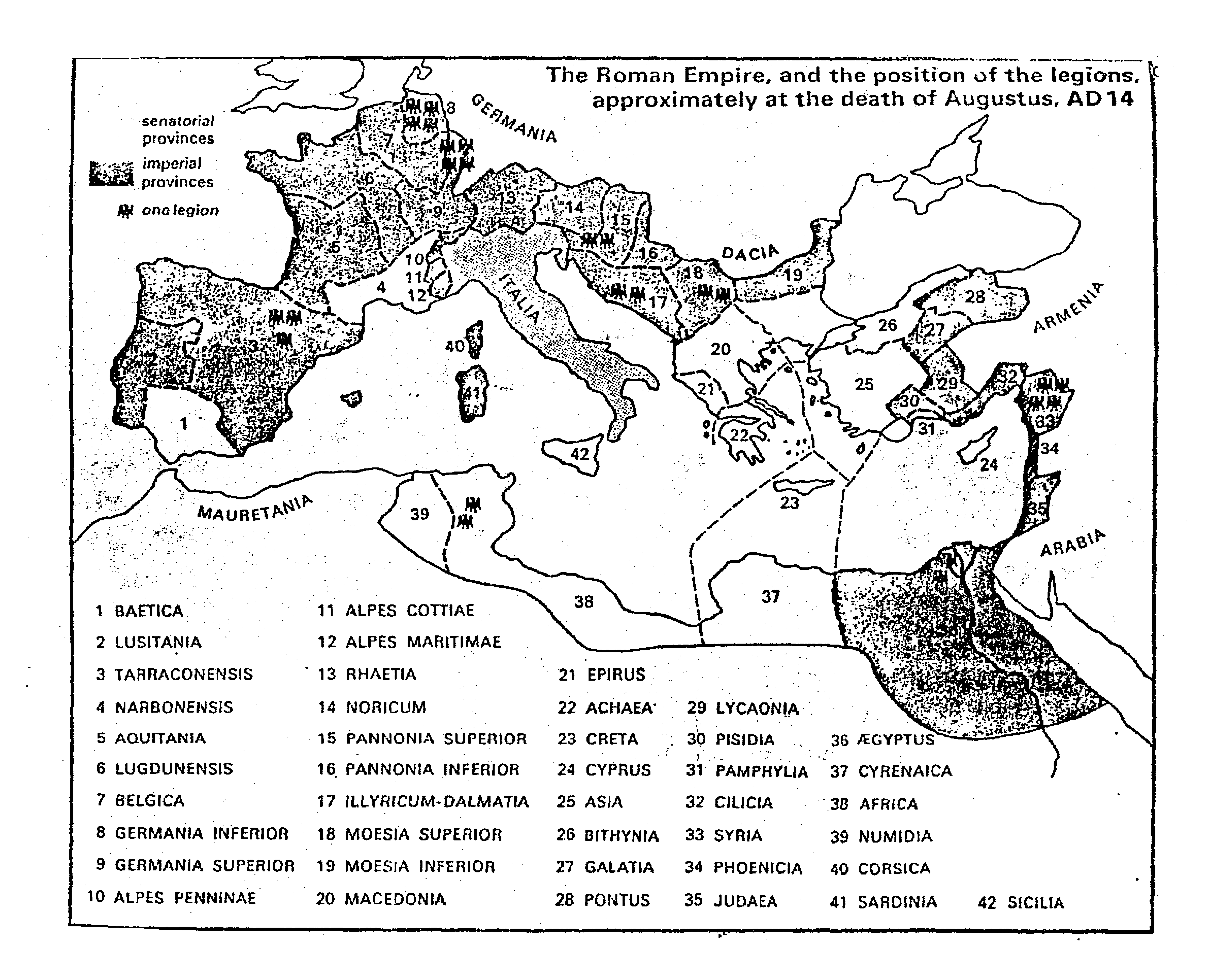


Scipio: a bust probably made in the first century BC.

Julius Caesar.
A portrait bust
of the first
century AD.



Cleopatra: a tetradrachm
minted at Ascalon, 49 BC.

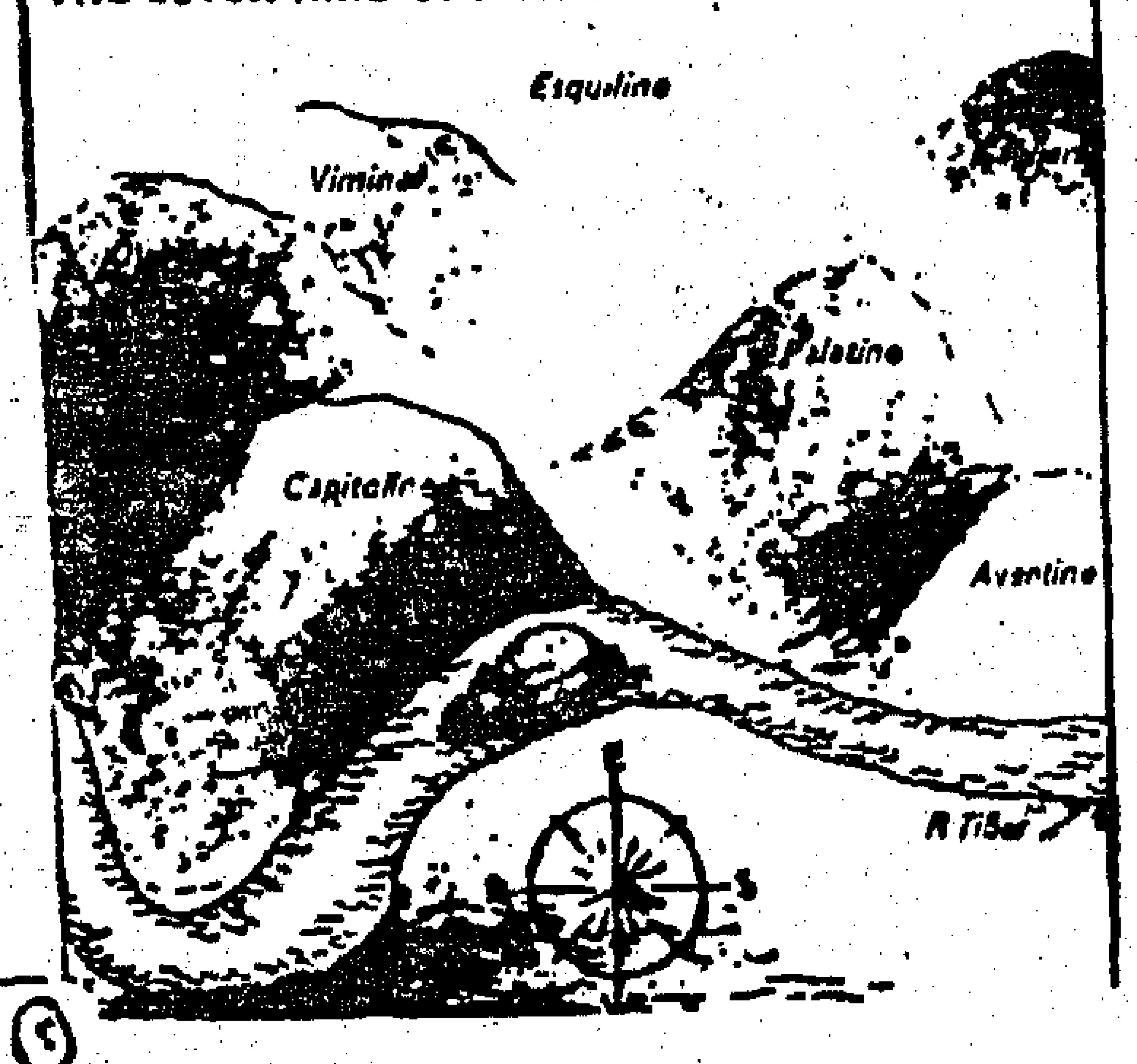


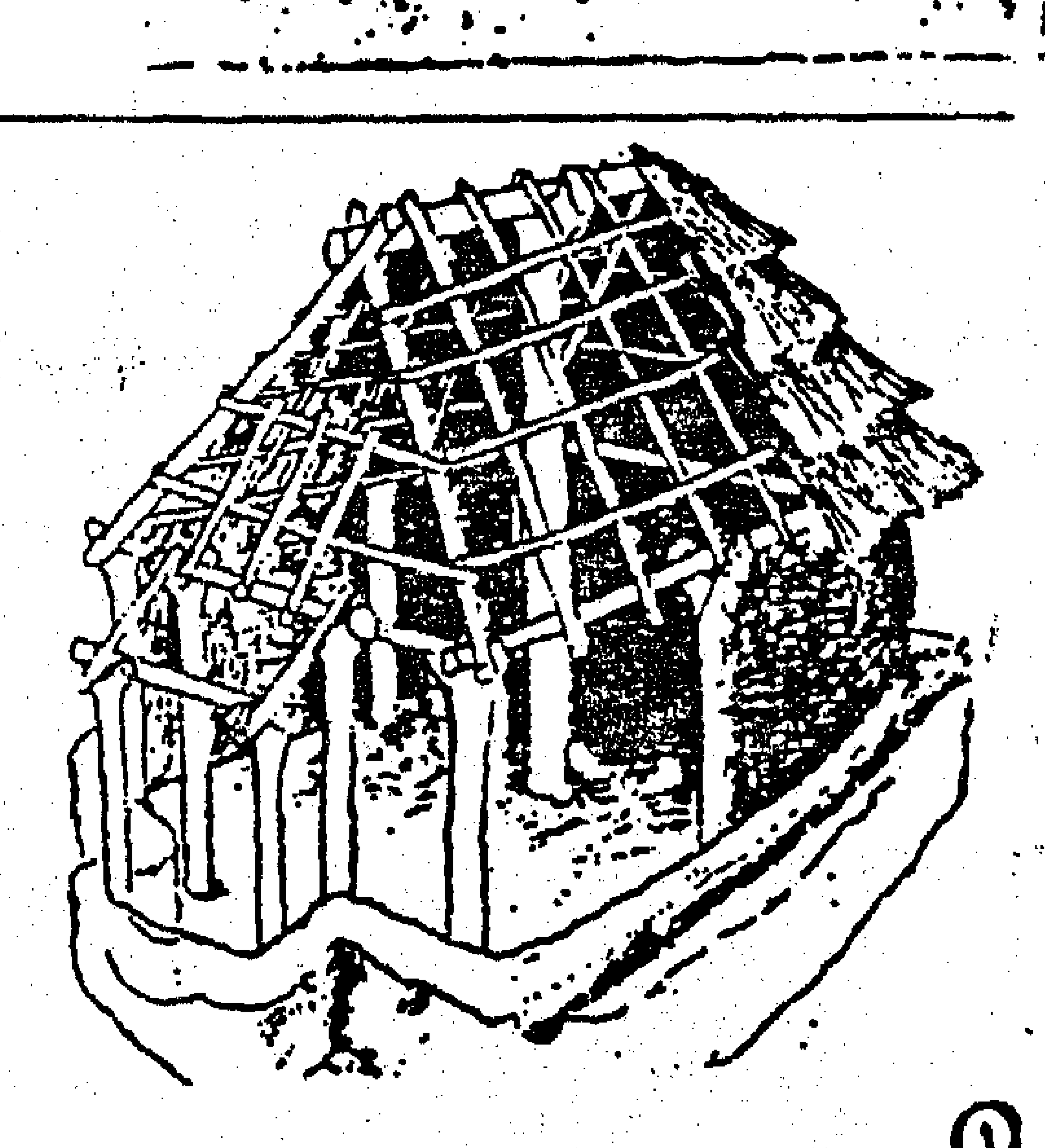
The Roman Empire, and the position of the legions, approximately at the death of Augustus, AD 14
senatorial provinces
imperial provinces
one legion
GERMANIA
DACIA
ARMENIA
ARABIA
MAURETANIA
ITALIA
1 BAETICA
2 LUSITANIA
3 TARRACONENSIS
4 NARBONENSIS
5 AQUITANIA
6 LUGDUNENSIS
7 BELGICA
8 GERMANIA INFERIOR
9 GERMANIA SUPERIOR
10 ALPES PENNINAE
11 ALPES COTTIAE
12 ALPES MARITIMAE
13 RHAETIA
14 NORICUM
15 PANNONIA SUPERIOR
16 PANNONIA INFERIOR
17 ILLYRICUM-DALMATIA
18 MOESIA SUPERIOR
19 MOESIA INFERIOR
20 MACEDONIA
21 EPIRUS
22 ACHAEA
23 CRETA
24 CYPRUS
25 ASIA
26 BITHYNIA
27 GALATIA
28 PONTUS
29 LYCAONIA
30 PISIDIA
31 PAMPHYLIA
32 CILICIA
33 SYRIA
34 PHOENICIA
35 JUDAEA
36 ÆGYPTUS
37 CYRENAICA
38 AFRICA
39 NUMIDIA
40 CORSICA
41 SARDINIA
42 SICILIA

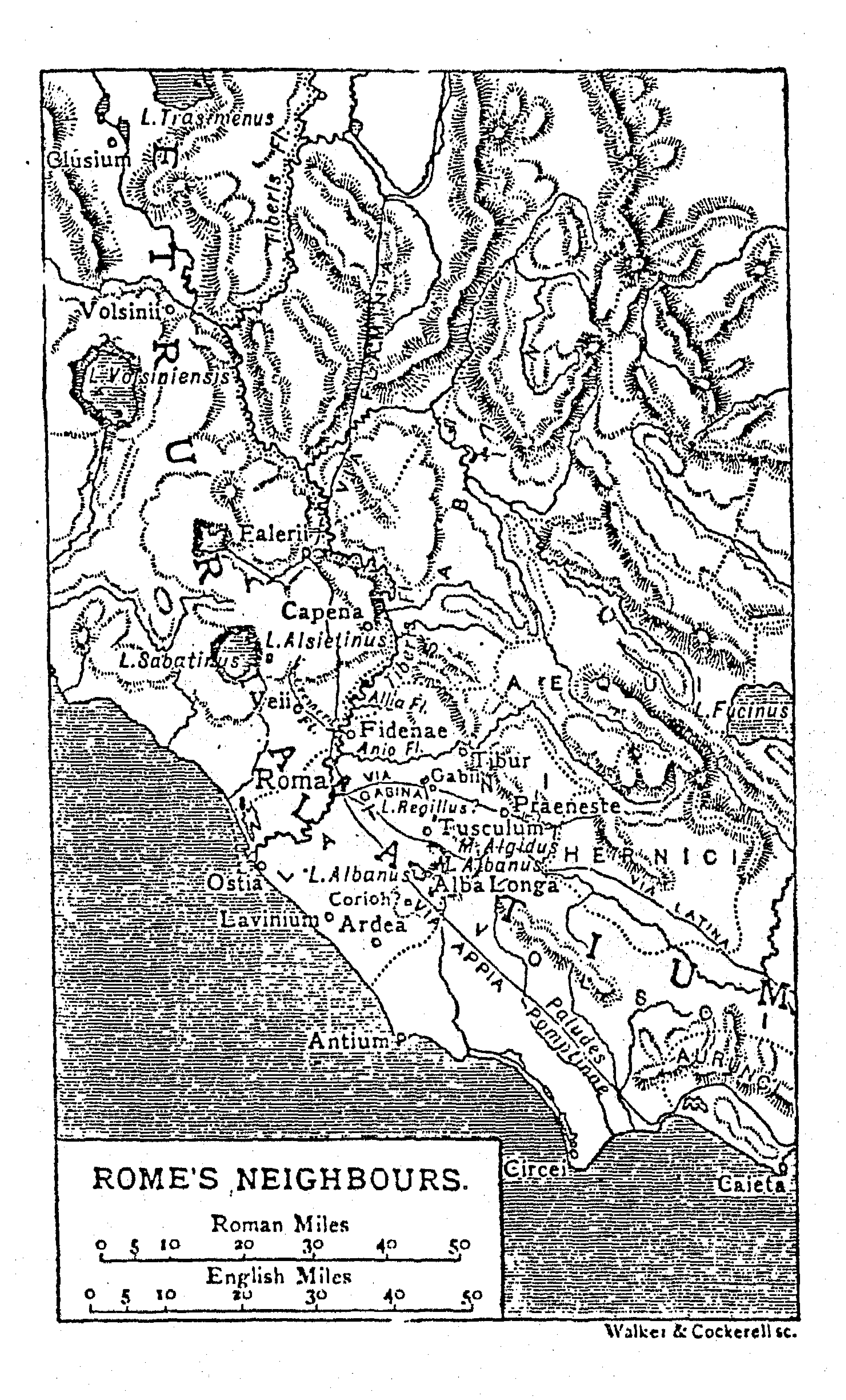
Romans liked to recall how their city began. The bronze she-wolf was made in the early republican period, though the twins were not added until nearly 2,000 years later.

below: Whatever we think of the legends, a settlement on hills beside a river crossing makes sense. On the Palatine hill archaeologists have found traces of huts which must have been like the reconstruction shown. They could date from when Romulus is said to have founded the city in 753 BC.









ROME'S NEIGHBOURS.

Walker & Cockerell sc.



Emery Walker Ltd. sc

رقم الايداع ٧٤٣٦ / ٩٥

I . S . B . N

977 - 245 - 079 - 8

